منشورات ضفاف
Editions Difaf





هشام مشبال



رواية

بِيت النَار

رواية


طبع في لبنان

بِيت النَار

رواية

هشام مشبال







الطبعة الأولى

1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-4281-4



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل

هاتف: 212+ 537723276- فاكس: + 212 537200055

البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

إلى روح أمي

المحتويات

الكانون

كل الدّيكة تصيح فجرا.. إلاّ في قريتي فإنها تصيح في آخر الليل.

تسلَّلتُ من غرفة جدّتي بحذر شديد وبعد معاناة. كانت العتمة أشد وطأة.. شعور باختناق وانقباض حادين.. وبأن العالم مثل العدم كلّما تأملته يزداد فراغا؛ هواجس أبدية تخترق هذا الجسد المثقل بالحيرة والحنين في آن. كنت أتلمّس الجدران بأناملي وأتجه إلى الباب حافي القدمين مثل أعمى فقد ظلَّه. يقع الباب الصغير المقوّس والمطرَّز بقطع نحاسية غامقة عند حجر الزاوية المطلة على فناء البيت، وكانت للغرفة نافذتان صغيرتان؛ إحداهما تطل على شجرة الليمون الظّليلة ناحية الشرق، والأخرى تواجه شريط البحر الطويل جهة الشمال، لكني، وبسبب الظلمة الشديدة، لم أكن أدرك أين أقف ساعتها، فبينما توقَّعت أني أشقّ خطواتي إلى الخارج حيث النور، كنت في الحقيقة أعرج إلى اليمين، في قلب الظّلمة، حيث فلورا ممدّدة على مترية قديمة كأنها صخرةٌ في قلب بحيرة ميتة.

كان لابد أن أفيق في منتصف الليل منزعجا بسبب لدغات البعوض المتكررة وبسبب الحرّ. بعوضٌ مختلف؛ أشقر وهزيل، لا يصدر طنينا مزعجا، يختفي في الظل البارد، يركن صامتا ويوهم بالأمان، ثم يتحرك مع توقف الحركة. لسعته تنشر دماملَ في الجسم كله. بعد معركة بطيئة وثقيلة ضد الظلمة، وصلت إلى باب الغرفة، تنفست بهدوء وأنا أكظم غيظي ثم فتحته بهدوء. كان ضوء القنديل المعلّق على الجدار يصل حينئذ إلى وسط الدار

مكسورا وضعيفا، لكن شعورا مفعما بالحنين راودني وأنا أتأمل تفاصيل المكان وأستنشق تلك الرائحة القديمة الراكدة في ذاكرة الطفولة؛ اللبن الخثير، والتبن، وجلد الماعز، والحصيرة البالية، والمراكب العتيقة، وطحالب البحر المتيبّسة. رفعت عيني إلى أعمدة الخشب المتهالكة التي تحمل سقف البيت. شعرت بدوار صغير ورغبة لا تقاوم في الاسترخاء. وكانت الدمامل الصغيرة ذات الرؤوس الوردية تنتشر في جلدي كسحب متفرقة ثقيلة تحجب الشمس وتجثم على بحر المتوسط في مساء صيف قاهر. مزيجٌ من السخونة والبرودة في آن ينهش هذا الجسد الممدّد على الحصيرة فوق الأرض الصَّلبة الباردة. استقرَّت عيناي على عش عصافير في زاوية السقف، لم يكن ثمة عصفور يشقشق، لكنني تذكرت للتّو أن العصافير في قريتي لا تغرّد في نصف الليل.. مثلما تصيح الديكة على غير عادتها.

كنت شماليا.. أنحدر من قبيلة غمارة المطلة على المتوسط. وعيت بالدنيا في بيت جدي المطل على البحر بقرية أمتار. بعدها بسنوات قليلة بنى أبـي منزلا بالجبهة عشتُ فيه أجمل سنوات الطفولة.. وحين أتممت عامي العاشر انتقلنا إلى تطوان. كانت تلك السنوات الأولى كفيلة أن تجعلني أواصل ما تبقى من حياتي يتملكني إحساس دائم بالغربة.

وكنت مثل أبـي، أعشق قريتي وأستأنس بها في حياتي المليئة بالمفاجآت. عشقُنا الشديد حوَّلنا إلى أرواح شبه منفصلة عن أجسادها. لكن أبـي على الرغم من تناقضات الحياة في المدينة، استسلم لها وقرّر أن يواصل حياته بنظرة خالية من الحنين. أدرك هو السبيل، في حين لم أستطع أنا، فعشت بوعيين.

رمتني الأقدار إلى جنوب إسبانيا منذ عشرين سنة. لا، ليست أقدارا بقدر ما كانت حلولا مجدية لحياتي المضطربة. كانت الغربة ملاذي الوحيد من أجل بداية أخرى قد يغدو معها النسيان هو المنقذ الوحيد. تصوّرت طوال رحلتي وهروبـي، أن التذكرَ فعلٌ لاإنساني حين يقترن بالآلام ويستدعي كل الصّور الصَّادمة. الحياة بلا مبالاة ربما تكون حلا لمعضلتي، لكنني أدركت في

النهاية أنها قناع حين يزيحه الإنسان يكتشف أنه في مواجهة كل الصور الكريهة الباهتة التي تنفجر دفعة واحدة مثل سيول سبتمبر. اكتشفت بعد عمر طويل أن هروبـي، عكس ما توقعت في البدايات، فسح لي المجال أن أعيش بذاكرة يقظة وقلقة على الدوام.

كانت أحلامي، رغم مزاجي المتقلب والسوداوي أحيانا، بلا حدود وأنا في الجامعة؛ أن أثور على حياتي كلِّها بكل خمولها ونزيفها. لكن الأحلام، كما كانت تقول أمي، لا تتحقق دائما حتى ولو كانت صادقة. كانت أمي ترى جانبا واحدا من الحياة؛ ذلك الجانب المبهم والخفي، حيث لا معنى للألم حين يصير عادةً يومية، ولا معنى للحلم لأنه مجرد وهم طفولي أو أمنيات عبثية لأناس مرفهين.

نعم كانت أحلامي كبيرة، لكنها انطفأت قبل الأوان. سافرت مخلِّفا ورائي جحيما من الخيبات والانكسارات. ظننت أن السفر سيذيب جليدَ التذمّر من ذاكرتي، لكن يبدو أن أمنيتي تبدّدت فجأة منذ أن وطأت قدماي أرض الغربة. لم يكن حنيني في البداية للوطن، ولا للنّاس، فقد كنت خاملا فاقدا حينئذ لكل الأشياء الجميلة التي تربطني بالماضي. كان شعوري أشبه برعب؛ بنهاية حتمية لروح لم تعد تستمتع بمعنى وجودها على الأرض فأصبحت تعجِّل الرحيل. وكانت عزلتي الجديدة تضاعف شعوري وتستدعي كل أحاسيس السأم والوحدة المقيتة؛ عزلةٌ فاقت تجربة اعتقالي القاسية في سجن درب مولاي الشريف لسنوات. وفي قلب الاغتراب والشعور بالوحدة، كانت حياة وحدها تطل عليّ من سماء لم تعد قريبة. ذكراها الملازمة لخيالي، ابتسامتها الواثقة، ورائحة عطرها، نظرة الدفء في عينيها، كل تفاصيلها العالقة بمخيلتي الهشة كانت تجدد الحنين. حاولتُ كثيرا نسيانها فلم أستطع. أدركت أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. مارست المشي كثيرا.. شربت الأقراص المهدئة كثيرا.. شغلت نفسي كثيرا أيضا.. ودخلت في نفق من العلاقات المختلفة، كل ذلك لم يزدني إلا تعلقا وحنينا. اكتشفت أن كل مراوغاتي كانت تأكيدا عبثيا لشعوري الدائم بأني عاجز، وبأن احتياجي لها يماثل احتياجي للماء والهواء. كانت ذكراها الملازمة لحياتي تفاقم إحساسي بالمرارة.

وكنت أتذكرها باستمرار لأنساها.. فعلا كنت أتذكرها لأنساها.

بيد أن اغترابـي كان أيضا تجربة حقيقية لي في اكتشاف ذاتي شديدة التعقيد. فقد كنت سريع الغضب، وسريع التصالح مع الذات في آن، وكانت فلورا دائما تتركني أنفجر وحدي، وحين أهدأ تقول لي بابتسامة لاذعة "لا يليق بك الغضب.. تبدو مخيفا".

كانت فلورا هادئة على الدوام.. لا تشبهني. وربما لأنها لا تشبهني، أحببتها.

أحببتها حبا عاجزا.. وكانت هي تدرك ذلك وتصرُّ على مداواة جرحي بصبر امرأة ليست كباقي النساء. لا أتذكر من حياتي في الغربة إلا القليل؛ ذكرياتٌ كالشمعة تذوب شيئا فشيئا. أتذكر أني حملت مرارا حقيبتي للعودة إلى الوطن لكني أتراجع في النهاية. شيء عميق يمنعني؛ يفوق الخوف والرعب والشعور الطبيعي بالاستسلام لحتمية الموت. كانت دقات قلبـي ترتفع يصاحبُها غثيان شديد وفتور أشد. أعود إلى غرفتي وأغلق الباب وأنام لأواصل مشوار غربتي أو هروبـي الطويل.

بدأت العمل في صحيفة محلية محررا ثقافيا، وانتقلت بعدها للعمل في مراكز بحث عديدة تعنى بالتنمية في شمال إفريقيا ودول المتوسط. تفاصيل كثيرة مرت ولم يتبق منها سوى ظلالِ حقيقةٍ واحدة؛ لم يكن هروبـي سوى أداة لتعميق الجراح القديمة التي استقرت في ذاكرتي لسنوات وشكلت هويتي. تذكرتُ أشياء ونسيت أشياء.. عشت مترددا بين الذاكرة والخوف.. بين اليقظة والاستسلام.

لكني أتذكر جيدا أول يوم رأيت فيه فلورا.

كنت حينئذ أعد بحثا حول حرب الريف المغربية في بدايات القرن العشرين مابين 1921-1927 وأجمع معلومات تخص قصف إسبانيا للريف وجبالة بغاز الإيبيريت (الخردل). وكانت فلورا التي حصلت على الماجستير

في الترجمة وتعمل أستاذة في قسم الدراسات العربية بجامعة غرناطة، تحضر رسالة دكتوراه في مجال مختلف هو الإثنوغرافيا؛ بعد حصولها على ماجستير إضافي في قسم الدراسات الأنتربولوجية. اشتغَلَت ببحث في العادات والتقاليد في مناطق جبالة شمال المغرب في النصف الأول من القرن العشرين. أتذكر ذلك الصباح جيدا قبل خمسة عشر عاما، في قصر أو مكتبة الإسكوريال بجبل واد الرام شمال غرب مدينة مدريد.. كنت حينئذ أتنقل بين الرفوف وأبحث عن كتب ومجلات. وقفت إلى جانبـي فتاة في العشرينات شقراء ذات ملامح هادئة، رشيقة القوام تميل إلى الطول قليلا، شعرها الطويل المنفوش غير المسرح ينسدل على كتفيها الرقيقين ويغطي جزءا من وجهها. بقيت أختلس النظر إليها في حين كانت مشغولة هي بفتح مجلدات عربية؛ تتصفحها وتسجل في دفتر صغير تضعه في جيب معطفها الأبيض. وحين تطلعت إلي، ابتسمت وخطت بخفة خطوات صغيرة باتجاه الطاولة وانهمكت في قراءة كتاب، بينما أدرتُ وجهي بسرعة ينتابني شعور بإحراج شديد. كنت حينئذ أفكر في هذه الإسبانية التي تقرأ كتبا عربية قديمة. أريد أن أعرف سرَّها؛ دفعني الفضول إلى أسئلة لها معنى وأخرى لا معنى لها. وفي المساء قصدت المحطة عائدا إلى غرناطة حيث أقيم وأعمل. صعدت الحافلة. بحثت عن مقعدي الذي يحمل رقم 8. لكن المفاجأة كانت كبيرة حين وجدت الشقراء تجلس بجوار النافذة وتتطلع بشرود.

ومنذ ذلك اليوم أحببت رقم ثمانية واعتبرته جالب حظ.

وعلى الرغم من جدة الأشياء الطارئة في حياتي بعد سنوات الشقاء، فإنها لحظات كانت تذوب في الذاكرة الملعونة بسرعة عكس تفاصيل حياتي الأولى، حيث الحب والمغامرة السياسية والفقد والسجن والرغبة المتقدة في كتابة رواية عن قريتي، الأرض الجميلة التي تطلُّ على المتوسط وتمزج الجمال والحب والحرب والتاريخ والثقافات، البحر والجبال والمراكب، رائحة حراشف السمك والقنّب وشبكة الصيد تحت الشمس، لون التراب الأجوري وأشجار التين والصبّار. إنها تلك الرغبة التي اعتقدت لسنوات أنها مخلصي الوحيد من الأرق واللاّطمأنينة. هيأتُ كل شيء لأبدأ لكن بتردد جعلني مثل

طفل يهاب اقتحام الأمواج. ولّد لدي هذا الشعور رهبةً من البداية؛ وإحساسا بعدم القدرة على الانطلاق. وكانت فلورا الوحيدة التي تعرف معاناتي، تشجعني مرارا وتهيء لي كل الطقوس الخاصة بالكتابة. وكنت أعرف أن امرأة صديقة مثلها لن تتكرر في حياتي، وعلى الرغم من ذلك لم أكتب شيئا. ظللتُ على حالي؛ روحا تحتضر، وظلّت الكتابة رغبةً محبوسةً غير منطلقة، أو حلما بعيدا لم أتملكه بل تمنيته وأتمناه.. حلما عزيزا غير قابل للتحقُّق.

كنت أعي جيدا أن الحياة قصيرةٌ جدا، لا تسمح لي بمراجعة أخطائي، ولا بفتح صفحة حساب قد يفاقم إحساسي بالإخفاق. نظرت إليها دوما باعتبارها نهرا، له كل الاحتمالات، قد يصبُّ هنا أو هناك.. وقد ينضب ويتوقَّف. لكن على الرغم من إدراكي، فقد عشت بوعيين؛ أحدهما يتوق إلى السكينة والثاني لا يتوقف عن جلد الذات. لذلك صار النهر الاستعاري الجارف صورة ملازمة لخيالي. وتحولت الرّغبة في الكتابة من حافز نفسي ممتع إلى عامل مؤرق في حياتي. أدركتُ جيدا أن كل حبّ في الدنيا قد يكون مصدر سعادة على نحو ما قد يكون مصدر هلاك. بدأت أستنفذ طاقتي في المقاومة، أو في خلق نوافذ جديدة أطلّ منها على العالم. وتحوَّلت الدهشة الملازمة لأرقي الذي يأسرني إلى مولِّد للكآبة. أيقنت أن الإنسان ليس طاقة متجددة باستمرار، وأن الزمن والجينات المتوارثة والدوافع والمزاج الشخصي والقدرات الخاصة وغيرها، ليست سوى عوامل مؤقتة يجب استثمارها في الحياة بشكل أفضل كي يستمر الإنسان في العطاء النبيل والأمثل. استنفذت طاقتي وأيقنت أن الحلم الذي تمنيته طوال حياتي صار نقطةً فاصلة بين الوجود والعدم؛ أكون في هذا العالم أو لا أكون.

لا أدري المدة التي استغرقتها في تأمل ذاكرتي المجروحة؛ انتقالي من اليقين إلى الشك. لكني أفقت من شرودي على صوت جدتي حْمَامة وهي تعبر فناء الدار بحذر شديد. نفخَت بفمها في فتيلة سراج القنديل فابتلع الظلامُ الدّارَ مرة أخرى، وشقشقت العصافير. ثم خطت ببطء نحو بِيت النار[1].

نهضت واقتربت من الباب. بقيت أطل من الكُوَّة على جدتي وهي تحمل

شمعة وتضرمُ النّار في الكانون. ثم انزوت في ركن الغرفة على حصيرة بالية وطوت قدميها النحيفتين وتغطّت بمنديلها الأحمر المخطّط بالأبيض. وبدأت رائحة العود المحترق تعبق وتزحف حاملةً معها الحنين؛ الدخانُ الذي يصعد ثقيلا وينشر نورا في الغرفة السوداء أحيا طفولتي من جديد.. أيقظ تلك الصور القصيّة وهي تتردد في ذاكرتي؛ مزيجٌ من نور الشمس وهي تلامس التلال البعيدة؛ نورٌ غامض مشع مبهم.. نسائمُ البحر الرقيقة العتيقة وصفحةُ التراب البليلة المشقوقة، الأعشابُ المتوحشة على ضفاف الوادي، والدخان المنبعث من الفرن وبخار القِدرة على النار. كل هذا الخليط تدفّق مثل النبع الصافي في مخيلتي فأيقظ أحاسيس قديمة غائرة. اقتربت من النافذة الصغيرة. فتحتها وتطلّعت إلى القمر. دخل هواءٌ باردٌ وشعرت بالارتجاف.

كانت جدتي حْمامة امرأة هادئة تميل إلى الصمت؛ ولا أعرف إن كان الصمتُ الجاثم على ملامحها سمةً بشرية متأصلة فيها، أم اكتئابا ترسّخ مع الأيام وصار طبعا ملازما لحياتها خاصة بعد وفاة خالي الحسن. لا أتذكرها سوى امرأة تنطق بالحكمة؛ قليلة الكلام وقليلة الضحك أيضا. لها عينان منهكتان مليئتان بالشعيرات الدموية الرقيقة التي تكاد تنفجر، تحتهما زرقة باهتة عميقة محاطة بتجاعيد رقيقة.

كان الاعتقاد الراسخ لدي أن الجدية المفرطة لابد أن تنتج كائنا بشريا عابسا مهموما على الدوام، مثلما تنتج التفاهة كائنا رخوا وهجينا بلا هوية. كان ذلك هو يقيني سنوات طويلة، لكن بعد غربتي، صرت أملك تفسيرا آخر لميول جدتي للعزلة. لم يكن انقطاعها بسبب الطباع الجادة فحسب، ولا الجينات المتوارثة التي تميل للاكتئاب، بل كان بسبب العيش الطويل في دائرة الخوف من جدي من جهة، والحزن على فقدان ابنها الحسن من جهة ثانية.

جلستُ إلى جانبها على الحصيرة وقد تسرَّبت منها رائحة البلى الغميقة. يملأ الدخان المنبعث من مدفأة الحطب الغرفة المتشحة بالسواد. أمد يدي إلى يدها النحيفة، ألتقطها بهدوء، تسري في جسدي الثقيل رعشةُ حنينٍ قديمة، أقبّلُها وأضع يدي الأخرى على رأسها وأربِّت برفق. تقول لي وهي تختلس

نظرات فيها لومٌ وحب:

- خرجتَ صغيرا.. وعدتَ كبيرا. حرمني القدر من أمك وخالك وحرمتني أنت منك.. لماذا يا ولدي..؟

لم أنطق بكلمة. كنت أتأمل ظلّي وهو يتمدد مع الدخان كجسم خرافي على الحائط القديم. صورتي الباهتة، كل الذكريات القديمة التي تناثرت مثل أشلاء في معركة بلا أهداف. تتدافع الصور القديمة في شريط مخيف، مرتبك. شعرت فجأة بأن الدم سيتجمّد في عروقي النابضة، وبأن ذاكرتي تتخبط مثل عصفور في قفص مظلم.. أو مثل أغصان رقيقة تترنح في قلب عاصفة هوجاء. كانت الفكرة أن أحيا مجددا في هذه الأرض بعد هروب طويل تثير لدي الشعور بالرعب.. توقظ تلك الأمنيات المكسورة الباهتة. وفي نفسي يتردد السؤال ذاته الذي رافقني طوال حياتي: ماذا أريد؟

أيقظني السؤال وانتشلني من السّديم، وجعلني أتعرَّى أمام جدتي وهي تثير بنظرتها العميقة كل شكوكي. هل مازلت أنا؟ هذا الطين أعرفه، وهذا الكانون هو نفسه برائحته وسواده ودخانه، وهذه الحصيرة التي أكلتها الرطوبة، كل هذا أعرفه فماذا تغير؟ التفت ثانية إلى جدتي وهي ترمي أحزانها القديمة في عيني.. عتابُها مايزال معلقا يتردد كالصّدى في الدروب العتيقة المهجورة: لماذا يا ولدي؟

المرأة التي جاوزت الثمانين تنهض من قِعدَتها ببطء كفراشة بلَّلها القطر، تتركني مستندا إلى الجدار البارد أنادم ظلي، تمسك الإناء الكبير بمنشفتين وتسكب الماء المغلي في سطل صغير، تضيف إليه ماء باردا لتعتدل درجة حرارته. نزقَ السطلُ وتدافع الماء فانسكب على الجمر. تخطو جدتي خطواتها المائلة المجهدة لتتوضأ وتصلي الفجر. في طريقها تفتح النافذة الصغيرة التي تطل على فناء البيت، يدخل نور الصباح عليلا. تشقشق العصافير وتطل فلورا بعينين لامعتين من فتحة باب بِيت النار.

تمددت إلى جانب-ي على الحصيرة وهي تبتسم ثم قالت:

- هذه أجمل ليلة أستمتع فيها بالنوم والصمت الحقيقي.. هواء الغرفة البحري منعش جدا..

- متأكدة؟

- طبعا.. لقد انقطعتُ تماما عن العالم..

- والبعوض.. والسّهد.. وصراخ الأطفال الذين يفيقون باكرا في قريتنا عكس كل أطفال العالم؟

- أي بعوض؟

ثم كشفتُ لها عن جلدي الذي انتشرت فيه بقع وفقاعات وردية داكنة. أما هي فقاومت ضحكتها:

- يبدو أن البعوض لا يقترب مني.. أولا لأني امرأة، ولأن فصيلة دمي لا تناسبه.. كما أنني لست بدينة مثلك.. ألا يكفي هذا ليجعلني في منطقة آمنة؟

وافترت شفتاها عن ابتسامة عميقة وضحكة منطلقة. بيد أنني واصلت تأملاتي في ظلّي الذي يتمدّد مع الدخان على الحائط. عادت جدتي وهي تحمل بيدها اليمنى قِصعة من الفخار متوسطة الحجم فيها طحين قمح، وفي اليد الأخرى إناء ماء صغير.

أمواج من الحنين تتقاذفني وأنا أتأمل جدتي وهي مقوسة تدلك العجين وتدعكه بأناملها الرقيقة وتضيف إليه ماء، وتعركه وتفركه وهي تتنهد، ثم تصفعه وتقطعه قطعا صغيرة متساوية، وتغطيه بثوب ناصع أبيض كي يختمر..

على مائدة الفطور جلسنا نحن الثلاثة؛ براد شاي غامق اللون وفطائر ساخنة وإناء مملوء بزيت الزيتون وطاس زيتون أسود مر. وضعت محفظتي

الصغيرة التي لا تفارقني إلى جانبـي، ورحت أغمِّس الخبز في الزيت وأشرب جرعات من الشاي بلهفة شديدة وكانت فلورا مثلي أيضا، تأكل ولا تتكلم، تكتفي بالاستمتاع بهذا المذاق الجديد الذي لم تعرفه من قبل. قالت لي وهي تلتقط زيتونة وراء أخرى:

- هذا زيتون مختلف.. وزيت مختلف وشاي مختلف أيضا.. ما هذا السحر الغريب؟ إنها جاذبية الأرض يا مختار. كل ما يأتي من هذه الأرض فهو جميل..

لكني كنت أفكر في شيء آخر. سألتها وأنا أصنع ابتسامة ساخرة:

- أعرف أنك تتبعين حمية منذ شهور طويلة.. أليس كذلك؟

قالت وهي ترفع حاجبيها:

- لا أستطيع أن أقاوم.. وأعتقد أن هذا النوع من الأكل هو أيضا حمية.. لقد حدثتني عنه ماما ألْما طويلا.. كنت أشعر بجماله في خيالي ولا أعرفه..

التفت إلى جدتي الصامتة.. كانت تأكل بهدوء شديد وتحني عينيها باستمرار.. تشعر حين تتأملها جيدا أن الانكسار الجاثم على تجاعيدها نتيجةٌ حتميةٌ للجهد الذي يبذله معظم البشر في سعيهم إلى السكينة المفتقدة. أما فلورا فسألتني فيما بعد سؤالا لم أستطع الإجابة عنه: "جدَّتُك يا مختار تملك كل شيء إلا القدرة على المرح.. هي لا تستطيع أن تضحك، وربما إذا ضحكت فسوف تبكي بشدة. إنها مثل طائر الكناري المسجون في القفص يغرِّد لكنها تغريدة الموت.. لماذا يا مختار؟".

التقطتُ المحفظة الجلدية من جديد، وكان الشعور الذي يلازمني وأنا أتأمل الكانون والنار الهادئة ورائحة الفطائر والنعناع أشبه بشعور زاهد منقطع؛ كأني أغتسل من التيه الذي لازمني وأرهقني لسنوات. نهضت جدتي

وغابت في الدخان المنبعث من الكانون، أما فلورا الرشيقة فخطت خطوات قصيرة إلى الغرفة لتعود وهي محملة بآلة الكمان وألبوم الصور والذكريات وبعلبة صغيرة تضغط عليها وتخفيها بين راحة كفها. كانت عيناها تلمعان مثل عيني قطة تتربَّص بفراشة في العتمة. جلست إلى جانبـي واتكأت على الحائط الفاحم. أخفت العلبة الحمراء في جيبها ثم فتحت الألبوم وهي تشير بسبابتها وتردد:

- أنا مشتاقة لرؤية المكان وهؤلاء الناس.. من بقي منهم، أولادهم أو أحفادهم. أريد رؤية منزلنا القديم.. أريد..

لكني قاطعتها:

- سيحدث كل ذلك، لكن لا تبالغي في أمنياتك، ثمة في الواقع مفاجآت.. صدقيني، أعرف أنك محملة بحكايات وذكريات وصور.. لكن الواقع كما بلغني من بعض الأصدقاء الذين أتواصل معهم قاس ومر.. أشياء كثيرة تغيرت.. مثل حياتنا التي تتغير باستمرار.

وتملكها فتور مفاجئ. شعرت بأني أكسر تلك الأمنيات التي تحركها منذ سنوات وتجدد دماءها، فاستدركت:

- على العموم أنا أريد أن أراك سعيدة.. المهم أن تكوني سعيدة، صدقيني فلورا..

ظلت صامتة وهي تتأمل الصور القديمة، وفسحت مخيّلتها لمتعة التذكّر، وبصوت شاعري قالت وهي تشير إلى شخص بعينه:

- أخبرتني جدتي نيفادا ذات يوم أن هذا الرجل الذي يدعى عبد الرحمان؛ عازف العود، كان يحب ماما ألْما.. يلاحقها بعينيه باستمرار لكنه لم يتكلم قط.. وحين حدثته هي ذات يوم، تلعثم واحتد.. صار عنيفا فجأة وبلا مبرر.. لكنها رغم ذلك ظلت تحب قصته المبهمة.. وتحب عزفه.

أجبتها بسخرية:

- سمعت هذه الحكاية ألف مرة يا فلورا.. المبرر الوحيد هو الخجل..

ألقت فلورا نظرة قاطبة وتجهّم وجهها وقالت وهي ترفع حاجبيها:

- قل لي مختار، هل صحيح أن الرجل الجبلي عنيف بطبعه؟

- أنا لا أعرف.. أنت ربما أدرى مني.. لقد عشنا سنوات طويلة مع بعض، فما رأيك؟

ضحكت بمرارة وقالت:

- إذا هو كذلك.. وربما أكثر.

ثم واصلت وهي تستجمع أنفاسها:

- قد تنسى المرأة كل الهدايا والورود والقبلات والاعتذارات يا مختار، لكنها بالتأكيد لن تنسى كلاما جارحا.. تذكر هذا جيدا.

وعادت جدتي مرة أخرى وخفّفت من حدة الحوار:

- اليوم ليلة عرس ابنة خالتك مريم.

- مريم من؟

قالت وهي تضع يدها على جبينها وتزفر:

- آه.. نسيت.. حين ولدت هي لم تكن أنت موجودا هنا.. هي الابنة الثانية لخالتك القادرة؛ أقصد رحمة.. أنت تعرف يونس فقط..

أما فلورا فظلت تصرخ بسعادة وهي تسمع أننا في يوم عرس. بريق

فرحة يطل من عينيها وهي تردد:

- أنا مشتاقة لعرس جبالة.. سمعت عنه الكثير؛ الحنة والغيطة وركوب البغل ووو. هي تفاصيل كثيرة كما قرأت في الكتب..

لم أشأ أن أبدد فرحتها.. فقلت على غير اعتقادي:

- أنا أيضا..

وابتسمت فلورا والتقطت يدي وهي تردد:

- لقد طلع نور الصباح.. فلنخرج ونتأمل القرية التي لم أرها بعد.

عبرنا فناء الدار. فتحت الباب الحديدي القصير.. واجهني البحر اللاّمع فأخذني الحنين وشعرت بفرحة طارئة، لكني حين التفت إلى الجهة الغربية تبددت فرحتي فجأة كمن لسعه عقرب. بدت لي القرية عشواء مخيفة وكئيبة؛ مبان مرتفعة ومتشابكة، كثير منها إسمنتي أو أجوري وبعضها الآخر مطلي بالأزرق الفاقع، أسلاك كهرباء متشابكة وأعمدة آيلة للسقوط. أمّا الرمال الذهبية التي ظلت لزمن طويل تلمعُ مثل المرايا، فقد غطّاها التراب ونبتت فيها الأشواك وبعض الشجيرات الهزيلة. شعرت بانقباض شديد وعدت إلى بِيت النار. كانت جدتي معتكفة في التسبيح وترديد القرآن. سألتها محتدا:

- ماذا حدث جدتي للقرية؟ أين الأرض الفسيحة والرمال الذهبية.. أين شجرة اللّيمون؟ ماذا حدث؟ وماذا أصاب شجرة التين الكبيرة.. لماذا شاخت وذبلت؟ أين أسوار التين الشوكي التي كانت تحيط المنزل؟

ظللت أسأل وظلّت جدتي صامتة للحظات ثم ثبتت عينيها الصغيرتين في ركن الزاوية البعيدة وقالت بشرود:

- لا زلت أتذكر حين رافقتُ جدَّكَ منذ سنوات طويلة إلى هذا المكان المهجور.. وغرَس أوّل شجرة.

لم أفهم شيئا.. ظللت مشدودا وشاردا. قلت لها وأنا ألملم خيوط دهشتي الطارئة:

- هل كنت سعيدة وأنت ترافقين جدي؟

قالت مرة ثانية:

- لا زلت أتذكر حين رافقتُ جدك منذ سنوات طويلة إلى هذا المكان المهجور.. وغرس أوّل شجرة.

ظننت أن الشيخوخة ربما استبدت بخيالها المتعب فكررت سؤالي بإلحاح.. أما هي فقد رمَت عينيها هذه المرة في عيني وأسهمت بنظرات الغريب الخائف ولزمت الصمت. شعرت بالدهشة وهي تنهش تفكيري.. وبدأت الأسئلة تتراكم وتتلاحق وتتدافع وأنا أتأمل جدتي وهي صامتة تحدق في الفراغ.. أخفيت المحفظة الصغيرة في جيبـي ثم التقطت فوطة ومسحت بها يدي.

أما خارج الدار فكانت فلورا تلتقط صورا لأطفال يرمون الحجارة على عمود إنارة خشبـي آيل للسقوط.

ليلة عرس

نُصبت الخيام حول بيت خالتي القادرة. اسم خالتي الحقيقي رحمة، ولكن لهذا اللقب قصَّة أخرى شهيرة جعل اسمها يتوارى. نُصبت الخيام في مواجهة البحر وصُفِّفت تحتها الأحصرة والمتارب والكراسي والموائد. أما عند باب الدار فثمة أطفالٌ يمرحون وقد ارتدوا ثيابا جديدة.. ونساءٌ ينظفن مدخله من الغبار الكثيف والأتربة الممتزجة بالرمال، بينما في قلب الدار أخريات يغسلن الأواني وبعضهن يدلكن العجين. عند عبوري الحومة، لمحت جدران المنازل الآجورية وأعمدة النور الخشبية المائلة وقد زينت برايات الوطن استعدادا للتصويت على الدستور الجديد. وتراءى لي من مسافة متوسطة رجل يقف عند مدخل الدرب، يتكئ على الحائط ويستعرض كرشه المتدلي وإلى جانبه عجلٌ كبير.

عرفت بعد ذلك أنه ابن خالتي يونس، كان يصغرني بسنوات قليلة، لكنه تغير كثيرا وفقد ملامحه بعد أن صار كتلة لحم مستديرة. تطلَّع إليَّ بعينين ذابلتين ثم سألني بصوت جهوري وهو يتثاءب دون أن يغطي فمَه ذا الأسنان المكسورة والمشوهة:

- مازلتَ على قيد الحياة؟

أربكني سؤاله، وفي لحظة ذهولٍ غمرتني، لم أتبين جيدا من الذي تكلّم، هل هو يونس أم العجل؟

قلت له بنغمة تحمل سخرية لاذعة أعرف أنها لا تنفع معه ولا تثير مشاعره:

- عشرون سنة يا يونس ولم تتغير.. كما تركتك. تزداد سمنة فقط..

ثم ضرب بكفيه على كرشه وقال:

- إنها النعمة يا ابن خالتي.. العلف والنوم والصحة كما ترى..

لكني لم أتمالك نفسي:

- علف؟ كأنك تحكي عن ثور..

ثم ربت بكفيه على كرشه وهو يضحك ضحكا جافا كريها..

أيقنت وأنا أتأمل حركاته، أن الطباع البشرية لا تتغير بسهولة عبر الزمن، فهي بحاجة إلى إرادة وثقافة واحتكاك ومقاومة للجينات السيئة.

لم يكن يونس يستلطفني. كنت أشعر على الدوام أن نظرته لي تحمل كراهية معلنة؛ نظرات شرور وبغض دون أن أعرف السبب، أو لأني أتجاهل الأسباب التي تجعل شخصا يكره شخصا آخر يجمعهما بيت واحد. بلى، كنت أعرف، لكني أتعمد النسيان كعادتي دوما حين أقرر دفن الذكريات المرة والصور الكريهة. كان يونس قليل الكلام، إلا ساعة الغضب حيث يتحول إلى شخص آخر، يقمِصُ بسرعة وإفراط، وقد يقلب الطاولة أو يضرب بالفأس خصمه وغير ذلك من الردود العنيفة غير المبررة أحيانا. لكنه رغم كل الغضب، كان كثير الضحك في مواقف أخرى مناقضة. هو نموذج للتناقضات الحادة؛ الخجل والجرأة، الحب والكره. إنه كما رسخت صورته في خيالي رغم الغياب الطويل، صانع الفرحة والرهبة في آن.

كنا نجتمع في بيت جدي ذكورا وإناثا، نقضي الليل في اللعب، نتبادل النكت ونروي الحكايات. السمر في الشرفة الواسعة تحت ضوء القمر كان شيئا

ممتعا. لكن يونس كثيرا ما حوَّل سمرنا إلى ما يشبه المأتم. يضحك حين يرانا صامتين، وينفعل حين يرانا نضحك. كنت أعرف أن حبَّه العاجز لسعاد سيحوِّله إلى كائن سؤوم لا يطاق.

عشق سعاد عشقا مجنونا حوّله إلى إنسان عنيف. فالحب مثلما ينقذ الروح في لحظات، فقد يهدّها في لحظات أخرى. كان يغار عليها بشدة ويلاحقها في كل مكان ويطبق على أنفاسها، بينما لا تعره هي أي اهتمام. تنفر منه وتتعمد استفزازه في مواقف كثيرة. ولَّد لديه هذا النفور واللامبالاة شعورا بالاحتداد. أتذكر جيدا كيف قلب الطاولة التي كنا نتجمع حولها ذات ليلة حين لمح سعاد تختلس النظر إلي وتبتسم وعيناها تلمعان بعد يوم قضيناه قرب جداول الماء نحكي تحت الشمس. كان قد باغتنا فجأة وهو يهدد ويلوح بأنه سيخبر زوج أمها، تركتُه حينئذ يتشنَّج وانصرفت، بينما لاذت سعاد بالصمت أو هكذا خيِّل لي، لكن فيما بعد قالت لي إنها حين سألته: "من أنت لتحاسبني وتراقبني؟" ظل يضرب رأسه في جذع شجرة التين حتى سالت منه الدماء بينما اختفَت هي في حقول الزرع ترتجف مثل أرنب تطارده كلاب الصيد. يومها قالت لي سعاد إنها تحلم بالذهاب للعيش في المدينة، وبأن القرية ضاقت بأحلامها الكبيرة. أشارت إلى الشمس وقالت: أشعر أنها لا تضيء الدنيا يا مختار.. لماذا هي باهتة؟. لم أجبها حينئذ، تركتها تحكي وكانت المياه تتدفق في الوادي والزرعُ يغطّي الحقول الشاسعة.

لم تكن سعاد أجمل بنات القرية، لكنها أذكاهن وأكثرهن حلاوة ومرحا وحديثا. عيناها واسعتان لامعتان وأنفها معقوف، ذات شعر كستنائي وحاجبين كثّين وشفتين حمراوين لزجتين نصف مفتوحتين كأنهما انتهيا من قبلة طويلة حارة، وكانت حين تحكي تصنع كلماتها سحرا مزدوجا؛ إبهامٌ ممزوج بالرغبة. قلت لها في ذلك اليوم: فيك شيء مختلف يا سعاد.. يبدو أنك خلقت لتنضافي إلى ألغاز هذه الأرض. سألتها وهي تنظر إلى الشمس: ما سرُّكِ؟ قالت بتغنج ودلال: أن أبدأ هناك.. بعيدا عن هذه الأرض. وكانت نسائم الزرع الأخضر تعشش بداخلي في ذلك اليوم الربيعي اللطيف. كانت تضحك وهي تميل برأسها على كتفها وتثير شهوتي. أمد يدي إلى يدها الخشنة. أحاول أن

أضمها لكنها تنفلت من بين أصابعي كعصفور وتجري بين الحقول.. تختفي ثم تعود وتطل علي وتقول: إلحق بـي يا مختار.. هل تستطيع؟ أجيبها بقناعة: لن أستطيع يا سعاد.. ربحتِ الرهان. تهدأ شهوتي فتعود هي إلى الجلوس بجانبـي لنحكي ثانية.. لكن يونس يخرج من بين الحقول كما يخرج عفريتٌ من قمقم.

في تلك الأيام تغيَّرت نظرتي لسعاد مثلما تغيّر سلوك يونس نحوي؛ لم يعد يطيق وجودي. تلمع عيناها؛ مزيج من السحر والرغبة والجنون في آن.. يحاول يونس أن يحدثها، يتظاهر أنه الأقوى ويسعى إلى الحفاظ على طبعه المتفوق. يمطرني بالشتائم وهو يرى سعاد تبتسم لي خلسة وتثير شهوتي في الليل. أتجنب الرد عليه وأطفئ نيران الحقد بصمتي.. لكنه يحتد كلما لزمتُ الصمت وكلما أدارت سعاد وجهها. يقلب الطاولة ويشتم ويهدد.. ثم يختفي مرة أخرى.

قال لي صدِّيق ابن خالتي حبيبة إنه قد تبعه في تلك الليلة بعد أن قلب الطاولة. تملّكه شك في أن يؤذي نفسه. ظل يراقبه في صمت ويقتفي خطواته. عبر الحقول الكثيفة إلى أن وصل إلى الوادي وجلس تحت شجرة التين الوارفة وراح يبكي.. يضع رأسه على راحة يديه وهو يردد: علاش يا سعاد؟ علاش...؟

استغرقت وقتا طويلا في الشرود، قطعه يونس بقوله:

- قل لي يا ابن خالتي، بعد هذه الغربة الطويلة، هل جمعت ثروة أم قضيت عمرك هناك في النوم، مثل عمك الذي عاد عجوزا فقيرا كما ذهب إليها شابا فقيرا أيضا.. عاش هناك يأكل وينام ويضحك؟

قلت له:

- المهم أنه عاش يضحك ويستمتع. لكني ما كنت أعلم أنك تهتم بتقييم السلوكات البشرية..!

امتقع فجأة وتجنب النظر في عيني. لم يدهشني السؤال لأني أعرف طباع يونس السيئة؛ فهو يحمل ميراثا من الحسد والحقد عن أبيه رحمه الله؛ فقد كان زوج خالتي شخصا ثقيل الروح.. شديد البخل في المال والمشاعر. عاشت معه خالتي رحمة حياة قاسية حوّلتها إلى جثة تتحرك وتقاوم.. ولم تسترد روحها المرحة إلا بعد وفاته بسنوات طويلة. رفعت عيني إلى يونس بعد صمت طويل وأجبته جوابا أدركُ أنه لن يفهم مغزاه:

- أنا يا يونس عشت حياتي في الغربة أقرأ وأبحث وأجمع ثروة عقلية لا مادية.. عشت آكل وأنام وأضحك صحيح، لكن ليس بإفراط.. الشيء الوحيد الذي أفرطت فيه هو البحث عن المعرفة والفكر.. تعرف لذّتهما؟

سألني متوترا:

- من هما؟

- المعرفة والفكر.

قال وهو شبه مذهول وقد بدا عليه التوتر:

- لم أفهم.

أدركت أن الحديث معه سيعكر صفوي في بداية يوم قررت أن يكون جميلا. لقد علمتني التجربة والحياة المشتركة مع فلورا أن السعادة تحتاج لجهد وإصرار، أو كما تقول هي دائما "صناعة البهجة". أنجح أحيانا وأفشل كثيرا.. لكني أصبحت أكثر إصرارا على صناعة الفرح وعدم الاستسلام لاحتداد الروح في لحظات التيه المؤرقة. قلت ليونس الذي يربت بكفّه على رأس العجل:

- أتركك الآن.. سوف أدخل لأسلّم على خالتي.

ثم انسحبت قبل أن يتملّكني الغيظ.

قررت أن أسجل تفاصيل العرس جيدا؛ هدفي اقتناص تلك اللحظات الموحية؛ رصد الطقوس والعادات الخاصة بالعرس الجبلي كما عرفته قديما وسمعت عنه، فرحة الأطفال واجتماع أهل القرية جميعا في مكان واحد تحت ضوء القمر دون دعوة أحد. إنها من دون شك مادةٌ خصبة للكتابة.

عبرت فناء الدار حيث النساء انتشرن في كل الأرجاء يزغردن ويهمسن ويتحدثن لبعضهن. كانت خالتي رحمة تدير ظهرها لي حين وضعتُ يدي على كتفها. استدارت مفزوعة وهي تتأملني بحيرة. قضت وقتا قصيرا في الشك ثم أشارت بأصبعها وهي تحرك شفتيها لتنطق اسمي:

- مختاااا؟

- نعم مختار يا خالتي.. أنا هو..

جذبتني إلى حضنها بقوة.. وهي تقبل يدي ورأسي وتغرس أنفها في عنقي وتتنهد.. ثم ذرفت دموعا ساخنة وقد امتلأت عيناها بالحنين:

- يا ابن أختي.. ولدي الحبيب..

تتأمل عيني بتركيز ثم تقبلني ثانية وهي تربت بيديها الاثنتين على يدي. تجذبني من يدي وتمضي بـي إلى الصالة، ثم تذهب بسرعة لتعود وهي تحمل كأس لبن وقطعة خبز قمح ساخن خرج للتو من الفرن. تذهب مرة أخرى لتعود ومعها فتاة مثل الوردة. تقول لي:

- هذه مريم.. العروسة مريم ابنة خالتك.. ولدت بعد سفرك بشهور قليلة.

تمد مريم يدها لي وهي تقول:

- سمعت عنك الكثير.. محظوظة لأنك ستحضر عرسي الليلة..

- بالطبع.. وسترافقني زوجتي..

كانت عيناها تشع فرحة وهي تنظر إلي. وكانت كلماتها تدل على أنها متعلمة ومختلفة عن أخيها يونس. التفتت خالتي إلي وسألتني:

- هل التقيت يونس؟

أجبتها باقتضاب:

- نعم التقيته.

لكنها شعرت من خلال نبرتي الباردة، وملامحي التي تغيرت فجأة من الابتهاج إلى السأم أن شيئا غير طبيعي حدث. وبحدس امرأة خبرت الحياة وعانت كثيرا، قالت:

- التقيته إذن يا مختار.. هل أزعجك بحديثه؟ هو هكذا يا بني، تغير كثيرا منذ الحادث الذي وقع له منذ سنوات، صار شخصا سيء الطباع حاد اللسان وغليظ القلب. أحيانا يكون وديعا جدا.. لكنه قد ينقلب فجأة.. وتأتيه حالات صرع متكررة.. أرجوك يا مختار لا تنزعج منه وتحمّله..

شعرت برغبة في الفهم فسألتها:

- ما الذي حدث.. أنا لا أعرف شيئا..؟

وفي نفسي قلت شيئا آخر، قلت إن يونس كان دائما غليظ القلب.. بل ربما ازداد وقاحة مع تقدم العمر وانحصار الآمال. لكن خالتي التي كانت مفتونة حينئذ بأعباء العرس، قالت:

- سأحكي لك لاحقا يا مختار، حين نجلس معا في هدوء..

بينما سألتني مريم:

- ما اسم زوجتك؟

- فلورا..

سألتني خالتي:

- هل أسلمت يا ولدي؟

بقيت صامتا وقد تضرّج وجهي..

قالت مريم وهي تضحك:

- سوف تستمتع فلورا بالعرس..

- طبعا يا مريم.. سوف تستمتع بكل الطقوس، بالحنة والغيطة، ونشاهدك جميعا وأهل القرية يطوفون بك وأنت فوق البغل.. اشتقت إلى كل تلك التفاصيل القديمة.

لكن مريم ضحكت بقوة وهي تردد:

- أيّ بغل يا ابن خالتي؟ تلك أشياء انقرضت، اليوم حفلة موسيقية بجوق عصري جلبناه من تطوان، وسأجلس فوق العمّارية في خيمة مجهّزة وأرتدي قفطانا، ثم نخرج في سلسلة سيارات نطوف بها القرية حتى نصل منزل العريس.

تطلعت إليها بشرود وأنا أسألها:

- من هو العريس وماذا يعمل؟

لمحت في عينيها ارتباكا:

- هو من القرية.. ويعمل بالفلاحة..

سألتها؟

- وهل الفلاحة في قريتنا تفتح بيتا يا مريم؟

صمتت قليلا. لكن خالتي قالت بحزم:

- يزرع الكيف يا ولدي... نعم يزرع الكيف. هي لا تهتم بنصائحي.. وأنا تعبت..

بعد صمت قصير، قالت مريم:

- لقد غبتَ سنوات طويلة يا ابن خالتي.. الدنيا تتغير.. ونحن أيضا..

ثم دمدمت قائلة:

- المهم أن تحضر زوجتك لنتعرف إليها. سوف أتركك الآن، تلاحقني أشغال لا تنتهي..

بقيت وحدي في الصالة الفسيحة الباردة ذات النوافذ المشرعة على مساحة أرض فارغة وصفراء. رحى القلق تطحن أفكاري.. وشعرت أنني وحيد في العراء. ملتُ برأسي إلى الوراء وأنا أمسد شعري بأناملي وأتأمل السقف الأبيض العتيق. شعرت بعدها بلدغة برد تتسلل إلى أطرافي وتملكتني رغبة في أن أختلس نوما خاطفا بعد ليلة قضيتها معذبا في معركتي مع البعوض. لكن الهواء اللطيف بدّده الصخب الآتي من وسط الدار، خليطٌ من زغاريد النساء وصراخ الأطفال. خرجت من الدار إلى وجهة غير معلومة، كان يونس لا يزال واقفا مع العجل وهو يمسك هذه المرة سكينا أشبه بسيف. أثارني المشهد فقلت له بنبرة لا تخلو من عتاب:

- من الأفضل أن تخفي السكين يا يونس.. فالحيوان يحس أيضا وتتملكه مشاعر الخوف..

ضحك بقوة وتقطع وهو يقول:

- يحس.. هههههه. هذا هو العجل الثاني، لقد ذبحنا الأول فجرا وهو فوق النار الآن، وأنا بانتظار عباس و"الكسيبة" لننحر الثاني..

- من تقصد ب"الكسيبة"؟

ضحك يونس وهو يتمتم:

- هو عبد السلام ولد عمي العربـي.. ملقب بالكسيبة[2].

عاتبت نفسي مرة ثانية، لأني نسيت أن النصيحة لا توجه للمجانين. لحقت بـي خالتي وهي تردد:

- مختار.. لا تنس أن تصحب زوجتك فورا أو فوطة للغذاء.. أرجوك ألا تتأخر يا ولدي.

ضحكت وأنا أرفع صوتي:

- فلورا... يا خالتي وليست فوطة.

ثم أومأت إليها. اجتزت الحومة الخانقة باتجاه البحر اللاّمع مخلفا ورائي سحابةً من الغبار المتطاير بفعل حركة السيارات الرباعية وسيارات النقل. جلست وحدي على حافة الشاطئ أشم رائحة الطحالب المتيبِّسة تحت خيوط الشمس. نوارس قليلة إلى جانبـي، تطير وتعود، تلتقط سمكا صغيرا ثم تحلق في السماء البعيدة.. تشرع جناحيها لريح الشمال وتنعَق. التفت ورائي؛ التلال الصغيرة المفروشة في سلسلة طويلة متصاعدة بتدرج محكم استدعت خيالي الباهت. قبرا جدي وأمي هناك عند طرف التل المطل على صفحة البحر، تحيط بهما شجيرات غبوية صغيرة ومتفرقة تبدو وكأنها تحتضر؛ لكني حين اقتربت من التل تسللت تلك الرائحة العتيقة؛ المزيج الساحر من التربة البليلة وزبد البحر والطحالب المتيبسة والأسمدة المتراكمة. نفذت إلى الذاكرة

المشروخة لتنعشها وتحييها من جديد. لا أذكر سوى صورتين لجدي؛ الأولى وهو يزور بيتنا في "الجبهة".. يدخل طريقها الفسيح ممتطيا البغل ومحمّلا بالزرع والبيض والعسل ويبتسم بثقة، والصورة الثانية وهو يحتضر ويردّد آيات من القرآن مع الرجال.

رفعت عيني إلى السماء؛ هذا المشهد الساحلي الرقيق العذب زاحم كل الصور القديمة في خيالي الهش. بقيت وقتا طويلا أتطلع حولي وأجمع الصور الباهتة لهذا الفضاء وألملم خيوط حكاية هذه الأرض القديمة من الظلال البعيدة. يبدو أن الشمس الساطعة تقلِّل البشاعة التي تمس الأشياء، تضفي عليها حالة من الصفاء والبريق واللَّمعان. وها أنذا أطلق الحرية لخيالي كي يسرح في عالم بلا هوية آخذ في الاندثار. عالم متحوّل يفقد بريقه وسحره. هذه الذاكرة المجروحة المثقلة بالخوف والتردد واللايقين.. وتلك الشمس تتسلل إليها لتوقظ تفاصيل أرهقها الخوف. شيء عميق يناديني، أعمق من الرغبة ومن الحلم القديم؛ شيء يتوسط اليقظة والنسيان.. يلوح أمامي ويستفز طاقتي الهامدة. هذه الأرض العارية مخيفة، مخيفة جدا.. تستثير الحنين لكنها تزحف محملةً بتأثيرات مختلفة مثل النباتات التي تتسلق الجدران. نباتات تحرقها الرياح السامة فلا يتبقى منها سوى عيدان متيبسة ملتوية ومتشابكة مثل الأقدار الحزينة. قالت لي فلورا وهي تجمع حقيبتنا استعدادا للسفر بعد علاج من اكتئاب حاد دام سنتين، وبعد تردد طويل استغرق عقدين من الغربة: إنها رحلة العمر.. لنتجدد يا مختار. سألتها: هل سنبدأ أم سننتهي يا فلورا؟

رفعت عيني إلى جدي الذي يطير في الأفق؛ روحه ترفرف وتطل بعينين واسعتين ممتلئتين باليقين. الأشواك التي تحاصره في الأرض اليابسة وأكياس البلاستيك والقنينات الزجاجية الفارغة تبددها أزهار النرجس. تنهدت وحبست أنفاسي لأختزن صورته.. ابتسامته العميقة وكبرياءه الهادئ. أزحت ستار التردد والخوف وقلت "هذه الأرض يجب أن تنطق وتبوح". لكن الكلاب الشريدة التي غزت القرى.. تتبوّل فوق القبور وعلى الشجيرات ولا تتوقف عن النباح، جعلتني مثل الحيتان الكبيرة التي كلما انجرفت إلى الشاطئ تهدَّدها الهلاك.

أدركت أن كل هذا الهذيان لا يجدي، وكل التناقضات الحادة في الأفكار والمشاعر لن تعمق سوى شعوري القديم بأنني صرت أعمى.. وأني ظلٌّ يمشي بتردد. تلك الصورة التي وثبت منذ زمن واستقرت في كياني كما لو أنها حولتني إلى جسد يفترق عن روحه لحظة الاحتضار. وفجأة، نبع ذلك الصوت الأزلي؛ الغياب الطويل يبادله صمتٌ أطول.. الأرض التي هجرتَها لن تمنحك سرها ولن تبوح.. يكفيك هذه الشمس التي تذيب جليد الغبار وعُدْ من حيث أتيت، وحيدا هامدا مخدّرا بالخوف والتردد.

مابين اليأس والحماس خضت رحلة البحث عن الذات؛ عن هويتي التي صارت مثل الجليد وهو يقاوم سُعَار الشمس المجنونة. أيقنت وأنا أحترق أن الخلاص الحقيقي هو الكتابة. كتابة رواية عن القرية والأرض الشاسعة التي تسمى غمارة؛ عن حروبها وعادات سكانها وأعلامها وعلمائها وأساطيرها. حكايات كنت جمعتها وسجلتها في دفاتر وأوراق منذ زمن طويل.. قصصُ ناس عشت معهم.. انغمست في حياتهم البسيطة.. أَعرفُ أنماطَهم وطبائعهم وأَقدرُ أن أتلَمّس سماتهم. أرضٌ في قلب المتوسط تلاقحت فيها الثقافات وتعايشت.. تاريخ منسي؛ رسمي أو مهمّش. تلك هي أمنيتي القديمة التي وعدت أبـي ذات يوم أني سأحققها. قلت له حين نجحت في السنة الثانية بامتياز في الجامعة "سوف أكتب عن قريتنا يا أبـي.. هذا حلمي الكبير". كان قد استقبلني ذلك اليوم في المحطة والفرحة تطل من عينيه. وحين رأى صورتي في الجريدة مع المتفوقين، ذبح خروفا وبكى في تلك الليلة كما روت لي أمي فيما بعد.

تنهدت بعمق وأنا أسترجع الصور القديمة. هل أستطيع أم إن وهمي يتمدد في خيالي منطلقا مثل رمح أهوج.. وإرادتي مجرد حافز في تحقيق وعد قديم، حافز ضئيل يخفت بالتدريج؟ هذا الحائطُ الصخري المشيد بيني وبين قريتي، هذا التراب الذي غطى سحر رمالها الذهبية المشعة، التوقعات المفاجئة والآمال المعلقة، كل هذا الدخان الذي يتسرب من ثقوب الشك لن يزيحه سوى الإقدام في لحظة الحقيقة والتغلب على هاجس الخوف القديم.

هل أستطيع؟ رفعت عيني ثانية إلى الشمس، كانت آخذة في الهروب، ولم يعد جدي يرفرف أو يطل. اختفت الشجيرات وجفت المياه وتجمّعت الكلاب في حلقة دائرية دون أن تنبح.. كانت صامتة. وحدي أواجه الذاكرة والمجهول، وأنت يا فلورا واثقة أن الأرض تتكلم حين تمدها يديك وقلبك، واثقة أن هذا الجسد المثقل بالعتاب والمفرغ من الحقيقة سينبعث من جديد.

وقفتُ حائرا مبهوتا للحظات ثم واصلت الصعود أعلى التل. كانت أنفاسي تتقطع وأنا أدوس الأشواك بقدمي. البحر يبدو كالمرآة، وروحي تتفتّت مثل أشعة الشمس الأخيرة. بحثت عن قبر جدي. لم أعرفه. لا يوجد به شاهد كي أعرفه. تداخلت القبور التي غطتها النباتات الزاحفة وصارت أرضا واحدة بلا معالم ولا حدود. أما قبر أمي فلم أرغب في البحث عنه، لا أستطيع النظر إليه أو حتى التفكير فيه.. صورتها الملازمة لخيالي حفزتني على الهروب.

جلست جنب شجيرة صغيرة وقلبـي يخفق. شعور حاد بالدوار تملكني وأنا أنظر إلى الأسفل. لكن صوتا مفعما بالحب جاءني من بعيد. إنه صوت جدي.. نعم هو صوت جدي. التفت يمينا وشمالا ثم رفعت عيني إلى السماء.. غشى قرص الشمس الخافت عيني فاحتميت بساعدي وكان قلبـي ما يزال يخفق بشدة ودهشة. جاءني الصوت ثانية:

- أهلا يا مختار، لماذا تلهث يا ولدي؟

صمت قليلا.. ثم أجبته:

- حائر يا جدي.. أشعر أن هذه الأرض الصلبة قفلٌ عنيد.. لن تسلِّم لي أسرارها..

- هل سألت وجرّبت؟ هل استمعت إلى أصوات الأموات؟ هل خضت المعركة ضد النسيان، كما خضنا نحن المعركة ضد الاستعباد؟

- لا يا جدي.. أنا قليل الحيلة والحلم أيضا..

- وقليل الإرادة أليس كذلك..؟ قم وابدأ يا ولدي.. غص في أعماق الأرض واحفر في ذاكرة الناس، اسأل وسجِّل.. سوف ينطق حجر هذه الأرض، هي ظمآنة وبحاجة لأن ترتوي..

- لكن، يا جدي..

- لا يا بني.. لا تخف. ابدأ وانطلق حرا، فالشمس تضيء رغم السحاب، والنور يشع في قلب العتمة، أليس كذلك؟

- من أين أبدأ؟ حاجز الصخرة الذي يفصلني عن هذه الأرض ممتدٌّ وعميق.. وأنا كالطائر الذبيح لا أجنحة لدي..

لم يجبني. أطرقت قليلا.. جلست على ركبتي مقرفصا.. غرست أصابعي في التربة الساخنة. شعرت بنبض يدي.. وقفت ثانية ورميت عيني إلى الأرض والبحر وقلت بصوت خافت:

- نعم يا جدي.. النور يشع في قلب الظلمة، والشمس تضيء رغم السحاب، لاشيء يبدد الحلم إلا التردد والخوف. نعم، وحده الأمل ينقذ الروح.. لكن من أين أبدأ.. من أين يا جدي؟

شعرت بسخونة تدبّ في جسدي المنهك، أرهقني التفكير وخذلتني الشمس. انحدرت عبر طريق معرجة بسرعة إلى البحر.. جلست إلى حافة الشاطئ واستلقيت مرتخيا. غمرتني المياه الباردة، شعرت بقشعريرة تتسلل إلى جسدي، فتحت ذراعي وأنا أزيح الهواجس عني.. وتركت الريح الخفيفة تنفذ إلى القلب. توقف صوت جدي وغمرتني أصوات المويجات الرقيقة وهي تستدعي كل الحنين والصور الدافئة. اجتاحتني رغبة قوية في الكتابة. نهضت ونفضت جراحي وشكوكي وخطوت نحو الدار مسرعا، فتحتُ الباب فواجهتني فلورا بعينين لامعتين:

- كنت أعرف أنك ستسبح يا مختار.. مياه البحر تذيب شمعة التردد..

ثم رمتني بنظرة اطمئنان وتابعَت:

- ألم أقل لك؟ سوف نبدأ يا مختار.. دائما سنبدأ..

قنديل جدّتي خْمامة

كانت ليلة عرس صاخبة. لا أتذكر سوى موسيقى مزعجة تصدر عن آلات مهترئة وميكروفونات صدئة، نزَق الشباب ورقصاتهم المزعجة؛ خليط مهجن من الفلكلور وأحيدوس والراي وكناوة.. رقص بلا هوية؛ غير مهذب وغير جذاب. انسحبت من العرس مبكرا، وقضيت شوطا من الليل في بِيت النار مستلقيا على الحصيرة أستعيد دفء الرحلة المفقود، بينما فلورا لم تشأ أن ترافقني؛ كانت سعيدة بوجودها مع النساء ومستمتعة بمشاهد الرقص وصيحات النساء وزغاريدهن.

صمت رهيب يستدعي كل الحواس. تركت الباب مفتوحا، هواء بحري منعش يتسلَّل إلى البيت بعد يوم ساخن ومزعج لا يطاق. صدى الموسيقى المقلقة يتردد في ذهني؛ صور متراكمة ومتصاعدة ومتفرقة لا يجمعُها رابط.. تأثير الليلة الأولى مايزال يستبد بعقلي ويثير مخاوفي؛ البعوض الأشقر الهزيل والعتمة الشديدة ورحلة البحث عن النور.. كل ذلك أيقظ لدي شعورا بعلة عميقة. قلتِ يا فلورا إننا نبدأ باستمرار ولا ننتهي، كان إلحاحُك عليّ سببا للعودة إلى القرية؛ شيءٌ يشبه الدوار.. استسلمتُ لرغبتك وكانت في الحقيقة هي رغبتي العميقة التي حاولت أن أقاومها سنوات طويلةً فلم أفلح. كلما ضغطتُ على مشاعري كي أنسى، تتملّكني الصور ويستبد بـي الحنين؛ نظرة سعاد الفاتنة تحت شجرة التين الوارفة على الوادي.. الرمال اللامعة وهي تحتضن بحرا تتحطم أمواجه على صخور أزلية مرصوفة كأنها تماثيل خرافية.. الانطلاق تحت الشمس الحارقة ورائحة الماعز وأعشاب الترهيل

وأشجار الدّفلى.. الأمطار الخفيفة العذبة التي تسقط في أغسطس وتغسل الذاكرة كأنها انعكاس ضوء قمر محتضر في ليلة سمر شديدة الظلمة. لا يا فلورا، كان إلحاحُك علي ونحن في شرفة منزلنا نتأمل السحب الرمادية التائهة وهي تغطي سماء غرناطة، مثل ملاك يوقظ شخصا فقد شهية الحياة واستسلم للموت.

نعم أحببت فلورا حبا عاجزا..

فما زالت حياة تتناثر صورا عذبة رقيقة وتسكن خيالي الهش.. معها عرفت معنى الحب غير المكتمل.. معنى أن يكون الإنسان سعيدا ثم يفقد سعادته فجأة. كلما حاولتُ نسيانها ألقاها غزالا رشيقا يجري في البراري، في دروبـي العميقة وفي تفاصيلي. لقد غدت جزءا من تفكيري اليومي. هل كنت أريد ذلك وأرسِّخُه باعتباره حقيقة مطلقة؟ لا أعرف.. حقا لا أعرف. لكن الحب وحده من أنقذني حينئذ وجعل هذا القلب يخفق..

جعله زهرةً برّيةً تلمع تحت الشمس.

رأيتها قبل شهور قليلة من أحداث يناير 1984 بكلية الآداب بفاس. كنت واقفا عند مدخل الكلية، أحتمي بشجرة وارفة من شمس فاس الحارقة. مرت أمامي مثل شراع يخترق النهر. شعرُها الأسود الفاحم منسدلٌ على كتفيها. رشيقة تشق الريح ولا تطرق برأسها. كانت قوية واثقة الخطى والابتسام. يلمع الذكاء في عينيها لمعانا خاطفا يأسر القلب.. مرت أمامي فسلبتني.. حرَّكت أشياء جديدة بداخلي لم أكن أعرفها من قبل. لم تعد حينئذ الكتب التي أحملها ثقيلة، ولم يعد الخوف من الاعتقال الذي يتربص بـي يفزعني. صرت مثل وردة تتفتح.. كما لو أن الأشجار من حولي جميعها بدأت تثمر.

قضيت ليلتي بغرفتي البئيسة هائما شاردا أتخبط مثل كناري ذاق طعم الانطلاق خارج القفص ولم يعد يتحمل محبسه. المصباح المتدلي في وسط البيت شاحب هزيل. غزَت الجدرانَ القديمة ذات الطبقات المجيَّرة، شقوقٌ أشبه بخطوط برق امتزج فيها السواد بالبياض. فتحت المذياع الصغير، صوت أم

كلثوم يخترق صمت الغرفة ويشعرني بعذوبة خفيفة تتناثر مثل حبات رمل ساخنة فوق جلدي الخمري. لكن قلبـي الذي يطلُّ منه طفلٌ صغير يقظ وفرح بدأ يشق طريقه في قلب الدهشة إلى عالم جديد أكثر تفردا.. عالم يتوسط الحنين والتمرد؛ اليقظة والاستسلام.. كما لو أني جذع شجرة تتقاذفه مياه النهر المتصبِّبة.

كانت تشق الريح؛ لقد أيقظت خطواتُها بداخلي بريقاً لامعاً خاطفاً مبهما وأثيرا. انطبعت حركاتها في ذاكرتي وتفتَّحت من تلك الفجوة العميقة بداخلي المشاعر المتضاربة التي تتنازع خيالي دوما؛ الإرادة واللاَّيقين. أيقنتُ وأنا أسترجع المشهد أننا نولد كل مرة مع تأويلنا للاستعارات التي تحيا بداخلنا.. استعاراتٌ خفيةٌ تصاحب حركات عالم متدفق.

نهداها مثل سهمين يقظين في معركة حامية. يبرز شقٌّ من جسدها وهو يخترق الزمن كأنه رمح حاد يصيب فريسة منطلقة في قلب العتمة. ابتسمتُ تحت ضوء المصباح.. يُخيَّل إلي أنها كانت تنظر إلي في الوقت الذي خطفتني.. أو سحرتني، أو أنها كانت تتوجه لتقول لي أشياء.. لا أعرفها، لكني عجَّلت بالهروب.. أسرعت الخطى إلى قعر روحي الباردة المرهقة بالأفكار كي أتجنّب التأويل. أفكارٌ مزعجة.. قلقة.. تزداد انتشارا كلما أعرتها الاهتمام.

أيُّ كذب؟ لم تلتفت هي ولم أهرب أنا.. ظللت متسمرا كأرنب في قلب الضوء الساطع. خطفتني والآن أعيش مع صورتها الأخاذة بقايا حلم ممزق مبهم. لم تعرني الاهتمام.. كانت تشق الريح بجسدها الناعم الفتي وكنت أبحث في ذاكرتي عن أشياء مبعثرة صاخبة مثل زبد الموج وهو يتطاير لحظة المدِّ القاهر.

قلبـي يدق.. يخفق بحدة.. وراحت الفتاة التي تمتلك جسد الريح تطل من عيني على أطرافي الهزيلة المرتعشة..

لأول مرة، جسدي المشبع بالعزيمة يرتعش.

في ذلك العام كنت أتخبط بين الأحلام الكبيرة والإخفاقات المتكررة.. بين الإرادة والهزيمة.. بين الحرية وقيد الخوف.. كنت مثل زنبور محبوس في كأس زجاجي مقلوب؛ حياة بلا هواء وبلا سكينة. كانت تقول لي السياسة مستنقع والحب مثل زهرة برية يحتاج لهواء وماء.. أجيبها وأنا ممتعض من حالة اللامبالاة التي تحياها: لكن مستنقع الظلم والتخلف الذي نعيش فيه مكرهين يتمدد يا حياة ليبتلع كل الزهور.. أنا أسعى إلى تنظيفه وتكريره من الشوائب. أليست وظيفتنا في الحياة أن نرسِّخ البياض؟ تجيبني بسؤال وهي تضغط على يدي: ما فائدة البياض حين أخسرك؟ أصمت وأنا أمرِّر أصابعي على جدائل شعرها المنطلق وأقبل جبينها الرطب. فيرتعش الجسدان تحت سماء قريبة..

قضيتُ وقتا من ذلك اللّيل أرتِّق قميصي الأبيض الذي فقد نصاعته مثل جدران الغرفة.. حلقتُ ذقني بعناية بعد أيام من عدم الاكتراث والإهمال.. كويتُ ملابسي وملَّستُها جيدا وصارت بلا ثنيّات، لقد اكتسبت حياة جديدة وبياضا مسروقا يجدِّد حياتي الهاربة منذ شهور طويلة.

في تلك الليلة الطويلة تطلعتُ إلى المرآة مرات كثيرة.. وفي تلك الليلة أيضا لم أنم. فقد كانت حياة تشقُّ الريح وتشق خيالي المشوش.

إنها تنفجر فجأة مثل زهور الربيع؛ حرّة وطريّة. قلب-ي يرتجف بين السّعادة والإخفاق المتكرر.. مثل خطّاف مبلل لا يستطيع الطيران. كلّ صمت العالم العتيق ينفذ إلى غرفتي.. تعمِّقه أشعة المصباح وهي تتكسَّر على الطاولة الصغيرة وتطرد بقايا الشك في قلب صحا فجأة على وجه فتاة مثل الريح.

صباح أكتوبر برياحه الخفيفة المنعشة يثير الحنين في النفوس. أفقت من نومي المتقطع على ملامحها. أشرقت في خيالي أحاسيس جديدة يافعة وأنا أتوجه إلى الكلية يغمرني انطباع بأن الحياة تحمل نسائم الجمال وبأنها تستحق أن تُعاش على نحو أفضل.

في المكتبة لم أقرأ حرفا واحدا. لم أشارك في حلقات النضال كعادتي

كل يوم. بدا لي العالم في ذلك اليوم هادئا وقررت أن أمضي يومي مستثمرا هذه الأحاسيس الجامحة التي تقلل إحساسنا ببشاعة الحياة. بدت لي روحي مثل زهرة يجب حملها برفق، والطوفان بها خلف أسوار المدينة لاكتساب حياة جديدة أكثر صفاء..

لكن المكتبة التي كانت تغصُّ بالطلبة والضجيج، لم تترك لي مجالا للتأمل والتحليق. الروائح الكريهة المنبعثة؛ العرق والبخار يتصاعدان ويملآن الزوايا.. رائحة الأقدام العطنة.. العطور المتفرقة تخترق العتمة؛ عطور قوية تقهر النفوس وتختلط بباقي الروائح لتكوِّن حشدا من الرطوبة اللزجة المتعفنة.

خرجت من المكتبة بعد شعور بضيق ممزوج برغبة في الغثيان. وعند الباب، اصطدمت بساحرتي الجديدة؛ أيُّ أقدار هذه رمت بـي في قلب الريح؟ لم أفكر في تلك اللحظة المقتطعة من الزمن في الاعتذار.. أو في التلفُّظ. كل الأشياء تبلَّدت وتصلَّبت.. وصرتُ مثل قنفذ يحترق.. يحشرُ رأسه في قلب جسده ويئن. رفعت عيني القلقتين إلى وجهها الملائكي. كانت بشوشة.. عيناها تلمعان وتخفيان تاريخا من النعومة ومن الكبرياء الحر. ابتسمت هادئة وهي تلقي بظلال عينيها الواسعتين على وجهي المتجهم دهشة وتبلُّدا، ثم قالت بصوت متصالح مع الدنيا: "عفوا.. عفوا أخي" وهي تضع راحة كفها على صدرها وتنحني قليلا مثل غصن شجرة زاهد. لكن كلمة "أخي" لم ترقني.. فواصلتُ تبلدي القدري المفاجئ، وواصلَت هي خطواتها الواثقة بفستانها الأزرق القصير عند الركبتين وانحشرت في ضباب المكتبة الخانق. بينما بقيت متسمرا وحدي أتساءل؛ كيف لزهرة بيضاء أن تحيا في قلب الظلمة؟

شعرت وأنا أستعيد ذاكرتي المثقلة بالجراح بلسعة برد ناعم تتسلل إلى أحشائي.. وفجأة سحبت نعلي من قدمي وتمددت على الحصيرة. وضعت يدي معا بين ركبتي وانكمشت تحت منديل صوفي.. ونمت مثل طفل أرهبه سكون الليل. كان الصمت الموغل في عمق الليل والمحمل بنسائم البحر وحشائشه يغسل هذه الذاكرة المثقلة بالحنين. نمت على وقع أسئلة شديدة الحيرة: ماذا يحدث في هذا القلب المنهك؟ هل هو خوف مما مضى وضاع، أم مما سيأتي؟

أم خوف على سعادة لم يتبق منها سوى الظلال الغريبة؟

نمت نوما ثقيلا، وكأن ملاكا انتشل الهواجس من قلب يثير الشفقة، وأضاء القنديل في ليل شديد العتمة. شعرت وأنا أستسلم للنوم بأن الحياة تتناثر إلى صور متفرقة وخطوط مختلفة متناسقة الألوان مثل قوس قزح، أو مثل أشلاء عجزَ إدراكي الواهن عن تفسيرها. لكنها بالتأكيد صور قلَّصت شعوري بالخوف سواء من الأشياء الحميمة أو الغريبة. أتذكر أني أفقت في قلب الليل يابس الحلق ينهش الظمأ أحشائي.. لم أتبين شيئا؛ أشكال مختلفة للظلام.. أمعنت جيدا في العدم؛ ثمة دوائر تكبر وتتضاءل وتختفي، طيور تتراقص وأشباح مثل الظلال. استبد بـي الرعب، وبدأت أفقد اليقين في الأشياء.. تساءلت وأنا لم أعد أدرك هل مازلت نائما أم يقظا: هل أنا هو أنا؟ كان العطش شديدا.. حوَّلني إلى إنسان غريب مفرط في قلقه. ضاق تنفسي وشعرت بثقل يسري في جبيني الساخن. مددت يدي في الظلمة، اصْطدَمَت بقُلَّة ماء.. رفعتها بقوة وأنا ألهث.. شربت جرعات طويلة دفعة واحدة أشعرتني بألم حاد في حلقي الجاف؛ وكأن الماء تزاحم وتوقف فجأة. بطِنتُ في لحظة واحدة ولفّني الدوار.. استلقيت ثانية على الحصيرة وكان الظلام يتمدد في عيني مثل سحابة رمادية تائهة في يوم ممطر. فجأة اخترق الظلامَ ضوءٌ خافتٌ منبعث من قنديل شاحب عتيق. كانت جدتي حمامة في تلك الأثناء تعبر فناء الدار نحو بِيت النار. غمرني ضوء القنديل مرة واحدة ليكشف وجها شاحبا تحت خيوطه الرقيقة. وبدأت ذاكرتي المترددة في تلك اللحظات تسترجع تفاصيل الفضاء والحياة. تطلعت إلى وجه جدتي المجهّم؛ ملامحها تمزج بين الطيبة والشدة في آن، لكن تحت ضوء القنديل وفي هذه الساعة التائهة، حيث تكون القلوب مرعوبة خائفة، يبدو الشرود منتشرا في وجهها العتيق الذي رأيت فيه بعد كل هذه السنوات من الغياب، انعكاسا لتاريخ الألم الإنساني. كنت ما أزال ألهث وأنا أتأمل انعكاس أضواء القنديل الأحمر على الجدران اليابسة الكثيفة، تخترقها وتزيح ظلمتها شيئا فشيئا.

لزمت جدتي الصمت.. علقت القنديل على الحائط ثم التقطت خرقة صغيرة وصبت فيها الزيت وأضرمت النار في الكانون. بعد دقائق، ملأت

البُرمَة النّحاسية الكبيرة بالماء ووضعتها فوق النار. لكنها لاحظت غياب فلورا فسألتني عنها. أخبرتها أنها ستقضي الليلة في بيت خالتي رحمة. ثم سألتني عن سبب نومي في بِيت النار.. وعن البعوض. فجأة تذكرت قصة البعوض والنوم المعذب. قلت لها وهي تضع البرمة فوق النار:

- صحيح جدتي.. لم أر بعوضا هذه الليلة..؟

أجابتني وهي تخفض من ضوء القنديل المعلق:

- لقد أوقدت الفرن هذا المساء.. ووضعت الجمر في الكانون، ورميت أوراق النعناع في كل زوايا البيت، وقبل أن يحط الظلام أقفلت كل النوافذ والأبواب..

قلت بارتياح:

- لذلك نمت مثل الميت..

ثم التقطت جدتي سطلا وملأته بالمياه الساخنة. بينما بقيت أتأمل الدخان وهو ينبعث من البُرمة ويتصاعد ثم ينتشر في فضاء الغرفة. كان حينئذ ضوء القنديل قد انطفأ وبدأ نور الصباح يتسلل من الثقوب ليمتزج بلهيب الكانون. شعرت بلسعة برد طفيفة فانكمشت باحثا عن الدفء وفجأة أطلَّت علي سعاد من بعيد.

على جداول الماء وتحت أشعة الشمس المجنونة كانت تثير شهوتي بعينيها الواسعتين اللامعتين ويديها الخشبيتين. كانت تجري مثل غزال البراري منطلقة ومتدفقة وحرة. وكانت تقول لي مرارا:

- هذه مجرد شهوة يا مختار.. ستنطفئ نارك وتندم وربما تكرهني.. بل ستكرهني..

أصمت للحظات.. أبحث في أعماقي عن مبررات. أريد أن أفسر شيئا

ما، لكني أعجز عن ذلك.

تقول لي بمكر:

- إنها الحقيقة يا مختار. أنت تحركك الشهوة والغضب، تبحث عن فرحة مؤقتة تعوِّض بها ما ضاع. وسوف تنطفئ سريعا.. سريعا جدا، لكن نارا ستشتعل بداخلي، في هذا القلب الذي يرتجف.. أنا على يقين أنها ستشتعل ولن تنطفئ..

وفي ذلك المساء الربيعي الساحر الذي لا يشبه باقي المساءات.. تبددت ضحكة سعاد.

حين بدأت تتحدث بجدية وحكمة، وحين بدأ الذعر يغطي عينيها، وحين بدأت الكلمات تخرج من شفتيها مرتبكة، أيقنتُ حينئذ أن الحب ملأ قلبها. كنت أعرف أني أخطئ.. أو ربما أسعى إلى نزع قصة حياة من هذا القلب بالقوة.. حياة التي اختفت فجأة إلى الأبد تاركة رسالتها الأخيرة وخاتمها الفضي وجرحا غائرا لا يندمل. كانت تلك السنوات بكل جراحها تجثم على صدري؛ فبعد خروجي من المعتقل عدت إلى القرية أبحث عن أشلائي القديمة، أو ما تبقى من ظلال حياة انتهت قبل الأوان؛ ماتت أمي قبل اعتقالي بقليل واختفت حياة وأنا في السجن وتوفي أبـي بعد إطلاق سراحي بشهور، كل ذلك جعل هذا الجسد هيكلا بلا روح. عدت وأنا لا أحمل سوى رسالة وخاتم وذكريات تفاقم شعوري بالوحدة. أردت أن أبدأ من جديد فلم أقدر. وها أنذا بعد هذا الهروب الطويل أتساءل: هل بعودتي إلى القرية حينئذ، وإيهامي لسعاد بالحب، كنت أنتقم من ذكرى حياة التي تركتني معلقا على حبال الأمنيات البعيدة؟ أعمِّق هروبـي وشعوري بأن الدنيا لم تعد مغرية بما يكفي؟ أم أراوغ معضلتي بنسيان مؤقت ومتعمد؟ هل عدت لأنسى جراحي أم لأضاعف مرارتي وأواصل رحلتي نحو المجهول؟.

في ذلك اليوم تمادى بـي الشوق. كانت شهوتي المكسورة تجعل دقات قلبـي تخفق بقوة.. كما لو أني صرت ذئبا مسعورا. قادني مبرر لم أسع حينئذ

إلى أن أفهمه فهما معللا ومقنعا؛ ماذا يخسر الإنسان في النهاية؟ لم أفكر في الجواب بمنطق العقلاء، ربما لأن إدراكي لحظتها تلاشى خلف الرغبة المجنونة في امتلاك جسد فتاة متمنعة ومختلفة.

التقينا من دون موعد سابق. قادتني الرغبة في اكتشاف جسدها وقادتها الرغبة في اكتشاف أفكاري. كانت الشمس يومها صافية تصنع شريطا لامعا تلألأ فوق صفحة الوادي وتناثر مثل أوراق التين حين تسقطها رياح الخريف. امتدت الحقول الخضراء أمامي امتداد البصر.. أطفال صغار يجرون بين سنابل الزرع ويمرحون ويبللون بعضهم بالمياه التي تخرج متدفقة من الخراطيم الكبيرة الخاصة بالري. كنت حينئذ أعيش في اللامبالاة.. عدم الاكتراث بأي شيء. بدت لي الحياة مجرد أيام تمضي وحسب. أقضي معظم أوقاتي بنصف وعي. ولم يعد يربطني بالعالم أي شعور إنساني.. فليحدث ما يحدث.. الأشياء كلها تتشابه والمصير واحد.

كان ذلك اليوم صافيا وعذبا لكن روحي هامدة جافة. وحين وصلت إلى شجرة التين المطلة على الوادي وجدت سعاد متكئة على جذعها وهي تفرك وردة بأناملها الخشنة وتقطع رؤوسها. كانت مضيئة هي أيضا مثل الشمس؛ ذات خدين موردين يعلوهما حاجبان كثان حادان على مسافة من العينين الواسعتين. وكانت شفتاها الحمراوان طريتين وجذابتين. تطلعت إلي دون أن تنبس بكلمة. بلعت ريقها وكان هذا إعلانا مضمرا بخجل أو رهبة أو ربما عشق مرتجف. قالت بتغنج لكنه مصطنع هذه المرة:

- ماذا تفعل هنا يا مختار؟

قلت لها وأنا أغطي وجهي من ضوء الشمس الذي زغلل عيني:

- أبحث عن الشمس.. عن أشياء كثيرة ضاعت..

ثم أشرت إلى قلبـي:

- وأبحث عن هذا..

بينما قالت هي:

- لا تعرض نفسك للشمس.. حاول أن تستظل تحت هذه الشجرة.

لكن دعوتها حركت مشاعري المجنونة.

كنت حينئذ أترقب أطفالا وهم يلعبون على بعد مسافة متوسطة ويمرحون تحت الشمس ويتبللون بمياه البئر الباردة. لكني لم أنس أيضا صورة ذلك الرجل الطاعن إلى يميني وهو يجر بقرة تتحرك بصعوبة ولا تستطيع أن تصعد من حافة الوادي إلى الحقل الأكثر علوا. ظل يجر الحبل ويكابد ويصرخ بلا نتيجة. كانت متسمرة في مكانها شاردة تحني رأسها. خاض وقتا طويلا في معركته لكنه استسلم في النهاية وجلس على الأرض وهو يمسك الحبل بيده ويتحدث إليها، ويلعن اليوم الذي رآها فيه.. بينما واصلت البقرة التهام الكلأ من حولها غير مبالية بشتائمه.

كانت سعاد تبتسم فتفتر شفتاها عن أسنان بيضاء مرتصفة بانتظام. وحين أقول لها شيئا ساخرا تتكئ على جذع الشجرة من فرط الضحك فينكشف صدرها الممتلئ وقد نهدَت فأثارت شوكة الجنون بداخلي.

أمضينا المساء تحت الشجرة الخضراء الكثيفة وارفة الظلال. شعرت أني أتلمس خطواتي في الحياة من جديد.. أولد تحت هذه الشمس عاريا من الماضي ومن الذكريات المثقلة بالغم؛ وكأني أتجرد من كل الماضي ومن الأفكار التي تمسكتُ بها وقادتني طوال حياتي المضطربة.

وحين بدأت الشمس في الغروب.. وبدأ الظلام يحضن الزرع والأشجار والنفوس، واختفى الأطفال، وتمكن العجوز من جر البقرة إلى الحقل وغابا معا في الظلمة، وجدت نفسي وحيدا بين يدي سعاد. كانت تقول لي وهي لم تعد قادرة على التمنع:

- أخافك يا مختار..

ألمس يديها وأردد في أذنها بصوت هامس:

- الحب لا يخيف يا سعاد.. هو الشيء الأكثر جمالا في حياتنا.. لاشيء يخيف.. نحن نتوهم ونعيش في الوهم..

قالت وهي ترتجف:

- حب..؟ كلامك يخيفني.. ينقلني إلى ذلك العالم الجديد الذي أحبه.. يحلق بـي إلى الشمس..

ثم أضمها إلى صدري وأنا أهمس في أذنيها وأهدئ من روعها. أقبل خديها بهدوء.. تتمنع قليلا ثم تستسلم وهي تتطلع إلي بعينين غائبتين في العشق. تضع يدها فوق كتفي وتضمني بقوة وهي تقول:

- أنا أحبك وأخاف..

أقول وقد تملكني جنون الشهوة:

- وأنا أيضا.. لكني لا أخاف.. أنت الضوء الوحيد الذي ينير هذه الظلمة.. أنا أشتهيك.. حقا أشتهيك..

ثم أقبلها في شفتيها وتقبلني فتستسلم مرتجفة كأنها عصفور بلَّله المطر.

النجوم المنتشرة في السماء لا تنير الأرض. النجوم المتفرقة تدور ببطء حول شيء ما خفي. تلمع وتختفي، تضيء ويخبو نورها بالتدريج، وبعضها يتساقط خيوطا مشعة من شجرة كثيفة متشعبة. وأنا أتمرغ فوق التربة مندفعا بلا قيود فوق سنابل مفروشة.. وسعاد المتمنعة استسلمت للرغبة وللخوف في آن. تقبلني وتضمني وهي تردد: "لا يا مختار.. الله يخليك". أتوقف للحظات أمتحن فيها صدَّها. تعود وتضمني وهي تنزف شوقا ممزوجا بالذهول وتقول:

أحب رائحتك. أقبلها بجنون ثم أحشر يدي في نهديها الصلبين وأمررهما على خصرها ثم أفتح أزرار قميصها وهي تذوب مثل الشمعة بين يدي. تتساقط النجوم من الشجرة الكثيفة أكثر. تبدأ كلاب الليل في النباح.. خرير الوادي يجرف جنوني.. وأنا تحت الشجرة الوارفة أتعرى وأنزف كل ماضي الحزين محاولا أن أصنع عشقا جديدا لكنه بلا رائحة هذه المرة.

انتهى جنوني في لحظة أصبح فيها العالم من حولي أشد قتامة. اختفت النجوم وساد الظلام.. تصاعد عواء الكلاب وكانت شياطيني الكريهة تضحك بقوة وتهمس وتثير عاصفة السأم بداخلي. تحوّل العالم فجأة من الاندفاع والعنف والرغبة إلى الضيق والكرب. أما سعاد فاتكأت على جذع الشجرة تعقد أزرار قميصها الفاتح ولا تتكلم. أردت أن أقول شيئا وأرادت هي أن تقول أشياء.. أو ربما قالت كل شيء فيما قبل وكانت تعرف مصير عشقها المكسور ونزوتي العابرة. ظللت أتمتم وأرفع رأسي إلى السماء، وكان السائل اللّزج يضايقني، سخونة وبرودة في آن؛ عرق يتصبب وعقل يغلي. رفعت سروالي وعقدته ثم تسمرت كالصنم أثبّت عيني في العدم. بينما خطت سعاد خطوتين وتوقفت فجأة وهي ترتعش.. التفتت إلي منكسرة جريحة وحدجتني بنظرة شاردة وتمتمت:

- ألم أقل لك سوف تندم؟

خرستُ.. انحبس صوتي فجأة بينما خطت هي بشرود في حقول الذّرة والزرع.

في تلك اللحظات، كانت الكلاب تواصل نباحها في العتمة.. وأنا يابس الحلق خافق القلب ساهٍ ومنزوع الأفكار. بينما اختفت سعاد.. مثلما اختفت حياة من قبل.

أتذكر جيدا كيف مضيت بين الحقول في تلك اللحظات شريد الخطوات تائه الروح. أضحك ضحكا متقطعا يائسا مشحونا بالسخط؛ ضحكٌ كالبكاء. ماذا تفعل يا مختار؟ لازمتني نبرة العتاب مثل النزيف وأنا أخطو بلا هدف؛ شراع

هزمته الأمواج ويبحث عن مرفإٍ آمن. كنت أثبت قدمي في التربة خوفا من سقوط مفاجئ فأشعر بثقل شديد. تتجمع أفكاري ثم تتناثر حول هذا الجسد كأنها سرب من الخطاطيف يحلق في السماء. ماذا فعلت يا مختار؟

قطعت ما تبقى من الطريق هائما شاردا. تتقاطع الصور القريبة والبعيدة مثل مرايا مكسورة تحت نار الشمس.. تتداخل وتلمع في الخيال المشوش؛ لحظةُ احتضار حقيقي أو دوار أبدي. هذيانٌ أسلم هذا الجسدَ لظلمة الطريق، وراح شريط الصور ينازعني مثل أشباح الليل. تراءت لي الزنزانة بكل تفاصيلها القديمة.. رتابة الحياة وبرودة الحيطان الندية.. هدَّتني الصور وشعرت بحرارة كريهة تنبعث من عمق هذا الجسد المشرد بين السواقي.. جسدٌ ينزف وهو يواصل الهذيان. وأطلَّت حياة فجأة لتفاقم الشعور بالتفاهة. كانت تقول لي "لا يهمُّك إلا الجسد يا مختار.. ألا تشبع. أضحك بسخرية وأرد عليها: أن أشتهيك يعني أني أحبك بحق.. يعني أنني أنظر إليك باعتبارك بشرا حقيقيا أتلمسه وأحسه. فتردُّ علي: والحب؟. أواصل ضحكي وأفكاري العبثية: هو كذبة نصدقها لكي نتلمس معنى هذه الحياة المبهمة". بقيت أتخبَّط بين الصور لا قطرة دم في جسدي ولا سكينة تنقذ الروح.. وحده الضجيج تواصلَ صخبُه في الأعماق.

ظلت تلك النظرة المكسورة ترافق خيالي الهش وتنهش أفكاري وأنا أخطو نحو البيت. شعرت حين اغتسلت بالماء الساخن أني أدنى من كل شيء؛ أدنى من تلك الذئاب المسعورة التي تخرج في الليل لتطارد فرائسها الضعيفة. وفي تلك اللحظات، التي يمتزج فيها العتاب بالاستسلام، تملكني اليقين في نوازع البشر نحو الشر والكذب، وكان يقيني يجعلني أتدلَّك بالماء وأدعك جسدي بقوة لا لأستفيد نقاء بل لأنه نوع من العتاب المعلن لروح استسلمت لنزوة الجسد. كنت أضغط على جبيني وأنا أبحث عن ذلك المبرِّر الذي أعلّل به الفعل الذي اقترفته: ماذا يخسر الإنسان في النهاية؟ بقيت مشتتا أبحث عن مبررات. وحده السفر الطويل أو الهروب من توهَّمت أنه سينتشلني من التيه.

لكن، رغم هروبـي الطويل، لم تفارق نظرة سعاد المنكسرة خيالي.

لازمتني وجعلت إحساسي بالظلم يتفاقم.. وصرت على يقين أن الظلم الأكبر حين يظلم الإنسان نفسه ومن أحبه..

فتحت فلورا باب البيت فوجدتني أنفض غبار الذكريات البعيدة. وكعادتها ابتسمت وهي تجلس إلى جانبـي على الحصيرة وتقول بفرح طفولي:

- ما أجمل الليلة يا مختار... مختلفة وممتعة..

وكعادتي، أقابلُ انشراحَها الدائم بوجه عبوس وكلمات جافة. صحيح أني أحاول مرارا أن أصنع ابتسامة عابرة، لكني لا أفلح، تخونني طباعي الحادة فأستسلم. كثيرا ما قلت لفلورا إن تصورها لصناعة البهجة بحاجة لتربة مختلفة وجينات أخرى لكنها ترفض الاستسلام رغم يقينها بذلك. تقول لي مرارا: صحيح أنها صناعة شاقة ومستحيلة لكنها قادرة على التخفيف من وطأة النفس المعذِّبة. لكني لا أنكر أيضا أن السنوات الطويلة المشتركة معها خففت من الطباع الحادة وقلَّصت دائرة الأرق والكآبة.

قلت لها وأنا أستجمع أنفاسي المخنوقة:

- لا أعرف كيف تستمتعين بالضجيج.. برؤية تلك الأشكال الهجينة من البشر وبتلك الحركات السوقية المزعجة؟

قالت وهي تصنع ابتسامة مستفزة عنيدة:

- لأني أريد أن أستمتع يا مختار.. العين الجميلة ترى الأشياء جميلة أيضا، أليس كذلك؟

ثم واصلت:

- يبدو أنك لم تنم جيدا.. الأرق يطل من عينيك.. إهدأ، صحتك هي الأهم..

وضحكت وهي تقف برشاقتها المعهودة لتغادر بِيت النار، بينما واصلت أرقي بحثا عن الطمأنينة.

النيسان

مضى يومان على وجودنا في القرية. تبددت دهشة الفراق وبدأت أجنحتي المقصوصة ترفرف من جديد. أيقنت أن التذكر هو الوسيلة الأمثل للنسيان، وأن الهروب لا يصنع هوّة مع الأشياء بقدر ما يرسِّخها في الذاكرة الملعونة. وها أنذا أتذكر سعاد بعد هذه السنوات الطويلة لأنساها.. لأنسى نظرتها المنكسرة التي تشبه طفلا يبكي وقد أرعبه التيه في صحراء قاحلة. وأتذكر حياة أيضا، رغم كل الجراح، لأحيا معها وأجدد عللي التي صارت جزءا منّي.

لكن فلورا لا تترك مجالا لتدفق صور التِّيه في الروح. أفاقت من نومها في ذلك اليوم باكرا وخرجت. قضت ساعة من الزمن على شاطئ البحر تجمع أشكالا من الحجارة الفريدة وتضعها داخل قُفَّة صغيرة. كنت ما أزال نائما على غير عادتي.. وحين عادت وضعت جدائل شعرها الطويل والخفيف على وجهي. أفقت مفزوعا مرتعبا، تتبعثر قطرات الماء البارد على وجهي. تضحك فلورا ضحكة عميقة بينما أصيح أنا صيحة من لسعه عقرب:

- أنا لا أتحمل هذا المزاح الثقيل..

تقول وهي تبتسم:

- الحياة كلها مزحة يا مختار.. لابد أن نجعلها مزحة كي نعيش ونواصل.. ألا تتعلم من الدروس؟

قلت بحزم هذه المرة:

- كرهت هذه الحكم وهذه الدروس.. لست طفلا.. ألا تفهمين..؟

زفرت بقوة وأنا أتكئ برأسي على راحة يدي.. ثم رفعت عيني إلى الأعلى وتنهدت. ساد الصمت صحن البيت للحظات أعقبته كلماتٌ مبعثرة:

- لا تغضبـي فلورا.. أنا متوتر بعض الشيء.. وهذا المزاح يقلقني..

لكن فلورا رسمت على فمها ابتسامة تمزج بين العتاب واللامبالاة وقالت باقتضاب:

- لكنك متوتر باستمرار يا مختار.. يبدو أن كل الأشياء تقلقك.. ماذا تريد؟ حقا أريد أن أعرف..

ثم انصرفت بخفة.. بينما بقيت أمسح قطرات الماء البارد وهي تنزلق على خدي الساخن، وقد تملكني ما يشبه الدّوار.

كنت أشعر بأن هذا المزاج المشحون بالأرق والذي لم تفلح السنوات الطويلة ولا الأقراص المهدئة في تغييره، سيحوّلني إلى كائن فاقد للمرح. فعلت كل شيء ممكن لأتفادى الغضب. تجنبتُ النقاشات العقيمة والجدل المجاني والخوض في تفاصيل بلا معنى.. أغلقت الهاتف صباحا وليلا.. وانقطعت عن مشاهدة التلفزيون، والخوض في عجين السياسة ومستنقعها ثانية. كنت أتغاضى عن التفكير في الماضي واسترجاع الصور الكريهة. وطالما اعتقدت أني أفلحت في صنع بداية لحياة أكثر هدوءا وجمالا، لكن الطباع المتجذرة تنفجر فجأة كأنها ذرّات متوهجة تتطاير من نارٍ حامية.

تحمّلت فلورا الكثير؛ كانت تقول لي مرارا إنها تتحمل هذه الطباع بسبب الحب.. ولأنها تعرف أنها شيء يفوق إرادتي. حاولت معي كثيرا لتغير مفاتيح السلوك والفعل فلم تفلح. أو ربما نجحت لكن بقدر ضئيل.

قالت لي ذات يوم قضيناه في قصر الحمراء في قلب البساتين وعلى جداول المياه المتوازية والمتقاطعة في آن:

- شيئان يصنعان فرحتك يا مختار: الكتابة والقرية.. أليس كذلك؟

تلمع عيناي.. تبتسم هي بدلال كأنها اكتشفت أحد أسرار هذا الكون. رأسي فوق ركبتيها ويدها تربت على جبيني بهدوء وحنان في يوم ربيعي لطيف.. العصافير تغرد ونسائم غرناطة المخضرة تتسلل إلى القلب لتصنع بهجة عابرة ومؤقتة. أتأمل وجهها من الأسفل، يبدو فمها بارزا مثل فم سمكة.. أضحك وأنا أقول لها: تغيرت يا فلورا.. تقول وهي تسترق النظر في عيني: صرتُ أحلى، أليس كذلك؟ أضحك بتطرف وأنا أقول بصوت خافت: أنت أحد أسباب بقائي في هذه الدنيا. تحني رأسها وتقبلني في شفتي بحرارة.. بينما أسرح في تذكر حياة التي لا يعرفها أحد سواي؛ قصتي العميقة التي أخفيتها عن فلورا وعن العالم. كنت أعرف أن امرأة مثلها قد تتحمل اكتئابـي لكنها لن تتحمل وجود امرأة أخرى تحتلُّ ذاكرتي.

مالت الشمس في ذلك اليوم الجميل. طلبتُ من فلورا التي تحمل بين يديها مجموعة قصصية لكاتب إسباني، أن تدعك رأسي بأناملها ورحت أستعيد تلك الحكاية التي عشت حياتي لأرويها في صمت.

أتذكر أني انسحبت خارج المكتبة إلى مساحة ظليلة أسترد فيها هدوئي المفقود. كانت دقات قلبـي تتباطأ تحت شمس حارقة مكشوفة رغم الخريف. الفتاة التي تشق الريح أخذت جزءا من خيالي وسكنت عقلي فجأة.. هل كنتُ مستعدّا للحب؟ أم إن الحب حين يأتي فإنه يجرفنا مثل الطوفان؟

كنت أقف تحت شجرة النّارنج.. أحسست برائحتها تتسلل إلى أعماقي وهي تحمل ألوانا خريفية رقيقة. تملكت بعض اليقين بتأثير من الرائحة.. تنفست بهدوء وكانت دقات القلب بدأت تنتظم وبدأت أستعيد ثباتي.

عدت إلى المكتبة.. لم أعر اهتماما للرائحة المزعجة. شعرت أن الفتاة

التي تشق الريح قد نفثت في الهواء رائحة أخرى عطرة. بقيت أطل من باب المكتبة على الداخل. كانت تجلس عند مدخلها منشرحة وتبتسم وتحكي بهدوء.

أمعنت النظر فيها.. في شعرها المنسدل على كتفيها وملامحها الهادئة التي تشبه أزهار النّارنج. لمحتني فشعرت بالتوتر بينما لم أشعر أنا بأي شيء. كنت مستعدا في تلك اللحظات أن أفعل أي شيء لأمسك تلك النّارنجة الجميلة بين يدي حتى لو كان طعمها مرّا.

خطوت هادئا نحوها. وقفت إلى جانبها كأني أعرفها منذ زمن. شعرت أني أعرفها فعلا.. وأن ألفة ما تجمعنا. تضرَّج وجهُهَا.. وارتبكتُ أنا.

كنت أعرف أن فخ الدهشة الذي أنصبه لابد أن يصنع حالة فريدة.. لابد للكلمات التي تخرج صادقة أن تهدم الفجوة بين شخصين يلتقيان لأول مرة. صحيح أني نزلت عليها مثل الصاعقة.. لكن السلوك البشري لا يخضع دائما للتخطيط.. إننا مرهونون أيضا بالمصادفات والقرارات المفاجئة والجنون.. ومثلما يجتاحنا الكرهُ فجأة قد يجتاحنا الحب أيضا، الحب الذي يذيب جليد الكراهية أو النفور غير المبرر. برزت في خيالي جملتان وأنا أحني رأسي وأقترب منها؛ صمت ورفض أو قبول وإذعان. كنت على يقين أني أحمل معي إرادة منزوعة المخالب؛ أو بعبارة أخرى، إرادة مفعمة بالحنين. تطلعت إلي بارتباك ممزوج بالدهشة وهي تقول:

- نعم..؟

قلت بنغمة فيها كثير من الصدق والهذيان:

- أعرف أني أهوج وقد لا أطاق الآن.. لكني على يقين أن دقائق معدودة على انفراد بك قد تجعلني أدخل الجنة.. أو على الأقل أصبح إنسانا جديدا.. ممكن؟

وأشرت بيدي إلى خارج المكتبة.. وقفت وخطت بهدوء وتبعتها ألملم

فرحتي الطارئة. كنت أعرف وأنا أسري وراءها مخدرا بعطرها، أنني في لحظة لا تنسى؛ إنني أصنع جزءا من تاريخي الخاص وأنا أحوّل حياتي في لحظة حاسمة، صوب الحب الذي لم أكن أعرفه، لكن قرأت عنه كثيرا.. مثلما تمنيته كثيرا.

عند شجرة النارنج جلسنا على مقعد حجري.. كانت صامتة تتطلع بهدوء إلي وتقرأ جنوني.. بينما كنت أنا سعيدا.. أريد أن أقول كل شيء، ولأني أريد قول كل شيء لم أستطع الكلام. تدافعت الأفكار دفعة واحدة فحبستها فجأة. قطفت حبة نارنج من الشجرة وقدمتها لها وأنا أقول بصوت هادئ ونغمة صادقة: لم أنم الليلة كلها بسببك. بينما قالت هي: أكيد مجنون..

شعرت أن الذكريات تتزاحم في ذهني وتستدعي بعضها.. أيقظت عودتي بعد هذا الغياب الطويل سلسلة من الصور. وقفت وأنا أمسح وجهي بيدي، أريد شيئا لا أعرفه؛ حالة الأرق التي تلازمني باستمرار صارت شيئا لا يطاق.. نارا تتوهج باستمرار وتحرق هذا الجسد المثقل بالتردد. لكن رائحة الزبد والتربة الندية والزرع البليل تتسلل من النوافذ لتنتشلني من جديد وتحملني إلى وهم السكينة المؤقتة. شعرت بعد يومين من التيه، أن التسكع في هذه الأرض وتاريخها وحكاياتها، والغوص في أسرارها هو المنقذ لذات تتشرنق داخل هواجسها.. أو ذات تملَّكها الشك في عالم فقد بريقه.

من أين أبدأ؟ ولماذا يحدث النضوب؟ وهل أنا قادر أم إن الأمنيات وحدها لا تكفي؟ أعرف أن الكتابة عصية، وأن دفاتري القديمة في السجن مجرد خواطر شاعرية حزينة ومناجاة فردية مبهمة. لقد حولني الأرق الذي يستبد بخاطري إلى كائن هش، لا حل يجدي معه إلا الكتابة. قالت فلورا كل شيء؛ اكتشفَت أني من طينة أولئك الذين أصابتهم لوثة الكتابة والأدب والأرق. فعلت كل شيء؛ كل الطقوس التي أدركت بحسها الخفي أنها طقوسي أنا، تختار الأضواء الباهتة وتعد كأس قهوة يبدد القلق، وتشغل الموسيقى الشرقية الدافئة.. فعلت كل شيء لكنها لم تدرك أن الكتابة تنبع من الداخل؛ وقد تولد في سياق لا ملامح له. أظل لفترات طويلة أكتب وأركب كلمات وأنسج نعوتا

وأوصافا وصورا ومشاهد.. أختار عناوين ثم أسخر منها، أمزق كل ذلك وأعبث بخيالي. تطل حياة من بين السطور، تحمل ابتسامتها حنينا مؤلما. ثم تزاحمها في الذاكرة سعاد وهي تنزف. تلازمني صورة الطفل الصغير المشرد في صحراء قاحلة.. أتذكر أمي وقهر السنوات.. خليطٌ من الصور المتراكمة يجعلني قصيرا أتسلق جدارا شاهقا من الأمنيات المكسورة.

دخلت الغرفة. شعاع من النور اللامع يضيئها وقد تسلل من النافذة الصغيرة مثل سهم طائش بلا هدف. كانت فلورا المتوردة جالسة بقامتها الرشيقة على المتربة وهي تختار من القفة أحجارا مختلفة الألوان والأشكال؛ تصنع دوائر وخطوطا متوازية ومتقاطعة، وتستبدل بقطعة صغيرة أخرى كبيرة، ثم تشتت كل شيء لتعيد عملية التشكيل من جديد. قلت لها بصوت يترنح:

- آسف فلورا..

ظلت صامتة للحظات، ثم تطلعت إلي بعينين تحملان عتابا قديما متراكما:

- أتعرف يا مختار ما الذي يجعلني أتحمل طباعك الغليظة؟

ثم تابعت بعد صمت كانت تدرك أني ألجأ إليه حين أعجز عن المواجهة:

- ليس الحب يا مختار.. صدقني ليس الحب. هو التعاطف فقط، إحساسي بالمسؤولية نحوك يدفعني لذلك.. أنا أعرف أن قلبك الطيب أنهكه المرض النفسي.. وأنك ورثت حدّة اللسان وهذا أمر يفوق طاقتك.. وأعرف أيضا أنك تحمل ميراثا من الألم والخوف والكبت والهروب.. أعرف كل ذلك.. وهذا يجعلني أتحمل وأقاوم.. لكن صدقني، لا يمكنني أن أقضي حياتي في المشاحنات، أمامي أهداف كثيرة أريد تحقيقها.. صحيح يجمعنا طموح مشترك ومشاعر جميلة وصداقة أجمل، لكن الجمال بحاجة للترميم لا للهدم.. أتفهمني؟

أم هذه أيضا نصائح تعبتَ منها؟

وضعت يدي على كتفها وأنا أزم شفتي حيرةً وتأنيباً. ثم رفعتها من يديها وجذبتها إلي بقوة وقبلتها في شفتيها قبلة طويلة.. ظلت جامدة، وكانت عيناها العذبتان تلمعان تحت أشعة النور وتصنعان فرحة فاترة، ثم سحبتها معي إلى الزاوية؛ أغلقت الباب.. بينما قالت وهي تنظر إلي شزرا:

- ليس هذا ما يصنع فرحتي يا مختار.. مشكلتك هناك.. وهناك أيضا.. السرير لا يداوي الجرح..

وأشارت إلى رأسي ولساني. بينما بقيت أربت بيدي على رأسها وأظافرها.. وأجذبها بقوة إلى حضني وأنا ألتهم شفتيها.. وعنقها. أقول بصوت متهدج:

- أنا بحاجة إليك فلورا.. أنت تعرفين هذا جيدا. بحاجة إلى هذا العقل.. إلى هذا الجسد.. أشعر معك أني أولد مجددا. أنت أفضل من كل الأقراص.. أعرف هذا جيدا لكني أنسى.. أو ربما مغفّل..

وكان الشعاع اللاّمع قد صنع دائرة كبيرة من النور في الغرفة الدافئة.. وكانت فلورا تستسلم بغير اقتناع لروح تائهة تصرُّ أن تداوي جرحها كالعادة بنزوات الجسد.

كان ذلك الصباح مشرقا ودافئا وهادئا بعد أيام العرس الصاخبة. عادت السكينة للمنازل.. النساء في منازلهن وقليل من الرجال في الحقول صباحا. وحدها خالتي رحمة التي تقضي اليوم كله في الحقل.

قالت لي جدتي إن خالتي القادرة بألف رجل، سألتها عن دواعي هذا اللقب الجديد فقالت لي من الأفضل أن تحكي لك هي بنفسها. خرجت في ذلك الصباح الربيعي الدافئ متوجها إلى الحقل.. تركت فلورا في الغرفة تدوِّن في دفتر ذكرياتها اليومي، وانطلقت بين الحقول أرقب الطيور وهي تغرد تحت

الشمس فرحة ومليئة بالحيوية. نفضت كل الهواجس التي تلازمني. قطفت زهورا برية ورحت أشم نسيم القرية وأتلمس سحر الانطلاق. وصلت إلى البئر، لم يكن عميقا لكنه نظيف يوحي بالاهتمام والعناية، مددت يدي إلى سطل مربوط بحبل غليظ وملفوف حول جرار صغير، أرخيت الحبل حتى لامس السطل سطح الماء، امتلأ إلى النصف فرفعته ثانية بهدوء ثم أسقطته بقوة حتى امتلأ كاملا، ثم رفعته مرة أخرى بواسطة الجرار. شربت كمية ماء جعلتني أشعر بالغثيان. شريط من الصور المتراكمة مرَّ في لمحة وأنا أستعيد ذكريات الطفولة واليفاعة. بقيت أتأمل صورتي في صفحة الماء المتحركة داخل السطل الأسود. كانت تتحرك بقوة وتترنح وتصنع ظلالا غامقة تحت أشعة الشمس اللاهبة.

على بعد أمتار قليلة، خالتي رحمة تطوِّف في حقلها الصغير مقوسة تقطع الفول بمِنجَل، تدندن بصوت خافت أنغاما جبلية تراثية قديمة، أنفاسها تتقطع وهي تركُّ بعد كل خطوتين أكوام الفول. شعرت حينئذ بنشوة مبهمة؛ مزيج من الفرحة والحنين، رأيت فيها صورة أمي بنظرتها الشاردة، حركتها وتنفسها السريع، نشاطها الدائم. استدارت فجأة فانبرت شفتاها عن فرحة حقيقية، انبسطت أسارير وجهها وهي تلمحني أتأملها بحنين تحت الشمس. قالت وهي تمسح جبينها بمنديل:

- أهلا يا مختار يا ولدي الحبيب.. أهلا بك في أرض جدك..

اقتربت منها وقبلت رأسها:

- كفاك تعبا خالتي.. ينبغي أن ترتاحي.. أو دعي هذا العمل للغد.. أين يونس؟

قلتها وأنا أوحي بشيء ما غير واضح في ذهني، بينما ضحكت وهي تضع يدها على فمها:

- "دجاج السّوق كيتربط في العشية" تأجيله يعني ضياعه يا ولدي.

وبدون تعب، صدقني، ربما كنت ركنت منذ زمن طويل.. نحن خلقنا من أجل الحركة.

بقيت أتأملها بدفء يملأ داخلي، تمنيت أن أهبها هذا الجمال الذي حلَّ علي فجأة لكنها قطعت أمنياتي:

- نحن وأمثالنا في الدنيا يا ولدي نسير ونسير ولا نعرف إلى أين.. يومُنا يشبه حياتَنا كلّها.. نقضي النهار في الأرض والليل في الأحلام..

ضحكت وأنا أمسك يدها وقلت:

- جيد خالتي.. يعني أن أحلامك مستمرة؟

- الأحلام لا تتوقف يا ولدي..

بعد صمت تابعت:

- أنا الآن كما تراني عجوز وأيامي في الحياة معدودة، قضيت حياتي أعمل في هذه الأرض بلا توقف.. وأحلامي أيضا لم تتوقف رغم كل السواد الذي رأيته. حلمت بزوج طيب ولم أوفق، حلمت بولد شهم يعينني في الكبر ولم أوفق، حلمت بحج بيت الله ولم أستطع.. حلمت أن أرتاح بعد كل هذا الشقاء وأيضا لم أوفق، ومع ذلك أحلامي مستمرة.. يجب أن أحلم كي أعيش.

كانت خالتي تبوح بنغمة فيها رضا عميق، لم تتغير طباعها رغم كل الآلام المتراكمة، بخلاف أمي التي كانت تحمل طباعا مزاجية حادة ومتناقضة أودت بها إلى تلك النهاية المأساوية. كانت خالتي تكبر أمي بخمس سنوات، وكانت تحبها وتخاف عليها كأنها ابنتها، وحين تزوجت أمي، أحبت خالتي أبـي وأحبتنا جميعا.. وظلت تحبنا. كانت ترى فينا امتدادا لصورة أمي.

جلسنا عند حافة الساقية. اتكأتُ على جذع شجرة أستنشق هواء لطيفا؛ مزيج من الزرع والكلأ. قالت خالتي مترددة:

- اعذرني يا ولدي، أعرف أنك لا تريد الحديث عن غيابك كما أخبرتني جدتك، وأنا لا أعاتبك وليس من حقي، لكني أريد أن أعرف سبب العودة المفاجئة بعد كل هذه السنوات.

ربت على يدها وقلت:

- لا أعرف ماذا أقول لك خالتي.. أنا أيضا لا أعرف.. لقد أتعبتني الغربة، وأريد أن أرتاح، أشعر بعد كل هذه السنوات أني مازلت تائها، مثل مركب صغير تحركه الرياح في قلب البحر.

بقيت تنظر إلي بعطف. قلت:

- لم تفهمي شيئا مما قلت.. أكيد، أنا أَخْرفُ يا خالتي، وهذا حالي منذ سنوات. فلورا الوحيدة التي تفهمني، وربما تعبت هي أيضا..

- لا يا ولدي.. أفهمك. أمك أيضا كانت مثلك، قلقة على الدوام.. وكانت ترى الحياة كلها مشكلة.. لم تنظر إليها ببساطة كي ترتاح. كثيرا ما نصحتها، لكنها كانت عنيدة.. ليست أمك وحدها.. جدتك أيضا؛ منذ أن مات خالك الحسن فقدت هي الرغبة في كل شيء.

استدعى حديث خالتي أشجانا كثيرة؛ لكنها بمقابل ذلك، أيقظت بداخلي شيئا لم أنتبه إليه من قبل؛ هذا القلق المتوارث.. صورة أمي التي أشبهها وأكرِّر مأساتها من جديد. فعلا أشبهها، وأمضي في طريقها بلا تردد.. هل نحن نختار الطريق؟.. ولماذا نسير في طريق نعرف جيدا أنها تفضي إلى التعاسة المطلقة؟ كانت خالتي ماتزال تحكي عن السلوكات المتوارثة بطريقتها هي. بينما علقتُ بخيالي في مشهد وفاة خالي الحسن قبل عقود. خالي الذي عقد عليه جدي الأمل أن يواصل الدراسة ويصير فقيها كبيرا. لكنه توفي في عز شبابه في قبيلة "بوأحمد" وتم نقل جثمانه في مركب في البحر.

توقفت عن الشرود وسألت خالتي سؤالا شغلني طويلا:

- هل تذكرين خالتي قصة زواج أمي، كيف تعرفت إلى أبـي وأين وماذا حدث..؟

ضحكت ضحكة قوية.. غطت فمها بيدها كعادتها وقالت:

- لا تتغير يا مختار.. تبحث في أمور بعيدة وغريبة..

قلت لها مترجيا:

- أرجوك.. يهمني أن أعرف.

- حسنا يا ولدي.. لكنها قصة طويلة والوقت ضيق الآن.. حين نذهب للبيت أحكي لك.. لأني كنت حاضرة على اللقاء يومها. كنا في سوق "النيسان".. مازلت أذكر التفاصيل.. آه كيف يجري العمر..

قلت بلهفة:

- سوق النيسان؟ تقصدين السوق السنوي في تغسة؟

- نعم، هو.. كانت أياما جميلة..

تتكلم وعيناها تصنعان ظلالا ممتدة من الحنين. بينما لمعت في خيالي فكرة مجنونة؛ تشع من بعيد كنجمة في العتمة. قصة أبـي وأمي؛ قصة هذه الأرض الساحرة المبهمة القاهرة. قصة النجاح والفشل والإحباط. ومثل طفل صغير يخاف على لعبته؛ دفنت فكرتي في أعماقي القصية، وعدت إلى خالتي لأسألها من جديد:

- هل صحيح أن النيسان كان سوقا للتعارف حيث ترتاده معظم بنات هذه القبائل، يلبسن أجمل الثياب، ويلبس الذكور أجمل الجلاليب للفت أنظارهن؟

- نعم.. وهو أيضا سوق تباع فيه الحلوى والقلادات، ويتم التجول في مراكب البحر ذكورا وإناثا؛ يغنون ويمرحون ويقضون أجمل الأوقات. لكن الشيء الأهم؛ أنه سوق ترتاده النساء اللواتي لا يلدن أو اللواتي أصبن بعقم.. ففي الناحية اليمنى من الشاطئ يوجد تل صغير منخفض من الرمل يسمى "رملة التشاطة" وهي رمال ناعمة وناصعة؛ تصعد إلى أعلى قمتها المرأة التي لا تلد وتتدحرج إلى الأسفل. كثير من الزائرين يقضون في يوم النيسان أوقاتا ممتعة في مشاهدة النساء وهن يتدحرجن من الأعلى إلى الأسفل. وقد صار هذا التقليد إحدى العادات الأكثر شهرة في قبائل جبالة والريف. ويحكى أيضا، أن زوجة المراقب العسكري الإسباني "كاباث" حينذاك قامت بنفس العادة وبعد فترة حرمان رزقت بولد. فرح زوجها المراقب واشترى جديين ووزعهما على سكان المنطقة تبركا وتيمنا. فمن عادة من يرتاد هذا السوق السنوي، خصوصا أولئك الذين يقصدون زاوية "سيدي محمد العطار" للتبرك، أن يتبرعوا بالمال أو بديك. يوضع المال في صندوق فوق شاهد القبر.. ويذبح الديك ويمنح للحاضرين.

كنت مستمتعا بهذه التفاصيل فسألت بإلحاح:

- حسنا خالتي، أريد أن أعرف هل رأى أبـي أمي هناك وطلبها للزواج؟

- ههههه.. نعم، رآها هناك..

واصلت ضحكتها بخجل وقالت:

- يبدو أنني سأقضي اليوم في الحكايات.. وهذا الفول يتهدده التلف، ألا ترى يا مختار سحبا صغيرة بعيدة آتية من الشرق؟

- أين هي السحب يا خالتي؟.. أنا لا أرى شيئا.. والنظارة نسيتها في البيت.

واصلتُ فضولي:

- دعينا من النيسان الآن خالتي.. وأخبريني ما حكاية القادرة؟

سألتها وأنا أربت على يدها.. بينما قالت هي بحسم:

- في البيت.. سأحكي لك.. هي أيضا قصة طويلة..

استأذنت بالرحيل تاركا خالتي في الحقل وخطوت بين سنابل الزرع الخضراء أنبش في قصتي الجديدة التي ولدت فجأة بلا تخطيط.

كنت أعرف الساعة التي خرجت فيها من البيت متجها إلى الحقل لكني لم أعرف متى عدت.

حين وصلت إلى الدار.. وجدت فلورا جالسة على الحصيرة في بِيت النار تقرأ وحولها اجتمع صبيان صغار يتغامزون ويتهامسون وهي منتشية. والبرمة فوق الكانون يتصاعد منها البخار ويسكن السقف. قالت وهي تتطلع إلي بدهشة الأطفال وفرحتهم:

- أين تأخرت يا مختار..؟

أجبتها باقتضاب:

- في قلب الحقول عزيزتي..

وضحك الأطفال وانتشروا بسرعة مثل سرب حجل تطارده كلاب الصيد. بينما مضيت إلى الغرفة مخدرا ومشبعا بالصمت. لا أذكر كيف رجعت من الحقل، ومن أي طريق ومن التقيت. لا أذكر شيئا سوى أني جلست تحت الشجرة تدغدغني قصة أمي وسوق النيسان وتل الرمال. ظلت الفكرة تلمع في ذهني وتشعل خيالي، تلمع فجأة مثل الومضة؛ شيء خاطف وعابر وساحر. دخلت جدتي الغرفة وقالت:

- ملأت لك يا ولدي سطلين من الماء الساخن.. لا تتأخر..

دخلت الحمام في زاوية المنزل.. الشمعة تضيء العتمة.. بدا الفضاء العتيق مثل قبو عميق. كانت الأسئلة الحارقة تتدافع في رأسي وأنا أسكب الماء على جسدي.. أفكاري ملتهبة.. لا، لا أملك أفكارا.. هي الهواجس ذاتها، أشياء حادة وقاطعة وممتعة في آن. إنها نقطة البداية إذن؛ سوق النيسان وحكاية أمي وأبـي. وفجأة روادتني صورة القارب وهو يحمل جثمان خالي الحسن من قرية بوأحمد إلى أمتار. ألحت علي وظلت تشغل تفكيري وتستدعي كل الروايات التي سمعتها من أمي وجدتي وخالي الحاج محمد.

سرحت بهدوء وأنا أتأمل الشمعة وهي تذوب شيئا فشيئا. احتبست الكلمات في حلقي وأنا أتخيل جدتي وهي على القارب إلى جانب جثمان ابنها الحسن.. طاقة جديدة تستبد بخيالي وأنا أسعى إلى القبض على التفاصيل البعيدة؛ شيء عميق دفعني إلى الكتابة.

في غرفتي استلقيت منتشيا. قالت لي فلورا وهي تتمدد إلى جانبـي وتضع قبلة على جبيني:

- أشعر أنك إنسان جديد..

- أغلقي الباب فلورا.. جدتي هنا..!

ضحكت ثم أغلقت الباب. عادت هذه المرة وقبلتني في شفتي قبلة طويلة:

- من هنا الآن.. أحد أشباحك الدائمين؟

وضحكَت ثانية.. وضحكتُ معها بحرية منتزعة بالقوة هذه المرة.

قلت بصوت خافت:

- في المساء سترافقينني إلى بيت خالتي رحمة.. ستحكي لي أشياء مهمة؛ قصة وفاة خالي الحسن التراجيدية، وقصة أمي وأبـي وسوق النيسان.. والمراقب العسكري الذي رزق بطفل بعد أن تدحرجت زوجته من أعلى تل الرمال حسب المعتقدات الشعبية.

تطلعت إلي بعينين غائمتين وهي تقول:

- ماذا تقول؟ يعني إذا تدحرجتُ على هذا التّل.. يمكنني أن أنجب؟

لم أجبها، فقد كنت أعرف أن الحديث في هذا الموضوع ذو شجون. لكنها لم تستسلم لآلامها الخاصة. رسمت بأصابعها دوائر مختلفة على بطني وقالت:

- الأرض.. البحر.. السوق.. الرمال.. وأنت هناك تبحث في دوائرك عن الحكايات، وأنا.. أين أنا يا مختار؟

ابتسمت وأنا أمسك بأناملها وأقول:

- أنت هنا..

وأشرتُ إلى رأسي.

بينما قالت:

- رأسك متعب ولا يتحمل..

قبل أن يحط الظلام، وقبل أن أقصد بيت خالتي أنا وفلورا، خرجنا في جولة في أطراف القرية. وكالعادة، واصلت بحماس:

- أنظر يا مختار إلى الخضرة من حولك، إلى البحر الهادئ وهو يصنع السكينة والسحر، إلى النوارس وهي تصيح بحرية. هذا التل الرائع وتلك

الجبال المرتصفة وهذه الشمس المائلة التي تضيء القلب.. البذرة التي تنبت الزهور تنبت الأشواك أيضا.. أقصد يوجد نصف آخر للحياة يستحق الاهتمام، فلماذا نظلم روحنا؟

بدوت ضئيلا وفلورا تحيطني بالنصائح.

ضغطت على يديها ونحن نواجه البحر مخلفين وراءنا كتلة من المنازل غير المنتظمة. قلت وأنا أرمي أثقالي:

- تعرفين فلورا.. أحسدك على هذا المزاج العذب، أتمناه كثيرا ولا أستطيع أن أتملكه، شيء يفوق الإرادة.. شيء لا تصنعه الرغبة ولا التجربة.. قد تصنع جزءا منه لكنه يظل هبة من الله.

لم تتكلم هي.. وضعت رأسها على كتفي وتنهدت بعمق وهي تشم رائحة الزبد والطحالب الآتية من البحر. وكانت أنفاسها تتصاعد وتصنع حالة من الألق الساحر.

لم أتحمل برودة المساء القادمة من الجهة الشرقية، فطلبت منها الانصراف. قالت بصوت عذب:

- أحببت المكان يا مختار، هدوء خارق يثير خيالي، وهذا الغروب.. ما أجمله! كأن الشمس تريد أن تقول شيئا قبل أن ترحل.. هي لا تودعنا بالتأكيد، لكنها ربما تذكرنا بشيء ما.. هل ترى معي قرية "الجبهة"؟ إنها تبدو من بعيد مثل لوحة.. كانت أمي تقول لي إنها مثل لوحة، قالت كثيرا لكني لم أكن أعرف..

- كيف عرفتِ أنها الجبهة؟

- جدتك أخبرتني.. سألتها فأخبرتني.. أشارت بيدها فحسب، فأنا يتعذر علي التواصل معها بسلاسة..

لكن البعوض الذي راح يزحف مع الغسق، لم يترك مجالا لاستمرار الحوار.. حينئذ طلبت من فلورا العودة.

توازة

عبرنا الشاطئ باتجاه الحومة؛ حيث بيت خالتي. باحات فسيحة تقابلها دروب ضيقة ومنازل متداخلة يقسمها مجرى واد تفيض منه روائح عطنة؛ مزيج من بقايا المياه الراكدة والمخلفات اليومية لمجزرة ابن شيخ القبيلة، من جلد الماعز وأحشائه؛ ترمى كل يوم في مجرى الوادي الصغير فتجمع في قلبها أنواعا من الحشرات المقززة، إضافة إلى الأسمدة الطبيعية المتراكمة وقد غمرتها المياه. شعور بالانقباض سرى في كياني وأنا أنتقل من زرقة البحر ورمادية الشاطئ إلى الوساخة المنتشرة في القرية، يعمقها صراخ مراهقين وكلماتهم البذيئة ونظراتهم المستفزة.

عند مدخل الحومة، حطَّ الظلام جناحيه الثقيلين وابتلع القرية. باب الدار صغير ومفتوح باستمرار، خلفه ردهة ضيقة ومعتمة يواجهها باب آخر مسدود. فتحت خالتي الباب دون أن أطرقه.. انشرح وجهها وهي تستقبلنا بحفاوة وتقول:

- رأيتكما من النافذة المطلة على الدرب..

البيت صغير ولكنه مرتب ترتيبا هادئا؛ غرفتان وصالة باردة يتسلل إليها هواء بحري منعش وفناء واسع نظيف محاطة في جوانبه أصائص من الطين متنوعة النباتات. دخلنا الصالة الفسيحة الباردة.. غابت خالتي للحظات وعادت وهي تحمل صينية شاي وخبزا ساخنا خرج للتو من الفرن وزيت

الزيتون.. انشرح وجه فلورا وهي ترى الزيت والخبز وهو يتصاعد منه البخار. نكزتني لتثير انتباهي.. فقلت بصوت خفيض جدا:

- لا تفضحيني يا فلورا.. عيب..

لكن خالتي قالت:

- اتركها يا مختار.. لا تزعجها. هذا بيتها..

قلت وأنا أتمتم:

- أطال الله عمرك خالتي.. صحَّتُكِ حقا جيدة..

وضحكت خالتي وضحكت فلورا وهي تردد:

- حفظك الله يا خالة.. أمسكي الخشب، أليس هذا ما تفعلون..؟

- لا يا ابنتي.. مختار يمزح..

ثم تابعت:

- عشت حياتي لا أبالي بهذه الأمور.. بل سأحكي لكما شيئا لا يعرفه مختار أيضا. كنت صغيرة حين كان يسكن هذه الحومة زوجان إذا نظرا إلى حمامة تطير، وإذا نطقا بشيء، تسقط فورا.. لهما عيون زرقاء وهما يتشابهان كأنهما توأم. كل أهل القرية كانوا يخشون النظر إليهما إلا أنا..

سألتها:

ماذا كنت تفعلين؟

قالت:

- لم أكن أنظر إليهما.

وضحكنا جميعا. كانت خالتي تحكي وأنا مستمتع بحكايتها.. الجلسة مسلية ومحفزة على السرد.. قصص الناس وأساطير القرية. وكنت حينئذ تائها بين صور الماضي المبهم وبين اللحظة بتفاصيلها الساحرة. أمسكت دفتري الخاص وقلما ورحت أسجل معلومات متفرقة وأمثالا بدوية قديمة. بينما تغمس فلورا أصابعها في الزيت.. تريد أن تكبح ذاتها فلا تقدر. خالتي أيضا كانت معلقة العينين وهي تواصل سرد تفاصيل شديدة الغرابة؛ تتراوح قصصها الطريفة بين الحقيقة والفانتازيا..

لكن خاطري لم يهدأ وأنا أكتب على ورقتي عنوانا وأسطر تحته خطا وأضع نقطتين؛ حكاية القادرة. لم أدع الحديث يجري على عواهنه. التفت إلى خالتي التي تملكها حماس الحكي وقلت:

- القادرة يا خالتي.. ما حكايتها؟

غطّت فمها بيدها وضحكت بصوت خفوت متقطع، وكانت عيناها تتضاءلان تحت ضوء المصباح الشاحب وقد تجمع حوله الذباب الرقيق. قالت وهي تأخذ نفسا عميقا:

- بعد سفرك بشهور قليلة، كنتُ حينئذ أتممت الأربعين على ما أتذكر، وكنت حبلى بمريم.. في ذلك العام اجتمعت المصائب يا ولدي.. فتحت لها باب داري وتحملت. مات زوج خالتك وتركني أواجه الزمن وحدي. يونس فقد تركيزه بعد أن هربت زوجته سعاد ليلة عرسه، دخل بعدها في واد من الأمراض والوساوس.. وأنا لم أكن أملك ما يعينني على الحياة. كنت أذهب للحقل وأنا منهكة، الجو بارد قارس والأمطار غزيرة وأنا وحدي تحت السماء أفكر في محصول الزرع القادم. لكن صدقني يا ولدي.. كل الآلام في البداية تكون شديدة السواد.. ثم شيئا فشيئا، يظهر النور.

خفق قلبـي بشدة دقات مؤلمة. أثار انتباهي حكمة خالتي وهي تحكي

عذاب السنوات بقلبها الطيب المسالم. لكن عقلي كان يعج بالأسئلة المتدافعة حينئذ؛ هروب سعاد ومرض يونس، ثم تركتها تواصل وكانت شرارة عميقة تشتعل بداخلي:

- أتعرف يا مختار؟ في شهر يونيو من كل عام، حيث عادة "توازة" السنوية؛ أقصد موسم الحصاد.. الكل منشغل بالأرض وقطع الزرع. كنت حينئذ بلغت الشهر الثامن.. أحسست بألم منعني من الذهاب للحقل. اشتد الألم ولم أعد أقوى على أعمال المنزل أيضا. كنت أجاهد كي لا أبدو ضعيفة. عشت حياتي أكره الشكوى.. وأكره نظرة التعاطف في عيون الناس. لكن خالك الحاج محمد وكل الأهل حصدوا زرعي دون أن أطلب منهم شيئا.. قارب عددهم الثلاثين في ذلك اليوم. تكفلت جدتك بالفطور والغذاء وساعدها نساء الحومة كلهن. حملن الأكل إلى الحقل وتبعتهن أنا بصعوبة. لكنني كنت سعيدة في ذلك اليوم وفرقت عليهم "العَلْك" وهم يرددون:

احصدْ الحصّاد

وشيِّر بالفالية

وإذا عْيِيت آ مِسكين

رجَعْ للظّل د الدَّالية

روَّح يا الله فحاليك

إلى راحت الشمس

شمنْ وقت بقالك

يالمغرب وعشية

والليل هذا وقته

حَلفْ بيَمِيني

الظريف لا فارقته

وبعد شهر، في أواخر يوليو، أتممت شهري التاسع. قرر خالك الحاج محمد أن يَدْرِسَ محصول الزرع هو وبعض الأهل؛ فقد اقتضت العادة، كما تعرف، في قرى غمارة والريف أن يتم إيقاف التبن في شكل دائري هرمي يسمى "التمون"، بعد أن يتم فصل حبوب القمح والشعير عن السنابل والقشوش بواسطة البهائم في عملية طواف متكررة. أعددت لهم براد شاي وصينية مليئة ب"السفنج" وإناء عسل وزبدة وعدت إلى السرير. في ذلك الصباح اشتد الألم أكثر.. ولم أستطع أن أخبر أحدا أنني ألد. صداع خارج البيت.. صياح ملأ الأرض والشمس حامية.. وأنا قلقة وخائفة. وجاءت مريم.. وأنارت دنياي. قطعت الحبل السري ثم وضعته في كيس ورميته إلى جانبـي. غسلت مريم ووضعتها في السرير.. ارتحت لساعتين.. ثم أوقدت الجمر وأعددت ديكا للغذاء. دخل خالك البيت في تلك اللحظات ليملأ قلة بالماء فسمع بكاء الرضيعة.. ورآني أمشي بصعوبة. سألني عنها فأخبرته بما حدث. عاتبني وهو يضحك.. ثم قال "أنت لست رحمة.. أنت القادرة". لا يقدر على هذا إلا أنت..

كانت فلورا تستمع إلى خالتي؛ تستوعب كلمات وتضيع منها كلمات أخرى، وكنت أومئ لها برأسي أني سأشرح لها التفاصيل فيما بعد. نظرت إلى الساعة بقلق شديد.. في هذا الهزيع تصمت القرية كل الصمت؛ يأوي الرجال والأطفال إلى بيوتهم، ويخيم شبح النهاية في كل الأرجاء، لكن نباح الكلاب لا يتوقف؛ عواء غريب وممتد في آلامه.. يتردد صداه في سكون الليل. تواصل خالتي حكي الأيام المرة، لكني لم أعد أنصت بتركيز. علقت بذهني قصة يونس وهروب سعاد. عصفت بكل كياني وشعرت أني أرتجف. ظلَّ خيالي حينئذ يعجُّ بالصور والشكوك المتلاحقة التي تتناسل كأنها خيوط العنكبوت. أسأل خالتي عن حكاية يونس. تتوقف ملامحها عن الانشراح.. تصمت للحظات ثم تردد:

- إنه يوم مؤلم جدا يا ولدي.. كان يونس يعشق سعاد بجنون، ولم تكن

هي تريده. لكنها ذات يوم وبعد إلحاحه في طلبها وافقت من دون اقتناع. وافقت دون أن تتكلم.. دون أن تطلب شيئا. كأنها أفاقت من نومها في ذلك اليوم بلا ذاكرة، لا رغبة لديها في الرفض ولا أمل لديها في حياة أخرى.. لكني لم أر يونس سعيدا مثلما رأيته ذلك اليوم؛ كانت الفرحة تغطي وجهه.

بقيت أتخبط في الاحتمالات. يونس تزوج سعاد؟ كل الهواجس تتنازع خيالي المسموم وأنا أسألها باندفاع:

- لماذا وافقت سعاد يا خالتي؟ هي لم تكن تحبه وكانت تقول لن أتزوجه ولو خيروني بين الحياة والموت.. لماذا؟ لا يمكن...

بينما التفتت فلورا إلي مندهشة وقالت:

- هل تعرفها يا مختار؟ ليس شيئا يبعث الحيرة.. كثير من النساء يتزوجن لأجل الزواج فقط.. أنت أدرى مني بهذا.. خصوصا عندكم..

بقيت متسمرا أتخبط في شكوكي ثم قلت بصوت متهدج:

- لكن سعاد لا.. لقد كانت تحب الحياة. مرحة جدا.. لكن..

وبينما أواصل أسئلتي دخل يونس. أشار بيده إلينا وانحشر في غرفته ولم يخرج منها. أما خالتي فركنت إلى الصمت ولمحت بإشارات من عينيها أن نغير الموضوع. قالت بصوت عال:

- هل أكمل لك يا مختار قصة أمك أمينة رحمها الله وسوق النيسان؟.

تحمست فلورا لسماع الحكاية.. رغم استيعابها الناقص، بينما فقدت أنا لذة الحديث والقصص.. بدت لي سعاد مثل طفل تائه في صحراء قاحلة. تفاقمت شكوكي، وتعمقت حيرتي وشعرت بالعرق يسيل على وجهي.. وكان الضوء الباهت يعشي عيني. غزا جسدي حرٌّ مفاجئ لا يطاق.. تهت في أفكاري وانسابت الأسئلة متدافعةً متواصلة بلا أجوبة تهدئ الروح؛ لماذا

يا سعاد هربت في ليلة عرسك؟ ولماذا وافقت إذن؟ لماذا ولماذا ووو..؟ كل منافذ الاحتمال لم تشف غليل هذا الخيال القلق المتوقد. أما خالتي فواصلت حديثها وهي تنبش ذاكرتها، وواصلتُ أنا صمتي الحذر.

في تلك الأثناء كانت الأمطار الخفيفة تنقر زجاج النافذة الصغيرة. فتحت جزءا صغيرا، رائحة التراب الندي تتسلل إلى الأعماق.. نسيم البحر العذب.. الصّور تتدفق.. يعجُّ بها هذا الخيال القلق. لم أستطع أن أقاوم سلطة الأوهام التي تملكتني، فاستسلمت لمزاجي الذي احتدّ فجأة. عجزت عن سماع الحكايات. طلبت من فلورا أن نغادر. حاولَت الاعتراض، لكنها رأت في عيني ذلك الذعر القديم.. أو ذلك الخوف الذي تعرف تفاصيله جيدا.. فأذعنت بهدوء.

خارج الدار كانت الأمطار متواصلة وخفيفة، وكانت القرية تغرق في الظلام. قالت فلورا وهي تضع يدها تحت يدي:

- ماذا حصل يا مختار ليتغير مزاجك بهذه الصورة؟

بقيت صامتا.. لكني ضغطت على يدها ونحن نسير تحت الأمطار بحذر شديد. كنت أرتعش وكانت هي مشدودة ومتوجسة.. أرعبها الظلام وعواء الكلاب. قلت:

- أشعر بالخوف، لا، ليس الخوف يا فلورا، هو شيء غامض مثل الشك، مثل الذي يقف على حافة سطح لينهي وجوده في الحياة فلا يقدر، شيء يتوسط شعاع الإرادة ومخالب الهزيمة. إنني أملك الآن شعور ذلك المريض الذي يجري فحوصات طبية فيكتشف أنه يعاني مرضا خطيرا.. إنها الدهشة والخوف والأمل الرقيق المرتعش.

قالت وهي تضع يدها على خصري وتجذبني بقوة:

- أنا معك مختار.. سأحميك من الخوف بالحب.. أتفهمني؟

- لكن يا فلورا، لا أحد يحمي الآخر من ذاته.. لا أحد يستطيع.

ومضينا صامتين.

يسقطُ المطر الخفيف على الشوارع والدروب الحزينة.. يغسلها.. يطردُ طائر الموت الأسود من فوق مدخنة الفرن القديم. يسقط المطر مثقلا بالغبار.. يفرحُ الصبية.. يهللون ويصرخون من خلف الشبابيك.. لكن الحزن يتجدد باستمرار.

ثلج الصحراء

قضيت الليلة كأني أحتضر.. تتمدد صوري في الجدران العتيقة.. أرى طفلا يجري في الحقول ويتعثّر ويتمرّغ في التراب الناعم ويتدحرج على سنابل الزرع.. ثم أرى شابا يجلس تحت الشجرة ويحكي ويهمس في أذن فتاة تحب الشمس.. أرى قضبانا وزمنا توقف فجأة في غرف مقبضة.. أرى رجلا أثقلته الغربة واستبد به الحنين.. أرى شبحا يراجع ظلّه. الصبحُ الذي أنتظره منذ عشرين عاما يعاند هذه الروح الهامدة. هل غفوت قليلا أم لا..؟ هذا السياج المعقود بالحيرة يحول بيني وبين السكينة.. هذا الماضي الذي يشبه نهرا ناضبا، مفروشٌ بالخوف.. وبالتردد. كل الأفكار صارت تؤرقني، يمضي الليل بطيئا ثقيلا.. يسرق القلق لحظات الهدوء من الأعماق؛ يحوِّلها إلى سحابة خريف داكنة مقبضة. لا أتقن لعبة البهجة؛ أعرف أني من طينة الهاربين، وأني حين أمسح جدراني من أنفاسي، سوف يفترش الحزن الطريق.. إلى أين أمضي بهذا العتاب؟ العتمة شديدة.. أرى نقطة نور في قلب الظلمة، تشع وتلمع، خيوطها لزجة؛ تتقطر كأنها خيوط عسل حر. ثم تختفي النقطة.. يعود الظلام ليبتلع هذا الجسد المرهق. أشعر أني أتخلص من الأرق بعذوبة مبهمة وأنا أصفي الحساب مع ذاكرة مثقلة بالجراح..

حاصرني القلق وبدأ جبيني الساخن ينضح عرقا باردا.. وكانت يداي باردتين.. لكن بأعماقي جحيم لا يطاق.. غبار من الهواجس القديمة؛ تصحو فجأة كأنها شرارة تنذر بعاصفة قادمة. فجأة لمحت ضوء القنديل يعبر فناء البيت.. بدا وميضه الدافئ كأنه مخلص آت من بعيد؛ ملاك الفرصة الأخيرة.

تعبر جدتي الفناء مقوسة كعادتها، يداها تسبقان جسدها، يقودها النور إلى بِيت النار. تعلق القنديل وتوقد الكانون.. تشتعل الجمرات.. ثم تطفئ القنديل ثانية قبل أن يبدأ نور الصباح في التسلل ببطء.

يحمل الصباح شعورا جديدا وغامضا؛ مزيجٌ من الرغبة والرهبة.. حنينٌ إلى الأرض والتاريخ وخوفٌ من أسئلة تتناسل وتلمع في الذاكرة مثل حبات الرمال. تفيق فلورا باكرا.. ينساب شعرها على وجهها.. لا تفارق الابتسامة المبهمة شفتيها. أحسدها على مزاجها رغم كل آلامها العميقة. أتأملها وهي تجلس إلى جانبـي.. وكان جبيني حينئذ يلمع تحت السواد الذي يجثم على الجدران. قالت:

- يبدو أنك لم تنم..

- صحيح..

- لن أسألك عن السبب.. لكن يجب أن تتكلم، الآن أو فيما بعد..

صمتٌ قطعه البخار المتصاعد من البُرمَة النحاسية.. ثم صوت يهمس في أذني:

- في الصباح تُختَبر صحة النفوس يا مختار، هل هي هادئة وسعيدة أم تعيسة؟.. وجهك عابس.. كنتَ جيدا بالأمس.. هل حديث خالتك قلَّب المواجع؟

ثم نهضت بخفة وخرجت وهي تردد:

- إذا كنت تحدث نفسك فالأفضل أن أتركك تنعم بالهدوء..

وبعد دقائق خرجتُ أيضا.. لمحتها تحت شجرة جدِّي القديمة. كانت تتأمل جذعها الكبير وشقوقا يزحف في قلبها النمل. قلت لها:

- سوف أقوم بجولة وأعود..

لم ترد علي.. لكنها ابتسمت وراحت تداعب النمل وهو يحتمي بالشقوق.

كانت السحب حينئذ تجري.. تتكاثف وتصنع ظلالا رمادية غامقة. بدأ الشعور المخيف يزحف. يتصاعد إلى رأسي ثقيلا مثل سحابة نمل مذعور أو سيوف صدئة متربصة. إنه الرعب؛ مما هو آت، من المجهول المبهم كطفل تائه في صحراء غارقة في العتمة. لقد صرت أعرف نفسي جيدا؛ هذا المزاج المتقلب الحاد وهو يترنح بين الطمأنينة العابرة والخوف المرَضي.

قطعت الدروب الضيقة. وصلت إلى الحقول الخضراء الفسيحة، تنفست الحرية بإصرار وتحدٍّ لكن بدون طعم، ثم بدأ شرودي يتبعثر فجأة.. شعرت أني أكثر خفة وأنا أتأمل الزرع الأخضر المفروش. وبدأت السحب الداكنة تتفرق وبدأ قرص الشمس يطل. الأعشاب نديّةٌ نقيّةٌ والسواقي المعرجة تصنع خطوطا متقاطعة. غرستُ يدي في قعر السَّاقية.. يتدفق الماء الناصع ويتسلل بين الأصابع مثل رياح الخريف اللطيفة. أبلِّل وجهي مرات متتالية. يصير جلدي مثل قطعة خشب عتيقة. أترك قطرات الماء تتساقط على خدي، تغسل غربتي وتبدِّد سوادي، ويطير اليمام وتشقشق العصافير. يتساقط ريشه الناعم، أتابعه بعيني في سماء الحرية؛ بينما تقف العصافير على أغصان الشجر الرقيقة.. ينتابني دوارٌ خفيف.. أبطئ قليلا ثم أطرق برأسي. يأتيني صوت خالتي من الخلف مرددا "مختار.. مختار".. ألتفت منقبضا.. ألمح عينيها الفرحتين.. يعتدل مزاجي وأنا أقبل يدها العتيقة المليئة بالشقوق. تربت على كتفي وهي تردد: تذكرني بأمك الحبيبة يا ولدي.. كانت تحب الخضرة.. لكنها للأسف كانت متقلبة جدا وقلقة جدا.. لا تستمتع بأوقاتها، دائما تفكر فيما هو آت ودائما شاردة.. أنتَ تشبهها.

نمضي أنا وخالتي بين السنابل والسواقي وهي تحكي لي عن النيسان وعن خالي الحسن وعن قصة أمي وأبـي وأنا أفكر في سعاد. نصل إلى الحقل. نجلس تحت شجرة الليمون.. تتسرب أشعة الشمس الباردة بين أغصانها الشائكة.. تخترق السحب المتفرقة فتصنع ما يشبه الفسيفساء.. تلمع الأوراق الخضراء ويتولَّدُ الحنين. لكن قلبـي رغم دفء الحكايات مايزال باهتا قلقا.

شعور مبهم؛ سعادة يمزقها الخوف من المجهول.. مثل لون البحر ساعة الغروب، لا هو أزرق ولا رمادي. قلت لخالتي بنوع من التردد:

- أريد أن أعرف خالتي.. لماذا هربت سعاد ليلة عرسها؟

شردت للحظات ثم قالت:

- لا أعرف ماذا أقول يا ولدي.. القرية كلها تدرك أن البنت كانت رافضة للزواج رفضا مطلقا، وأن يونس كان مجنونا بعشقها. موافقتها كانت رد فعل على شيء ما لا نعرفه.. وهروبها أيضا كان بسبب تعرفه هي وحدها.

شعرت بالسحابة التي تمر فوقنا كأنها تمطر جمرات حارقة. لهيبٌ يشق قلبـي إلى نصفين. سألتها بلهفة:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- لاشيء ولدي.. ظلَّت في بيت خالها بتطوان شهورا طويلة لا تتكلم. بدأ القيل والقال.. يردد أحدهم أن جنّا سكنها ويهواها.. وآخر يقول إنها ربما تخاف فضيحة ما.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

تضرَّج وجهي وخفق قلبـي وبدأ القلق ينهش أطرافي:

- فضيحة..؟

- لكن هذه التخمينات السيئة لم تدم طويلا. فقد عادت سعاد بعد عام.. تعافت وتزوجت بعدما طلقها يونس، ورغم ذلك اختفت الضحكة من وجهها إلى الأبد. لم تعد سعاد تلك الفتاة المرحة التي عرفناها وأحببناها.

انطفأت نيران قلبـي.. وبدأ قرص الشمس الذي يطل علينا من بين السحب الداكنة يضيء عتمة الروح. سألت خالتي باندفاع:

- يعني أنها تزوجت؟

- للأسف يا ولدي.. تزوجت رجلا ليس من بلادنا.. كان يدعي أنه إمام.. يخطب في مسجد بقرية مجاورة لنا.. وهو لا يفرق بين الحلال والحرام. تبين فيما بعد أنه مشعوذ.. يأكل الدنيا بالدين. قضت معه عاما واحدا ثم هجرها بلا رجعة. اختفى واختفت أخباره وظلت المسكينة معلقة؛ لا هي زوجة ولا مطلقة. لا تحدث أحدا.. ترعى أمّها العجوز ثم تذهب للحقل وحيدة وتجلس تحت شجرة التين الكبيرة. تقضي معظم أوقاتها هناك على الوادي..

بقيت مستغرقا في التفكير لحظات، بدت لي سعاد مرة أخرى مثل طفل تائه في الصحراء.. تذرف دموعا وترتعش وهي تجري وحيدة وتلهث.. والصّحراء تتمدد.. ظمآنة تريد ماء.. تقف ثم تسقط ثم تقف ثانية وتجري وهي تمدد يديها. يلوح بئر من بعيد خلفه شجرة خضراء.. تصل إليه وأنفاسها تتقطع.. تطل على البئر؛ ثعبان كبير برأسين يطفو على سطح الماء ثم يغوص ثانية. يصيبها الذعر.. تجري ثانية وتسقط.. يتملكها الدوار فتغيب في العدم..

أفيق من شرودي. الطفل الصغير المذعور يطل علي من بعيد.. يسخر بنصف ابتسامة مكسورة. أقف يتنازعني الندم والقلق.. أمضي بخطوات ثقيلة بين السنابل دون أن أودع خالتي. أسمع نداءها لكني أمضي إلى الشجرة الكبيرة لأجلس تحتها وقتا طويلا أراجع فيه تفاصيل قديمة كنت أظن أنها اندثرت إلى الأبد.

كان الهواء لطيفا؛ ريحٌ خفيفة تحرك السنابل فتميل إلى الجهة الغربية.. يأتيني صوت المياه وهي تتدفق فيستثير أحزاني. لماذا يا سعاد؟ أعرف معنى أن يفقد الإنسان طاقة المرح والرغبة في الكلام.. أن ينسحب من الضجيج، مثل النورس الذي يتخلَّف عن السرب.. يحلق وحيدا ثم يقبع في ظلال التلال صامتا ينفض ريشه الناعم بحذر وخوف. أعرف كل ذلك يا سعاد، لكني لا أعرف لماذا يعذب الإنسان نفسه؟

أشعر وأنا أعصر أفكاري أن وجودي أصبح معلقا مثل الآمال

المستحيلة. أيقنت أن الحياة لا تبنى على التأجيل.. فكم من وقت ضاع، ومن أحلام، ومن ظلال سعيدة ضاعت في الطريق؟ أيقنت منذ زمن أن الهروب من مأزق ما ليس حلا، إنه يعمقه ولا يداويه، ومع ذلك هربت. قادتني خطواتي ومضيت في طريق أعرف أنها ليست هي الطريق. تهت طويلا وأنا أبحث عن السكينة. كنت موقنا أن الحل لمعضلتي هو أن أحكي قصتي.. آلامي التي تعصرني، وحدي أعيها وأعرف الخلاص؛ خلاص أتمناه لكني لا أتملكه، ليست لدي طاقة الفعل. هزمني التأجيل سنوات طويلة.. ولولا فلورا التي تحفزني لكنت أجَّلته لزمن غير معلوم.

وقفت أبحث عن ظلالي الممتدة في الخلاء.. حماس يزحف على غير العادة، رغبة جارفة في أن أمسك قلما وورقة وأنطلق بلا رجعة. لا أعرف كيف قطعت الطريق إلى البيت تتملكني رغبة في التسجيل والتدوين. شعاع من النور يخترق أعماقي ويستدعي خيالي الهش.

وصلت إلى الدار.. ودخلت بِيت النار.

تجلس فلورا على الحصيرة البالية ترشف جرعات طويلة من كأس الشاي.. تثبت عينيها في نقطة واحدة من السقف الحالك. تضع رجلا فوق الأخرى وتشرد في ألبوم صور جدتها نيفادا. أظل أتأملها بدهشة كأنها شخص غريب لا أعرفه، أو أنني أعرفها لكنها صارت بحلة جديدة؛ تعيش حالة الصفاء التي تمثلتها من خلال حكايات جدتها وأمها. كثيرا ما كنت أزعجها بحديثي عن الاستعمار وما أحدثه في بلداننا الضعيفة. كنت أعرف وجهة نظرها المناهضة له، لكنها كانت ترفض استفزازي وتراه أحد أساليبـي في الجدال العقيم. تقول: مادمنا متفقين في وجهة النظر فلماذا تكرِّر مقولات لا تولِّد سوى السأم؟ أنت تعرف أن هذا الماضي الأليم لا أملكه ولست راضية عنه، فلماذا تهوى تعذيب نفسك وتعذيب الآخرين؟ أصمت حينئذ. يدفعني حديثها لالتزام الهدوء وتفادي التوتر.. أقول لها؛ أعرف أنك غيرهم.. أنك من طينة الطيبين في هذه الدنيا.. لكنها مجرد ثرثرة يا فلورا. ما فعله الإسبان في بلداننا كان يفوق الخيال.. صحيح أنهم عمروا وبنوا وأرادوا جعل الأرض

جنة، لكنها جنة بدون طعم.. بدون فرحة. لا أحد يتنفس الحرية في قلب النار يا فلورا.. لا أحد يمكنه ذلك.

كل الكلمات تأخذ مسيرا مغايرا حين أتحدث عن الماضي، عن الاستعمار والاستقلال والاستغلال، عن الذين فقدوا، وعن أحياء عاشوا بلا أحلام، وعن القصف والإذلال.. أجد نفسي محتدا قلقا ناقما على أشياء أعرفها وأخرى ينسجها خيالي المتعب. لكن فلورا تهدئني باستمرار.. تقول لي كلما هزمني اليأس: من الأفضل أن تحكي هذا وتوثقه في كتاب أو رواية.. أما الثرثرة والجدل فلا ينفعان يا مختار.. هما يهدمان أكثر مما يبنيان.

قالت لي وهي تنتشلني من دائرة الأفكار المحتدة:

- كيف كانت رحلتك هذا الصباح؟

- جيدة.. بدأت خيوط النور تخترق الظلمة..

- ههههه جميلة هذه المجازات الصباحية.. ستجعل يومك عذبا لطيفا..

- نعم.. بدأت أعود نفسي على المجاز. هذه الأرض الصلبة وهذه الطباع العنيدة وهذا التاريخ المبهم، بحاجة لمجاز يروض التفاصيل ويعبد الطريق للحقيقة.

- لا توجد حقيقة يا مختار.. توجد قصص.. صور.. أفكار، نحن نؤمن أنها هي الحقيقة كي نواصل حياتنا بهدوء..

- أشعر أني بدأت أقترب..

أمدتني بكأس شاي وقالت:

- تبدو لي وكأنك امتلأت بالصور الموحية والجذابة..

قلت وأنا أرشف جرعات طويلة من كأس الشاي:

- أشعر أن الصور المتفرقة بدأت تتجمع.. وكأن شيئا ما يتشكل في هذا الخيال المضطرب القلق.. شيء لا أدركه بوضوح لكني أحسه..

اعتدلت فلورا وهي تجمع ظفائرها الطويلة وتعقصها ثم تعقدها بربطة حلزونية خلف رقبتها، ثم قالت بإصرار:

- النيسان يا مختار..

- ما به؟

- أريد أن أعرف التفاصيل..

بقيت أضحك بقوة ضحكا متقطعا:

- من الأفضل أن تنتظري حتى أكتب شيئا.. الكتابة غير الكلام؛ إنها تحدٍّ حقيقي.. فهي تطوي تفاصيل تولد فجأة.. وتتنزل مثل الوحي في لحظة سكون عميق وانقطاع تام. الكتابة عصية جدا.. مزاج.. أو ضربة حظ أحيانا.. لا أعرف..

- لا يا مختار.. إنها إرادة ومعاناة وعمل متواصل دؤوب. لقد جئت معك لأحفزك ولنسمع معا ونخوض التجربة معا..

- لكن ما يشغلني الآن ليس النيسان يا فلورا.. بل قصة وفاة خالي الحسن؛ إنها تراود خيالي بشدة.. لأول مرة أنتبه إلى تفاصيل وفاته.. هي شديدة الإثارة..

بعد صمت قصير قالت:

- أنت تعلم أني لم أرافقك إلى بيت خالتك، فلكي أتركها تحكي بحرية،

مادام الأمر حميميا ويتعلق بوالديك وعائلتك.. لكن هذا لا يعني ألا أشاركك رحلة البحث وتسجيل التفاصيل. أليست هي غايتنا المشتركة؟ أحد أحلامي العذبة والعملية في هذه الحياة أنا أيضا؟

جلست إلى جانبها. أمسكت يديها وربت عليهما وقبلتهما.. تطلعت إلي بدهشة وجذبتني بقوة إلى حضنها.. كان الدفء يسري بعذوبة في كياني. لمست خدها براحة يدي.. أردت أن أقول شيئا فلم أعرف.. كان صمتي شكلا من أشكال الامتنان والاعتراف.

التقطت فلورا آلة الكمان وراحت تعزف مقطوعة نيكوس "secret love" التي أحبها. وعلى وقع العزف العذب ارتشفت جرعة طويلة من الشاي البارد.. ثم التقطت قلما وورقة ورحت أكتب ما حكته خالتي.. وما اختزنته الذاكرة، وما جمعته من روايات مختلفة حول قصة خالي الحسن.

أحلام جدتي حمامة

حدث ذلك في فجر أحد أيام ربيع 1968، صحا أهل الدّار صغيرهم وكبيرهم على صرخة جدتي التي اهتزت لها القرية. ظل صداها يتردد في سكون الليل مثل دق الطبول في ليلة عرس. أعقب الصرخةَ صمتٌ حذر مثل ذلك الذي يعقب الزلازل؛ صفير رقيق يشبه صوت الرياح التي تخترق السنابل في الحقول ثم تهدأ بالتدريج فتحلُّ سكينة مفعمة بالأمل، وفجأة تهبُّ مثل عاصفة مسمومة حادة وعنيفة، تقتلع الأشجار وتقلب القوارب المرتصفة في الشاطئ. كنت حينئذ أرتجف وأنا أمسك أصابع أمي وهي تمدّها في كل اتجاه باحثة عن القنديل لتضيء الغرفة المعتمة. وخرجنا جميعا من الغرف والتقينا في الفناء وقد طار النعاس. لبس جدي جلبابه والتقط عصاه وأمسك قلَّة الماء وناولها لجدتي وهي تلهث وتحدِّق في الفراغ.

روت جدتي بصوت متقطع يرتجف، أنها رأت في المنام ابنها الحسن يشرب بلهفة من بئر عميق، وفجأة سقط فيه بعد دوار مفاجئ. ظلت تلهث وهي تحكي ثم أغمي عليها كعادتها في لحظات الشِّدة. بينما خالتي رحمة تعصِّر

ليمونة وتقطرها على أنفها وفمها.. تفيق جدتي ثانية وهي تتخبّط مثل خطّاف في قفص زجاجي وتردِّد "أريد ابني الحسن.. أريد ابني الحسن". هي ترتعش وأنا ملتصق في جسد أمي غير قادر على الاستيعاب. كان الشعور الذي تملّكني حينئذ هو الخوف.

بلغنا في تلك الأيام أن خالي الحسن راقد في الفراش منذ أسبوع ولا يقوى على الحركة بعد نزلة برد حادة ألمت به. كان طالب علم يتابع دراسته في قرية "بوأحمد". نزل عند الفقيه العلامة العياشي أعراب في مجلسه بمدرسة "تالدمان" الشهيرة. وكان جدي الذي يحبّه يعوِّل عليه أن يصير فقيها كبيرا لما يتميز به من سرعة الحفظ والبديهة. وإلى جانب حبه للعلم كان ذا بنية جسدية قوية يهوى المصارعة ولا أحد يستطيع إسقاطه أرضا.

شعر جدي بالقلق على ابنه. ظل يراوح مكانه ويتمتم بعد صرخة جدتي المدوية. وحين طلعت الشمس، طلب من ابنه محمد أن يذهب بقاربه عبر البحر إلى "بوأحمد" وينقل أخاه المريض. أصرّت جدتي على مرافقته. رفض جدي اقتراحها. لكن لأول مرة تنتصر جدتي لإرادتها.

وهاهي تصعد القارب في صباح هادئ وصاف وحار. أما خالي الحاج محمد فيسيّر القارب بمجذافين خشبيين والعرق يسيل مثل اللعاب. تسترجع جدتي شريط الصور في لمحة وهي تتأمل زرقة البحر وتحتمي بشاشية من لفحة الشمس؛ تتذكر ابنها الأصغر الحسن وقد دخل الكتاب في قرية خنوبة، أتقن حفظ القرآن متنا ورسما وقراءات ورواية. ثم انتقل إلى المدارس في القرى المجاورة؛ مدرسة تغسة العتيقة ثم مدرسة "تالدمان" في قرية "بوأحمد". كان أملها كبيرا أن يتخرج ابنها فقيها عالما.. أما جدي فكان أكثر حرصا على تعليمه والإنفاق عليه. وكان يمنعه من النزول إلى الحقل أو البحر. يقول له "اسمع يا بني.. لا تشغل نفسك بأي شيء إلا العلم.. هذه نصيحتي لك". وفيما بعد قال لي خالي الحاج محمد بنغمة ساخرة تمزج العتاب بالأسى بالتحسر" نحن كنا نتعب ونعمل صباحا ومساء ليقرأ خالك الحسن.. كل ما نجمعه نحن يأخذه هو".

لكن خالي الحسن نزل ليسبح في الوادي يوم العطلة وكان الحرّ لا يطاق. صارع رفاقه من طلاب العلم بتالدمان وأسقطهم واحدا واحدا على الأرض، بقي يلهث ويضحك بنغمة ظافرة مستفزة ثم ارتمى في الوادي.

في ذلك المساء شعر بألم في صدره صاحبه غثيان وضيق في التنفس. عرقٌ شديد ودوخة لازمته لأسبوع. ظل طريح الفراش في غرفته الصغيرة وقد انتشرت حوله الكتب والمجلدات على الحصيرة البالية. اعتنى به الطلاب وبعض الأهالي، لكن كل المحاولات لم تنفع؛ لا العسل الحر نفع ولا الليمون البلدي ولا زيت الزيتون الساخن. تفاقم إحساسه بالتعب والضيق الشديدين. يظل يتمتم بهدوء ويردد الأدعية وهو يحمل المصحف ويضعه على صدره ويغيب.

يجذف خالي الحاج محمد القارب ضد التيار الآتي من الغرب. يشمِّر ساعديه ويضع قدمه اليمنى على قطعة الخشب المقابلة له ويدفع يديه بقوة فيمضي القارب بسرعة. تشتدُّ الشمس وتلقي لهيبها بينما جدتي سارحة قلقة تلملم بقايا صرختها الأخيرة. تملَّكها القلق الشديد على مصير ابنها، ترفع بين حين وآخر عينيها إلى الشمس فتشعر بالدوار ثم تطرق ثانية وتغوص في زرقة البحر غير آبهة بالسمك الذي يقفز ولا النوارس التي تتبع القارب.

وصلت جدتي إلى شاطئ "بوأحمد". قطعت مسافة طويلة إلى بيت خالي الحسن بلهفة. كان البيت مكتظا بطلاب العلم الوافدين من كل القرى المجاورة. دخلت الغرفة. تسللت إلى أنفها رائحة عطرة؛ نسيم ابنها الغالي. اقتربت منه. كان مغمض العينين يتنفس بصعوبة وألم. وجهه أصفر يميل للزرقة.. بارد اليدين لا قطرة دم تجري في عروقه. ربّتت جدتي براحة كفها على جبينه وقبّلت يده وهي تتطلع إلى عينيه الذابلتين، ثم حشرت رأسها في صدره. شريط الصور يمر أمامها مثل الطيف؛ ضحكته المدوية.. تباهيه بساعده المفتول.. ترتيله للقرآن بصوته الخاشع.. أحلامه أن يتابع الدراسة في القرويين بفاس ثم الأزهر بمصر. تلك اللّمعة في العينين وقد انطفأت فجأة مثل نار الحطب التي تخمدها أمطار الخريف المفاجئة. أمسكت يديه الاثنتين

وضغطت عليهما وهي تردد بصوت خافت مبحوح "ولدي الحبيب.. ربنا يشفيك يا الحبيب.. ربنا يشفيك". يفتح عينيه فتحة رقيقة فيتسلل ضوء النهار إلى قلبه المنهك. يرى وجه أمه الحبيبة.. يحرك شفتيه اليابستين ويتمتم ويتنهد بقوة ثم يغمض عينيه ثانية. تشعر جدتي أن عروقه النابضة صارت مثل الثلج.. يراودها الكابوس ثانية وهي ترى ابنها يسقط في البئر. تلتفت إليه بحنين صامت هذه المرة. يدخل الفقيه الغرفة.. يتلمس قلب الحسن وقد توقف نبضه، ثم يرفع عينيه إلى جدتي وإلى زملائه وهم يحبسون الدموع.. يمرر يده على عينيه ويغمضهما بهدوء ثم يفرد له ذراعيه في خط مستقيم ومواز لجسده.. يقبِّله جهة الشرق وهو يردد بصوت قوي "اللهم ارحمه.. اللهم اغفر له.. اللهم ثَبّته على الحق". يردد خالي الحاج محمد "اللهم ارحمه واغفر له". لكن جدتي التي تراجعت إلى الخلف بصعوبة ظلت تركز عينيها في عينيه المغمضتين وهي ترتعش وتئن. ثم التقط الفقيه غطاء أبيض ووضعه على جسد الحسن وراح يتلو ما تيسر من الذكر والأدعية.

حُمل جسد خالي الحسن على محمل خشبـي طويل. واتجه الموكب عبر الحقول ناحية البحر. لم تقو جدتي على المشي فحُملت على البغل وهي تتبع الرجال وهم يمضون في صمت.

وضع المحمل على القارب وتم لفه بحبل. جلست جدتي إلى جانب ابنها الحسن وراحت تردد سورا من القرآن.. قلبها بارد وعيناها غائمتان. كانت العودة إلى أمتار أقل عناء. ساعد التيار المائي القارب على الإبحار بليونة. يجذف خالي الحاج محمد بقوة وهو يردد الأدعية، بينما جدتي تتوقف عن الذكر وترفع عينيها إلى السماء وتردد الدعوات. السماء الصافية انتشرت في أطرافها سحب متفرقة. تبلِّل جدتي يدها في مياه البحر الباردة وتغسل فمها الجاف. ثم ترمي عينيها في زرقة البحر وهي تسترجع شريط الصور والأحلام.

بلغ القارب ساحل أمتار. وعند الشاطئ تجمّع أهل القرية رجالا ونساء، بينما تتدافع وتصيح في الجهة الشرقية أسراب من النوارس الهائجة. كنت أقف

إلى جانب جدي.. يحمل عصاه ولا يتكلم. بل أمعن في القارب وهو يقترب من الشطّ بعينين قلقتين. وحين لمح جسدا مسجى بثوب أبيض أدرك الحقيقة. غرس أصابعه في شعري وجذبني إليه وقبلني بقوة وتمتم بصوت متقطع كلمات غير مفهومة.

كانت السحب حينئذ تتكاثف في السماء وتغطي قرص الشمس بينما تواصلت الزغاريد في أرجاء البحر ممتزجة بدموع الفراق.

شجرة التين

صدح الآذان في أرجاء القرية بعد صلاة المغرب بدقائق. واخترق الصمتَ خارجَ البيت صياحُ الأهالي وهم يهرولون. خرجت جدتي حمامة التي كانت تستعد للنوم من غرفتها وهي تردد:

- اللهم أسمعنا خيرا.. ربما توفي خالي المفضل الراقد في الفراش منذ أسابيع..

- من تقصدين جدتي؟

- ألا تتذكره؟.. خالي الذي سقانا الماء لسنوات قبل أن نحفر بئرنا..

- آه.. تذكرته..

التفت إلى فلورا وطلبت منها أن تسجل في دفتري اسم "الساقي المفضل"، ثم قلت لجدتي:

- كنت سأنسى الرجل.. "خالي المفضل" هو أيضا أحد مفاتيح هذه الأرض..

لكن جدتي ظلت تنظر إلي بدهشة. لم تفهم شيئا فواصلت دعاءها. بينما تسللت إلى الخارج. كان الشباب يجرون على غير عادتهم ويصرخون:

- عباس مات.. عباس مااااااات.. قتله يونس..

وظل صدى الصراخ يتردد في سماء القرية يحمل رهبة وذعرا إلى النفوس. كانت الشمس قد مالت وراء التلال البعيدة مخلفة حمرة باهتة صنعت خطا رقيقا ممزوجا بضباب غامق ثقيل يتصاعد من الأقاصي؛ عند نقطة التقاء البحر بالسماء.

كانت السماء حينئذ قريبة جدا..

أسرعت قليلا بين الدروب أستطلع الخبر.. ثم أوقفت شابا وسألته عما يحدث فقال بأنفاس تتقطع:

- سمعنا أن يونس ولد القادرة قتل عباس..

تسمرت في مكاني شاردا مذهولا أكرر السؤال مرات: يونس ابن خالتي يقتل؟

وكان نباح الكلاب يأتي من بعيد ويتردد صداه في قلب الصمت والسكينة المخيفة. لم أفهم ما يحدث فخطوت مثقلا بالدهشة أتبع الناس وهم يجرون ويصرخون. وعند باب منزل خالتي رحمة، كانت الأضواء مطفأة والسكون ملأ الدرب. لم أستطع أن أطرق البيت، عجزت عن الكلام فلزمت الصمت.

عند الباب الخلفي للمقهى اجتمع الأهالي حول الجثة متدافعين. لم أستطع الاقتراب، أي متعة تحققها رؤية شخص تسيل دماؤه على الطريق؟ تمتمت وأنا أنسحب بصمت.

وكان الضجيج يملأ المكان المحشور بالأطفال والشباب.. بينما أقف أنا عند زاوية الساحة أراقب من بعيد حركة الناس.. كان إلى جانبـي بعض الشبان، سألتهم عما يحدث كأني أجهل الواقعة، فقالوا إن يونس "ولد القادرة" قتل عباس ثم هرب عبر الوادي إلى القمم البعيدة. وحين سألتهم عن سبب القتل

بدأت التكهنات تتوالد والحكايات تتفرع. قال أحدهم إن بين الجاني والضحية حسابات قديمة، ويقول آخر إن الحشيش هو السبب؛ حيث رفض الضحية أن يبيع للجاني قطعة حشيش، بينما يؤكد آخر أنهما صديقان وليس بينهما أي خلاف.. وأن يونس يعاني زمنا طويلا اضطرابات نفسية حادة.. في حين قال آخر إن يونس يتعاطى نوعا جديدا من المخدرات نبتتها مستوردة من باكستان تسمى "خردالة"؛ تحدث حالات غير طبيعية وأوهاما في عقل الإنسان، وهي السبب في فقدان كثير من شباب القرية صوابهم وإصابتهم بالجنون. ويونس كما يعرف الجميع يشرب أدوية كثيرة، وقد يكون تفاعل الحشيش مع الدواء دافعا لارتكابه الجريمة دون وعي.. أكيد هو أمر يفوق إرادته.. يونس يقتل؟ لا يمكن أبدا.. من يصدق هذا؟

ليل القرية مخيف يثير الذعر في النفوس. هكذا تمتمت وأنا أنسحب مذهولا من زاوية الساحة إلى مقهى جانبـي صغير لأستريح من الصدمة.

الأضواء المنبعثة من أعمدة الإنارة المتهالكة باهتة وشاحبة مثل الموت. صراخ الأطفال حاد ومزعج. عند جذع الشجرة زوجة عباس وقد صارت مثل قطعة صنم.. تمسك طفلها الصغير الذي يئن بكفيها وتقبله في جبينه ورأسه ولا تبكي أو تنتحب. يتصاعد الصراخ المثقل بالألم ويغطي سماء القرية. أنين الطفل يتردد صداه في عقلي المتعب تزيد من وطأته رائحة الحشيش التي تملأ المكان؛ ووجوه عابسة خشنة مجردة من الأحاسيس. جاءت سيارة الإسعاف تنشر أضواءها الساطعة في الفضاء المعتم. حملت الضحية وأسرعت مخلفة وراءها صفيرا مدويا يختفي رويدا رويدا..

يجثم الصمت على القرية. دخان سجائر الحشيش والسبسي أشعرني بالدوار.. باختناق لا مثيل له. وقفت بصعوبة وخطوت قاصدا بيت خالتي رحمة. كنت أعرف أني لا أملك طاقة للمواساة ولا كلمات تخفف الوجع.. لكن الضرورة اقتضت ذلك.

عند باب الدار معظم نساء القرية اجتمعن في حلقات دائرية. شعرت

بالخجل وأنا أقتحم الدار صامتا. وجدت خالتي جالسة عند زاوية الصالة تطل من النافذة تترقب السماء إلى جانبها مريم. أردت أن أقول شيئا يخفف آلامها فلم أعرف. أمسكت يدها وربت عليها وأنا أقول:

- لا أحد يعرف ماذا حدث خالتي.. لا تزعجي نفسك.. سوف تكون الأمور على ما يرام. يونس يعاني وما فعله خارج عن إرادته..

ضغطت على يدي وهي تتمتم بارتعاش:

- يونس انتهى منذ زمن يا ولدي، منذ قرر أن يوسع حفرته كل يوم.. هو يحصد ما زرعه. يونس لن يعود.. صدقني لن يعود..

أجهشت مريم. ملأت الدموع الكحلية وجهها.. بينما أردفت خالتي:

- يونس لم يغرس الشجر ولم يرو الأرض يا بني.. وكل ما فعله في حياته كان عكس الطريق..

لم أملك القدرة على مواساتها، أو التخفيف من آلامها.. انسحبت إلى خارج الدار مخلفا ورائي همهمات نساء وزعيق أطفال؛ جوٌّ من الكآبة لا يطاق.

وعند النافذة وقفت أتأمل خالتي وهي تتطلع إلى النجوم البعيدة وتردد الدعوات.. بدت لي وكأنها شاخت فجأة.

خطوت مثقلا بالخوف؛ لازمتني صورة زوجة عباس وأنا أمد خطواتي التائهة إلى البيت. وعند الباب وجدت جدتي متسمرة إلى جانبها فلورا تمسك بيدها وهي ترتعش. ماذا أقول لها؟ حفيدها قتل وهرب إلى الجبال البعيدة؟ أواسيها بكلمات أشعر أني لا أملكها.. أم أكتفي بالصمت؟

سألتني جدتي:

- صحيح يونس قتل وهرب كما سمعت؟.. أخبرني يا ولدي.

ربت بيدي على رأسها وأنا أقول:

- صحيح جدتي. لكن، أرجوك.. لا تقلقي.

بقيت تردد وهي تدخل بِيت النار وتجلس على الحصيرة:

- يا الله... يا الله.. اللهم الطف بنا.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم واصلت وهي تتشنج:

- عماه العشق وقتل قلبه..

صمت رهيب أعقبه صوتها وهو يئن:

- عماه العشق وقتل قلبه يا ولدي.. عماه العشق.. يا الله..

ساد الفضاءَ ثانية صمتٌ ممزوج بالرهبة.. أصداء النهاية تتردد في بِيت النار.. نور الفتيلة الباهت لا يضيء كل البيت؛ ظلالٌ رمادية داكنة تتراقص على الجدران.. السواد ينثر أجنحته وأنا أشعر أن أجنحتي مقصوصة وعقلي مرهق. أتساءل في صمت: أأكون سببا فيما يحدث ليونس؟ أليس الحب هو الذي دمّره؟ ألم تفتح سعاد قلبها لي حين أوهمتُها ذات يوم أن قلبـي يزهر كلما أراها؟ ألم أقل لها إن جنتي الجديدة هي شجرة التين الظليلة؟ وها أنذا بعد كل هذه السنوات أعيش في الظلال البعيدة أبحث عن الطمأنينة. أحاول أن أنظر إلى حياتي الماضية نظرةً خالية من القلق فلا أعرف؛ شيء عميق يهزمني من الداخل.. زورقٌ تائه بلا مجدافين.. تملأه الثقوب وينتظر أن يهوي إلى القاع ليرتاح من وجع المقاومة.

تجتاحني الصور وأنا مستغرق في الشرود ترتسمُ سخريةٌ مريرة على وجهي.. أحاول أن أبحث عن الطمأنينة المفقودة. صورٌ مذعورة ضبابية مثل

الضحك الناتج عن الخوف. كانت نبضات قلبـي ترتفع.. وفجأة تخيلت نفسي في مركب أسود رقيق وسط أمواج عاتية ورياح هوجاء.. والسماء ممطرة.. ومن شدة الخوف بدأ جسمي يتحلَّل.. بدون ألم. قطعت جدتي هواجسي:

- هل حكت لك خالتك يا مختار ماذا حدث ليونس ليلة عرسه؟

واصلت شرودي قليلا:

- نعم جدتي.. حكت لي عن هروب سعاد.. حكت لي قصتها.

سألتني:

- وهل حكت ماذا فعل يونس في تلك الليلة؟

رفعت عيني إليها غائما.

- كاد يونس يوم عرسه أن يطير فرحا ونشاطا.. تملأ السعادة عينيه مثل طفل صغير مقبل على الحياة وهو يدعو أهل القرية لحضور العرس. أنفق كل ما لديه من أجل أن يسعد العروس التي هواها بجنون. وعندما سقط الظلام، انتشر في القرية خبر هروب سعاد واختفائها. لم يصدق يونس ما يتداوله الأهل. ذهب إلى بيتها وظل يصرخ كالمجنون.. يناديها بقوة في الدروب والحقول.. وحين أيقن صحة الإشاعة لزم الصمت. بينما فكرت خالتك رحمة في شيء آخر هي وخالتك حبيبة رحمها الله. كان صدّيق ابن خالتك حبيبة على وشك الزواج من إحدى بنات القرية، وكانت في ذلك اليوم مثل باقي بناتنا يساعدن في الترتيب للعرس. اقترحت ابنتي رحمة أن يتزوج صدِّيق خطيبته في تلك الليلة ووافقت حبيبة مؤازِرةً أختَها. أتذكر أنني في ذلك اليوم، ذهبت إلى الفتاة وكانت حينئذ تعجن الخبز وتحمِّي الفرن. سحبتها من يدها إلى غرفتي. لم تمض إلا ساعة حتى كانت العروس الجديدة تلبس ثيابها وتجلس في الصالة وقد اجتمعت حولها بنات القرية يرقصن ويغنين. أما يونس فظل خارج البيت غائبا عن الدنيا. لكنه فعل شيئا محيرا لا يخطر على بال. التقط مزمارا

من يد أحد عازفي الغيطة الجبلية وراح يزمر ويرقص. ننظر إليه من النوافذ بذهول ودهشة بينما يواصل رقصه بخشوع. يتمايل ويفتح يديه.. يشرعهما بقوة كأنه طائر يحلق عاليا.. يرفع رأسه إلى فوق ويدور حول نفسه مرات متتالية.. عرق يتصبب من جبينه وهو يواصل نظراته الشاردة. وحين انتهى العرس، اختفى عن الأنظار. قيل لنا فيما بعد إنه قضى ليلته في الحقل تحت شجرة التين الكبيرة. طلع عليه نور الفجر وهو ممدد على الأرض الصلبة.. رآه بعض الأهل فأخبروا خالتك رحمة.

قضيت الليلة في حضن فلورا أرتجف. أتكوَّر مثل جنين.. أغمض عيني في قلب الظلمة فأرى طيف أشباح وأرى جسدا يطير عاليا ملفوفا في ثوب أسود ثم يسقط فجأة ويرتطم بالأرض الصلبة. أضغط على عيني كي أنسى الصور الكريهة.. تطاردني كالظل. أتقلب في الفراش وأتنهد.. أضع يدي بين ركبتي وأجمعهما إلى صدري في مواجهة الجدار. وفجأة أدخل عالما جديدا صار جزءا مني؛ ذلك العالم المشكل من كلمات مثل الأزل والموت واللاطمأنينة والخوف والتلاشي. هل يمكن للإنسان أن يتلاشى فجأة دون أن يتعذب.. دون أن يذوق ألم الرحيل؟ كانت الحياة تبدو لي مثل خندق طويل مظلم ودائري.. أدخله مقوسا ألهث وأجري وهو يمتد ويمتد مثل أفعى أسطورية من الزمن البعيد.. وفجأة أتوقف في قلب الخندق ألتفت ورائي.. ثعابين كثيرة تزحف وأنا أرتعب. وفجأة رعف أنفي دما أسود.. رعبٌ شديد جعلني أضغط بيدي على يد فلورا وأنا أردد: هاأنذا أنتظرك أيها الشبح اللعين.. نصفي الآخر الذي عاش في الظل ويرهقني. أنتظرك وماذا بعد؟

حضنتني فلورا بقوة وربتت بأصابعها على عمودي الفقري.. سرت رعشة عميقة ودبيب خفي. كانت تعي جيدا هذه الحالة التي تلازمني.. تقول لي لا تخف يا مختار، أنا معك. تغرس أصابعها في شَعري.. تدعك رأسي جيدا ثم تمرر راحة يدها على ظهري، ثم تجذبني بقوة إلى صدرها وتقبلني في شفتي وجبيني وتلتقط يدي وتشم رائحتي بعمق.. تطرد الخوف الذي يحيطني.. حينئذ يصيح الجنين وهو يفتح عينيه في قلب الظلمة ويلمحُ طيفَ نور قصي.

أهدأ وأنا أسلم نفسي لها كالعادة.. أتذكر كلماتها عن صناعة البهجة. تتقاذفني الأفكار المتناقضة.. أستسلم لذلك السحر الذي نفثَته في جسدي منذ عرفَت الطريق إلى مزاجي الهش.

كنت أعرف قيمة امرأة مثلها إلى جانبـي؛ تواسيني وتنتشلني من السأم وتنفث في روح البقاء. امرأة من طينة العارفين بأسرار الإنسان.. تشبه ملاك الفرصة الأخيرة.

حين خرجت من النفق المعتم، شعرت أن الظلام يتلاشى بهدوء ويحل محله نوع من السكون المبهم، والمفعم بالسكينة الجامدة المؤقتة، مثل صيحات الجنائز وزغاريدها؛ تلك التي تتراوح بين اليأس والرضا.

ثم ضحكت وقد دمعت عيناها وهي تواصل دعك جسدي بأناملها الرطبة. بينما جذبتها بقوة إلي وأنا أتلمس في حضنها دفء العالم وغفوت.

لا أدري المدة التي استغرقتها في النوم. لكني أفقت على صمت رهيب تغرق فيه القرية. أخبرتني فلورا أن جدتي ذهبت إلى بيت خالتي رحمة. كان الذهول مايزال يحيط بـي بعد ليلة رهيبة. ثقل شديد في رأسي يصاحبه صداع وضجيج وأصوات مجنونة.. صورة الطفل وهو يئن لا تفارق خيالي المشوش. التقطت قرصا من حقيبتي لكن فلورا انتشلته من أصابعي ورمته بعيدا وهي تردد:

- لا داعي له يا مختار.. لقد اتفقنا، أليس كذلك؟

ثم التقطت باقي العلبة وانسحبت بسرعة من الغرفة.

لا أتذكر من ليلتي سوى أن مزاجي تعكَّر فجأة؛ مزاجي المعجون بالأحلام والإخفاقات، سليل هذه الجغرافيا العنيدة والجينات العليلة المتوارثة. كثيرا ما قرَّرت أني سأبدأ من جديد بلا خوف ولا تردد؛ سأكسر صخرة الأرق القديم وأنطلق حرا مثل الناي.. أحمل معي تقاسيم عالم جديد ناصع البياض..

لكني أخفق في النهاية.. دائرة تيه تحملني ثم تقذفني بعيدا..

لكني أتذكر أني حين أغمضت عيني مستسلما في النهاية لحضن فلورا ودفئها، ارتسمت في خيالي كل الصور البعيدة الشاردة؛ شجرة التين الكبيرة.. جدتي وهي ترفرف بثوبها الأبيض الناصع.. طفل يئن عند زاوية بيتنا القديم. دنيا باردة باهتة بلا أجنحة. وحين قررت أن أطرد الخوف من مخيلتي، لم أعرف؛ كنت فقدت آخر عناقيد اليقين في عالمي الذي يسوده الرعب. استسلمت للنوم في حضنها كعادتي موهما نفسي أني سأبدأ من جديد.

في الصباح حين أخبرتني فلورا أن جدتي خرجت. قلت لها:

- أليس غريبا أن تخرج جدتي من بيتها بعد كل هذه السنوات من العزلة؟

لم تجبني فواصلت أسئلتي:

- ما مصير يونس؟ هل سيتحمل العراء والجوع وقساوة الجبال؟

قالت:

- من الأفضل أن نذهب إلى بيت خالتك لنعرف ماذا يحدث.. الأسئلة لا تنفع.

وفي طريقنا قالت فلورا:

- يبدو يا مختار أن غيابك الطويل راكم أحداثا كثيرة.. نحن في مَهمَّة محددة والوقت يضيع للأسف في مشكلات بلا معنى.. ويبدو أنها لن تنتهي، بل ستتفاقم وتتشعب. مثل هذه التفاهات تجعلك تفقد يقينك في الحياة.. وأنت لا تتحمل.

التفت إليها فاقدا الرغبة في الجدل العقيم وقلت:

- هذه خالتي يا فلورا وليست تفاهات.. أتفهمين؟

أرادت أن تقول شيئا.. أن تواصل الجدل العقيم، لكنها لمحت غضبا حقيقيا يطلُّ من عيني فتوقفت. تابعتُ بنبرة خالية من الرّقة:

- صحيح أننا في مَهمَّة.. أو هي بالنسبة إليك مهمَّة. لكن حياتي كلها ضاعت أيضا في مهام كثيرة بلا معنى.. وبلا نتيجة. على الأقل، أعوِّض غيابـي الطويل وغير المبرَّر بقليل من المشاركة الإنسانية..

ظلت صامتة فواصلنا المسير إلى بيت خالتي دون حديث.

في الطريق كنت أتلمس غبار الموت؛ حين تختفي صفحة البحر خلف البيوت الرقيقة العالية وبين الدروب المعرجة؛ تلوح الكلاب الهزيلة وتنتشر رائحة الدم والأزبال.. ركام الحجارة والحديد والآجور في كل مكان كأن القرية سيعاد تشييدها من جديد؛ كل ذلك يبعث في روحي دنيا مجهولة مقبضة خالية من الأحاسيس العذبة.. مليئة ببرودة الوحشة والتوجس من الأشياء الطارئة أو المحفورة في الذاكرة. تلمح فلورا انقباضي.. تضغط على يدي بقوة، عرقٌ لزج يتصبب من جبيني. أشعر بالذعر.. بذعر حقيقي..

عند باب بيت خالتي وجدت رجالا ونساء وأطفالا.. صمتٌ يجثم على القرية كلها. صمتٌ مشوب برهبة شديدة.. لم يقطعه سوى بكاء مريم ونحيبها..

وجاء الخبر كالصاعقة هذه المرة.. انتحر يونس.. وجدوه معلقا في شجرة رابضة عند رأس الجبل المطل على مدشر "دار مزديو".

تصلبت فجأة. توقف الدم عن السريان في جسدي المثقل بالخوف وبموروث من الألم والوساوس. لم أعد أتطلع إلى أحد.. لم تعد خالتي تهمني ولا جدتي ولا أنين مريم وهي تنتحب. لم يعد العالم يعني شيئا وأنا أرتجف. كم كانت هذه الكلمة قاسية وأنا أتلقفها مثل كائن مجروح قضى فترة النقاهة ولا يتحمل سماع كلمة موت أو فقدان. كانت قاسية بالفعل علي وأنا أتأمل وجوه

نساء مشقوقة ومحفورة لفحتها الشمس الحارقة وسنوات الشقاء. أتأملها وأنا أتصبب عرقا باردا.. ولا أدري إن كنت أشعر بوجودي في هذا العالم أم لا. كانت نظراتي جامدةً مثل حائط متصلِّب؛ كريهةً تنطق بذعر ممزوج بالشك. شعرت أني أنزف وأنا أسمع همهمات غير مفهومة وكلمات تتكرر متداخلة ومتشابكة مثل خيوط العنكبوت "لا حول ولا قوة إلا بالله.. اللهم اغفر له.. لا حول ولا قوة إلا بالله"..

في تلك اللحظات اخترقت سيارة نقل الموتى جموع الناس المزدحمة في الدرب وهي تحمل جسدا قرر أن يرحل إلى الأبد.

كنت ما أزال متصلبا أبحث عن سكينة أعرف أنها مفقودة. تثور الأسئلة من جديد: لماذا عدت يا مختار؟ الآلام تتراكم دفعة واحدة وأنت لا تملك يقين الخلاص.. عد من حيث أتيت. رفعت عيني إلى فلورا. لمحت في وجهي بؤس السنوات وظلالا مخيفة. سحبتني بهدوء خلفها فاستجبت مثل طفل فقد إرادة القرار.

وعند حافة الشاطئ جلسنا صامتين.

الشمس ساطعة. فلورا ترمي حجارات صغيرة على الموج الهادئ. ثم تشبك يديها في ذراعي.. تريد أن تهبني حرارتها.. أو تريد أن تنتشلني من السأم. لكن برودة مبهمة تنفذ إلى أعماقي رغم الأشعة الكثيفة التي تضيء تفاصيل المكان. راحت فلورا تغني بالإسبانية أغنية من الموروث الشعبي القديم. كنت أعرف أنها تريد أن تكسر دهشتي أو ذعري.. وكنت أعرف أيضا أن حالة التسمم التي أعيشها خارجة عن إرادتي، لأني لم أكن أستطيع أن أحيا خارج حياة معذَّبة. قالت وهي ترمي حجارة وتضغط على ذراعي:

- أعرف أنك تحب أم كلثوم.. لكني لا أستطيع.. اعذرني مختار..

في هذه اللحظة كانت أفكاري متجمدة ولا طاقة لدي للمرح. لكن فلورا لا تستسلم.. كانت تملك صبرا نادرا:

- أمامك طريقان يا مختار؛ أن تنعزل وتطفئ أضواء الحياة وتعذب نفسك بالأسئلة التي لا تنتهي، وتداوم أقراصا مهدئة قد تضاعف شعورك بالألم، أو أن تفرغ شحنة الإبداع بداخلك، أقصد أن تحوِّل كل الأحزان إلى محرك قوي في حياتك لتنتج عملا جميلا ينقذك من التيه. ألم تكن تردد دوما إن الكتابة هي الحل الأمثل للقضاء على الكآبة؟

رفعت عيني إلى الشمس الحارقة. لم أتحمل لهيبها فاحتميت بكفي. شعرت أن كلمات فلورا تنتشلني من التيه وتحرك بداخلي نبضا مفقودا للحياة التي أتمناها.

- هل أستطيع؟

- طبعا.. يجب أن تستثمر هذا الأرق الملازم لك في الكتابة. هي علاجك الوحيد.. لا أقراص ولا جدل ولا ندم سينفع يا مختار.. وحدها الكتابة الصادقة ستجعلك تولد من جديد..

وضعت رأسها على كتفي وهي تدندن بصوت خافت ثم همست:

- سنولد معا يا مختار.. تحت هذه الشمس.. آن الأوان..

لا أدري ماذا حصل بعد ذلك.. كيف خطوت إلى الوادي بحافز النوم.. وكيف قادتني رغبة ساحرة في الجلوس تحت شجرة التين والانقطاع تماما عن العالم. مضت ساعات كأنها اختُلسَت من الزمن وألقت بـي في غياهب الشك والتردد. لم أحضر الجنازة؛ عجزت عن مواجهة الموت والرحيل.. أعرف أني لا أملك شجاعة المواجهة؛ لكني أعمل بالحكمة التي تقول إن الإنسان لابد أن يتكيف مع علله كي يعيش. يجب أن أوصد أي باب يأتي منه الريح.

تطلعت إلى شجرة التين الظليلة من بعيد.. أوراقها خضراء يافعة ولامعة تحت أشعة الغروب. محيطها نظيف والحقول ممتدة تواجه البنايات التي تزحف بسرعة. تملكتني رغبة في مواصلة النوم تحت الشجرة لساعات

أخرى أتخلص فيها من عللي. أنفض ذكرياتي الحزينة وأتطلع إلى غد جميل كما تقول فلورا.. أنا على يقين أن الحياة تعاش مرة واحدة ويجب استثمار اللحظات الجميلة في دنيانا. أعرف كل ذلك لكني أخفق باستمرار؛ تهزمني طباعي العنيدة فأستسلم للاحتداد والسأم وأغلق أبواب الحياة.

على بعد خطوات من شجرة التين توقفت. امرأة أخذت مكاني وجلست متكئة على جذعها المستدير المشقوق.. امرأة شاردة بين الوجود والعدم. وفي اللحظة التي قررت فيها أن أستدير عائدا إلى البيت، شيء أثار انتباهي وجعلني أتصلب كأرنب تحت الضوء. هذه الملامح أعرفها.. هذه النظرة المثقلة بالحزن؛ نظرة تشبه طفلا تاه في صحراء قاحلة.. أليست سعاد؟ أردت أن أقول شيئا.. تجمدت دمائي وشعرت بدوار صغير ناعم وبرغبة في الكلام؛ لكني لم أقو على قول شيء.. خانتني العبارات. وقفت المرأة وهي تنفض ثوبها الذي علقت به الحشائش الصغيرة.. رمقتني بنصف نظرة باهتة؛ نصف نظرة كانت كافية لتؤكد لي أنها هي سعاد.

الطفلة التي كنت ألعب معها في القرية وعمري لا يتجاوز عشر سنوات، شاخت فجأة. جفَّت تلك المياه التي كانت تجري في وجنتيها، وانتشرت خطوطٌ عريضة في تقاسيم وجهها. اختفت الطراوة.. وتبدَّد ذلك البريق الباهت لابتسامة متعبة مع غروب الشمس.

لم تتطلع إلي بعد عقدين من الفراق. شيءٌ منكسر في أعماق نظرتها البعيدة. أرقٌ يلازمها أو هي علَّة الزمان الجريح. أردت أن أقول شيئا.. وأرادت هي أن ترفع عينيها اللتين تلقيان باللوم، أو هكذا خيِّل إلي، لكنها واصلت المسير دون أن تلتفت، ودون أن تؤكد لهذا القلب العليل، أنها هي تلك الطفلة المنشرحة التي كانت تشبه الشمس.

عش العصافير

أشرقت في ذهني أفكار كثيرة. طاقةُ حلم جديدة تملكتها وأنا أعود للبيت بعد يوم مثير. لكن ما أثار دهشتي بحق؛ أن صورة سعاد لم ترافقني خلال عودتي.. ولا يونس الراقد جسده في التراب. تبخرت أحداث اليوم المثيرة وذابت مثل كل الأوهام في حياتنا. وكنت أتساءل وأنا أراقب طباعي التي لا أعيها، هل كان ذلك حقيقة أم خيالا نسجتُه كي أفرغ هواجسي القديمة؟ لا أعرف. أي كذب! ربما حين يتخلص الإنسان من ميراث الأرق الذي يلازمه في لحظة مشرقة ما، فإنه يبحث عن مبررات تفسر وتعلل ذلك التحول. ما هذا العبث؟ تدرك جيدا أنك بعد يومين ستعود إلى عقاب روحك.. ستتغلب طباعك الكريهة وتنتصر على بقايا ذات تسعى أن تتحول باستمرار. لماذا أسير عكس الطريق؟ أتساءل وأنا أخطو إلى البيت تحت سحابة الظلام الكثيف. أعرف أنني معذب بمزاج فاتر.. وأن كل الأوهام التي صنعتُها، وكل ميراث الأرق الذي أحمله على عاتقي، وكل رواسب الإخفاق، كل ذلك يتبدد حين أتملك فكرة الكتابة.. حين تشرق في خيالي شمس الحقيقة. أعرف أنني أملك أفكارا.. لا أملك غيرها في هذا العالم البارد.. لكن التمني وحده لا يكفي. الكتابة مثل الأحلام.. لا يكفي أن تتمناها.. بل يجب أن تتملّكها كي تعيش. أدركت فلورا بحسها أن خلاصي الوحيد ومخلصي من أرقي الأبدي هو الكتابة وتحقيق الوعد الذي قطعته قديما؛ كتابة الذات والأرض والتاريخ ونوازع الشر والكبت والخوف والتردد. هل تخلصتُ من صورة سعاد ويونس إذن، لأني شعرت أني سأخوض تجربة الكتابة وأحول هاجسي إلى قصة تفسر وتعلل؟ شيء ما

غامض يثير خيالي في لحظات تحوُّلٍ عجيب في أعماق الروح. لكن يقيني الراسخ، أن حلمي القديم هو المنقذ لذات لا تعرف الطريق ولا الخلاص. تلك الصور المبهمة.. الأشباح والظلال البعيدة.. أمواج الخوف والتردد؛ آن الأوان أن أحكي ميراثي وأسجل. ألست ممتلئا بما يكفي لأحكي؟

كانت فلورا تقف عند الباب تتطلع إلى النجوم المتفرقة. سألتها عن جدتي فقالت إنها في غرفتها.. وإنها غاضبة مني. سألتها ثانية عن السبب. قالت لأني لم أحضر الجنازة.. واختفيت. ضحكت ضحكة كريهة وأنا أقول لها: ولماذا لم تقولي لها لقد هربت. فرق بين التخفي والهروب؛ ثمة فرق صغير جدا لا يعرفه غيري.. أنا الذي أغوص في الفروق دائما. قالت فلورا:

- لقد وضحت لها كل شيء.. هي امرأة كبيرة ويجب أن ترتاح.. لا تتحمل الضغوطات..

بشيء من الحدة سألتها:

- هل قلت لها أيضا إنني أشرب الأدوية؟ وإنني جربت كل أدوية العالم فلم تنفع؟ لماذا يا فلورا..؟ هنا لا يعرفون كلمات مثل القلق والتوتر والوساوس.. الأعذار كثيرة.. أُفضِّل أن يقولوا إنني أناني ولا يقولوا عني مجنون أو مسحور. احتملتُ سوء الظن طويلا.. احتملتُ قهر كل هذه السنوات كي لا يقال عني إنني مجنون يا فلورا.. ربما جدتي تتفهّم، لكن الآخرين لا يفهمون.. سيقولون إنني ورثت أمي وإنني من سلالة المتعبين في هذه الدنيا..

- أهذا ما يهمّك؟ يقولون.. ويقولون؟ لا يا مختار.. الهروب لا ينفع والخوف يقتل. هربتَ عقدين وفي النهاية عدتَ من جديد وعادت كل أثقالك معك.. وُلِدَت من جديد كل الصّور القديمة..

صمتٌ قصير تحت نور القمر الباهت وهو يطل علينا من بعيد. تواصل فلورا:

-   قلت لجدتك إنك لا تتحمل الموت.. منذ أن ماتت أمُّك وأنت في حالة لا تتحمل فيها مشهد الجنائز والرحيل. فهمت جدتك كل شيء.. ودعت لك بالطمأنينة.. دعت لك كثيرا وهي تتألم على فراق حفيدها..

قلت:

-   هي أيضا لم تعد تتحمل الموت.. منذ أن مات خالي الحسن فقدت جدتي طاقة المرح.. انزوت في الظّل.

تملّكني حافز غريب في تلك الليلة. أوقدت الكانون وملأت البُرمة النحاسية بالماء. واستحممت جيدا.. دعكت جسدي بحجارة البحر الرمادية الخشنة التي لم أستعملها منذ عقدين فكدت أدميه. بعدها جلست في بِيت النار فوق الحصيرة أستمتع بكأس شاي عتيق المذاق. شعلت شمعتين أضاءتا الفضاء والتقطت كراستي من المحفظة ورحت أسجل. من أين سأبدأ؟ التفاصيل كثيرة ومتداخلة.. القصص تتوالد كل يوم.. وخيط الحكاية يضيع. ربما فلورا تساعدني.. هي لا تملك أفكارا مجنونة مثلي؛ جنونُها مختلف.. يحمل مرحا وبريقا.

نمت نوما ثقيلا في تلك الليلة. لكني شعرت في النهاية أني أملك هدفا وأني أخيرا عرفت الطريق. أليست الحياة في النهاية سوى هدف نحيا من أجله.. هدف ممكن التحقُّق؟

تملكتني العذوبة في صباح لم أتوقع أنه سيحمل نسائم الحنين. خرجت من الغرفة فلمحت جدتي تعبر الفناء مقوسة كعادتها. لم تبادلني الابتسامة؛ وجهها عابس لكنه يحمل طيبة وسلاما ولا يفتعل الكدر. أتصور أنها لم تضحك منذ سنوات طويلة. استنفد جدي كل طاقتها المرحة بطباعه الغليظة وسلوكه النكد. تزوجته وهي لم تبلغ الرابعة عشر.. كان يفوقها بثلاثين عاما، وكان إذا تملكه الغضب يظل يعاتب ويصرخ إلى أن تسقط جدتي على الأرض وتنتابها حالات تشنج وصرع. صحيح أنها بعد وفاة جدي ارتاحت من الصراخ والعتاب، لكنها كانت قد فقدت القدرة على الضحك. سألتها ذات يوم؛ هل كان

جدي قاسيا؟ لمحت في عينيها نصف ابتسامة مكسورة وقليلا من الذعر المدفون وهي تحركهما إلى الأسفل.. ثم أدارت رأسها مؤكدة شكوكي.

قلت لجدتي:

- لا تغضبي مني جدتي.. أنا لا أتحمل الجنائز..

قالت:

- الهروب يا ولدي لا ينفع ولا يداوي.. صدقني. أفضل شيء هو أن تواجه. لا تفعل كما فعلت أمك رحمها الله.. لا تذهب في طريقها يا ولدي. ولا تذهب في طريقي حين مات خالك الحسن.

ثم دخلت غرفتها.. بينما بقيت واقفا تحت عش العصافير.

قالت فلورا:

- أسمعت؟ جدتك على حق.. واجه خوفك يا مختار..

لكني حينئذ كنت أفكر في عش العصافير وأتساءل عن السبب الذي يجعل طيورا حرة تسجن نفسها بين أربعة جدران؟ بينما ظل اسم خالي الحسن يتردد ويلمع في ذاكرتي مثل الوميض.

ارتديت ملابسي ووضعت حقيبة على ظهري ومثلي فعلت فلورا لننطلق في رحلة إلى قرية تغسة.

في محطة الطاكسي لا يوجد طاكسي ولا أي وسيلة نقل أخرى. يوجد فقط متفرجون ملؤوا المقاهي التي انتشرت على جانبي الطريق الرئيس المؤدي إلى الجهة الشرقية حيث تقع مدينة الحسيمة. كل واحد يحمل بين أصابعه هاتفه المحمول وقد تدلت منه سماعتان موصولتان بالأذن. ينظر بشرود إلى العالم ويحرك رأسه على وقع إيقاعات هي بالتأكيد صاخبة. بقيت

أنتظر تحت أشعة الشمس. كانت فلورا تضع قبعة بينما لا أملك أنا أي قبعة تحميني.. لم أكن من هواة القبعات؛ كانت تبدو لي مثل سجن في الصحراء.. تقبع على الرأس فتصنع لهيبا يجمِّد الخيال، وحين تنزعها تشعر أن ثمة عضوا من جسدك صار كالقِدرة التي شاطت. تأملت وجوه الناس؛ وجوها لم أعد أعرفها كأنها ظلال خرافية قديمة. أجساد منهكة شاردة مستغرقة في العدم. شباب في مقتبل العمر بخطوات طائشة مائلة؛ ثياب رثة هجينة وذقون غير حليقة كثة ومتشعبة مكسوة بالغبار. نظرت إلى فلورا ثانية؛ كانت على نفس الحال، ساكنة ومبتسمة تلتفت حولها لتلتقط سمات البشر المنهكين من حولها. سألتني عن سلوك الناس وهم يمعنون النظر بصمت ودهشة؛ مزيج من الرغبة والدهشة والرفض. أرادت أن تفهم علة هذا السلوك المتوارث في مجتمعنا. كانت تعرف أن الشرح يطول، لذلك استدركَت بقولها:

- عادة المجتمعات الصغيرة غير المنفتحة تعرف مثل هذه السلوكات..

بينما واصلت تأملاتي في البشر والحجر من حولي.. في تلك المساحات الخضراء من الحقول وقد اختفت فجأة وحلت محلها بنايات إسمنتية مرتفعة غير متناسقة.. في أسلاك الكهرباء وقد غطت السماء الصافية.. الصحون الصدئة المعلقة في الجدران. واندهشت من كم الغبار الذي تغرق فيه القرية. أردت أن أقول أشياء لفلورا.. أردت أن أحكي لها أن القرية قبل عقدين كانت أنظف وأهدأ وأجمل.. لم تكن شبكة الكهرباء متوفرة ولا الطريق التي تربط المدينة بالقرية معبدة جيدا.. لكنها كانت أجمل بكثير. أردت أن أحكي عن شعوري بقتامة حلت علي فجأة.. قتامة مختلفة ليست كتلك التي تطاردني في الصباح، لا تنبع من الداخل؛ من الهواجس والأفكار، بل قتامة تولدت من البشاعة. أردت أن أحكي، لكني خفت أن أبدد ذلك البريق الذي يلمع في عينيها. قلت في نفسي وقد استسلمت لأفكاري المتجمدة: وما فائدة التعليل؟

شعرت بخنقة لا تطاق.. أردت الانسحاب من المكان. سألت صاحب مقهى عنيف الملامح عن إمكانية العثور على طاكسي يقلنا إلى مسقط رأسي "تغسة" العتيقة. قال وهو يشير إلى شخص يجلس على مقدمة سيارة مرسيديس

شبه مفككة ويدخن بلا انقطاع:

- ها هو السائق.. اسأله..

- هل هذا طاكسي نقل؟

سألته وأنا أتأمل تلك الملامح التي أيقظت صورا متماثلة في ذهني ثم واصلت وأنا أنسحب من عينيه بهدوء:

- شكرا.. سوف أطلب صاحبه وأتمنى أن يوافق..

قال وهو يضحك ضحكة كريهة تنجلي عن أسنان قرش مجروح:

- القرطاس يفتح طريقا في البحر..

لم أفهم ماذا يقصد بلفظ "القرطاس".. لكنه أشار بأصابعه إلى الفلوس. فكررت له شكري وانصرفت.

صافحت السائق فمد يده دون أن ينزع سيجارة الحشيش من أصابعه. نفث بقوة وهو يتطلع إلي باستفهام دون أن يتكلم. قلت:

- نريد الذهاب إلى تغسة بشرط أن تعيدنا إلى هنا مساء..

- أنا معك..

- كم تطلب كي لا نختلف في النهاية؟

- لن نختلف.. اطمئن..

راح يتحدث في صمت ثم تابع:

- مئتا درهم فقط..

- كم؟

ثم أدار وجهه وأخذ نفسا عميقا من الحشيش وبعثر الدخان في السماء وراح ناحية المقهى وهو يردد:

- الحافلة جاية بعد قليل.. خمسة دراهم تكفيك..

بقينا تحت الشمس، فلورا بقبعتها وأنا أحتمي بكراسة أرفعها بيدي. شعرت بالإنهاك وبدوار خفيف.. العيون تلاحقنا ونحن نتوسط المقاهي المكتظة. شعرت أنني مثل متهم في القفص تعاقبه العيون وتتبرأ منه. وصلت الحافلة في تلك اللحظات، يكسوها الغبار من كل جانب. كانت تبطئ وتستعد للوقوف جانب الطريق بينما رفعت عيني إلى نوافذها الغامقة؛ وجوه متعبة وصفراء يطل الموت من تفاصيلها. فجأة لمحت وجه معزة يطل. ارتبكت.. كذبت عيني، ثم حدقت جيدا؛ فعلا إنها معزة إلى جانب صاحبها.. هما يتشابهان. نظرت إلى فلورا.. كانت تكتم ضحكتها وهي تضع راحة كفها على كتفي. فُتح الباب وخرج المسافرون يتدافعون هاربين من جحيم الحافلة. وخرج الرجل ومعزته، كلاهما يبتسم ببلاهة. أردت الصعود.. واجهتني رائحة مقززة قديمة محفورة في ذاكرتي. رائحة الجلد الذي لفحته الشمس ضاعف إحساسي بالدوار. تراجعت إلى الوراء لألتقط الأنفاس قليلا وكان اللّعاب يسري في فمي مثل شلال. قلت لفلورا إنني لا أستطيع ركوب الحافلة.. وإنني أشعر بالغثيان ولا أتحمل رائحة الكراسي الجلدية وقد هيّجتها أشعة الشمس، ولا أتحمل أيضا رائحة القيء العطنة التي تملأ الحواشي.

تنفست قليلا من الهواء.. وناديت سائق الطاكسي.

لم يختلف الطاكسي كثيرا عن الحافلة. لكني شرعت النافذة كاملة فواجهني هواء جميل يحمل معه رائحة الجبال والأعشاب. كنت مستمتعا رغم الانعراجات الكثيرة. وكان الصوت الآتي من الكاسيط يبث أغنية جبلية أشعرتني بالدفء. سألت السائق عن المطربة، فأجابني باعتزاز "شامة الزاز.. ألا تعرفها؟". كنت أتأمل الجبال المكسوة بالشجيرات الصغيرة المتباعدة

وبأشجار التين المتفرقة. وأتأمل صفحة البحر وهي تلمع. وكان الصوت الجبلي الضارب في جذور الأرض يصنع موالا عذبا.. إنه أشبه بموسيقى الأرض؛ يحمل أسرارها ويكشف تفاصيلها. قلت لفلورا:

- علينا أن نبحث في موسيقى هذه المنطقة.. خصوصيتها وتاريخها.. ربما تكون هي أيضا أحد مفاتيح أسرارها الكبيرة.

- أعتقد أننا لا يجب أن ننحرف عن المسير.. كي لا نتوه.

مددت يدي وشرعتها عبر النافذة، تملكني إحساس بالتجدد والصفاء والحرية. لكن السائق أشعل سيجارة الحشيش المقززة وراح يدخن بمتعة. طلبت منه أن يتوقف عن التدخين فاستجاب ممتعضا. وظل يرمقني بنظرة مكر من المرآة الجانبية للسيارة. بيد أنني روضته قليلا وأزحت ستار مَكْرِه بسؤالي:

- هل أنت من أبناء المنطقة أم من منطقة مجاورة؟

- أنا من قبيلة "باب برد" لكني بنيت منزلا هنا منذ وقت طويل...

سألته وأنا أستفزه ليحكي:

- لقد تغيرت الأوضاع كثيرا.. أقصد تغيرت للأسوأ.. أليس كذلك؟

- هذا حال الدنيا.. كل الأشياء تتغير. الإنسان نفسه يتغير..

شعرت أن السائق يوجِّه اللّوم لي. لكني تراجعت عن شكوكي حين فكرت بهدوء جازما أنه لا يعرفني. قلت له باندفاع غير مبرر:

- وأنتم؟

- نحن ماذا؟

- أقصد.. ماذا تفعلون؟ ماذا فعلتم؟

- وماذا نملك نحن..؟

صمت لحظات وكان يضغط على مقود السيارة ويرتعش كعادته من بداية الرحلة، ثم قال:

- من يده في النار ليس كمن يده في الماء.. نحن هنا نعيش في قلب النار..

قطعت باقي الرحلة مستغرقا في التفكير والصمت. بقيت أردد في نفسي كلمات الرجل وهو يرتعش "نعيش في قلب النار". صحيح.. يدي في الماء. ربما أتوهم أنها في الماء أحيانا. فأنا أحد أولئك الذين هجروا منذ زمن.. هجرت قريتي لكني احتميتُ بها في غربتي. احتميت بها من الخوف واللايقين والوحدة والبرد. وكان الموال الجبلي الذي يصلني مع الريح الخفيفة النابعة من الجبال يستثير أحزاني؛ نسائم قديمة استدعت سيلا من الانطباعات والصور المتداخلة.. أيقظت هذه الذاكرة مكسورة الجناحين. كنت أتطلع إلى البحر عبر الطريق المعرجة حين وصلنا إلى أعلى جبل "إيمدران" المسمى ب"قبة المدفع". سألت السائق:

- أليس من هنا كان الخطابـي يجاهد ضد المستعمر ويرمي القذائف بالمدفعية؟

- ههه.. ههه

ظل يضحك ضحكا متقطعا ثم قال:

- هذا هو الخطأ الذي ارتكبه الخطابـي.. المستعمر كان رحيما بهذه الأرض.. بنى وزرع وعلّم وعالج. منذ الاستقلال لم تفعل الدولة شيئا.. لم تبن هي ولا تركت الاستعمار يبني. تركتنا نحترق..

ظللت أتأمل كلمات الرجل.. نقلتني إلى دنيا جديدة باهتة منكسرة. كأنني أحدث بقايا إنسان يتآكل تحت وطأة الزمن. أما فلورا فكانت تتأمل وجهي الذي

تضرج.. وجهي الذي غطّاه السأم فجأة.

الغرفة الحرّة

نسيم تغسة لا يشبه نسيما آخر في الدنيا؛ مزيجٌ من أزهار الدفلى الظليلة وعشب "الترهيل" الأخضر الفاتح ذي الرائحة العتيقة.

قرية ذات جناحين طويلين ومتوازيين من الجبال، يفضيان إلى شاطئ طويل.. انتصبت في وسطه زاوية الولي الصالح "سيدي محمد العطار". ويتوسّط الجناحين شريط واد ممتد يصب في البحر.

عبرنا الوادي أنا وفلورا قاصدين بيت عمي الحاج الطاهر. في طريقنا، رأيت الطاحونة القديمة؛ أو أطلال الطاحونة التي بقي منها جداران مكسوران وباحة صغيرة تطل على الساقية والوادي. وفوق التل الصغير الذي يطل على الطاحونة يربض بيت عمي الفنان الذي أحب الدنيا بهوس.

قلت لفلورا ونحن نتأمل آثار الطاحونة والمياه التي تجري تحتها بقوة:

- هذه الطاحونة تشهد حكايات وتاريخا طويلا من السعادة. كان جدي عاشقا للحكايات والشاي والقعدات الجميلة..

قالت:

- هل تعرف أن كل المدن الأندلسية كانت تنتصب بها أرحاء على طول الأنهار؟ المراجع بخصوص هذا الموضوع كثيرة جدا في الثقافة العربية.

ربما هذه الطاحونة نتاج هذا التلاقح المشترك بين سكان غمارة والأندلس خلال عودة الموريسكيين. وهذا يفسر لنا كل ما هو مشترك في الفلاحة أيضا والطبخ من حيث الأدوات الفلاحية وأنواع الأكل..

عند باب بيت عمي الطاهر، وبمحاذاة الفرن البلدي، تحلّقت حولنا الكتاكيت الصغيرة.. لمعت عينا فلورا تحت أشعة الشمس الصافية.. التقطت كتكوتا بديعا وقبلته في منقاره الصغير وهي تشم رائحته.. ارتعب الكتكوت وهو يحرك عينيه بذعر، بينما استقبلتنا زوجة عمي بالزغاريد.

دخلنا البيت وصعدنا إلى الطابق الثاني. لا شيء تغير سوى قليل من الأثاث ذي الألوان المبهجة. البيت كما تركته منذ سنوات؛ صورة جدي بالأبيض والأسود اعتلت الجدار، وصورة أبـي في شبابه إلى جانب عمي الطاهر وعمتي عيشة. عبرنا الفناء إلى غرفة جانبية فسيحة تطل على الوادي هواؤها بحري منعش وذات نافذة كبيرة مشرعة تلتصق بها أغصان شجرة الليمون الوارفة والمليئة بالعصافير. في الزاوية يجلس عمي بجلبابه الأبيض يحدِّق في الجدار الأبيض. اقتربت منه وقبلت يده ورأسه وكانت زوجة عمي تردد بصوت قوي:

- هذا مختار ابن أخيك.. عاد ليراك..

ابتسم عمي ابتسامة دافئة صنعت خطوطا وشقوقا عميقة على وجهه الممتلئ. قال بصوت ثقيل متهدج وهو ما يزال يتأمل بياض الجدار:

- أهلا يا مختار.. مرحبا يا ولدي..

قبلت يده ثانية وأنا أسترجع كثيرا من الصور القديمة دفعة واحدة. وكان شعاع من الضوء يتسلل عبر النافذة وبين الأغصان ويعشي عيني. قالت زوجة عمي لالّة يمنة:

- عمك يا مختار لم يعد يسمع جيدا في السنتين الأخيرتين.. بعد أن فقد

النظر تدريجيا خلال السنوات الأخيرة.

سألتها وأنا أرمي عيني في عينيه الثابتتين:

- يعني أنه لا يرانا الآن..؟

أجابتني بصوت خفيض:

- لا يرى شيئا للأسف.. ويقضي كل وقته هنا في الغرفة الحرة.. يحب الشاي بالنعناع ويستمتع بهذا الهواء الذي يدخل الغرفة.. هو الشيء الوحيد الذي ينعشه..

قلت وأنا أنتشي به:

- صحيح.. الغرفة عذبة وهواؤها لطيف.. هل تكون حارة في فصل الصيف؟

- لا أبدا.. دائما هواؤها منعش، في الشتاء تكون دافئة وفي الصيف باردة عكس باقي غرف المنزل.

قلت لفلورا:

- هذه الغرفة كما أتذكر كانت مليئة بالكتب.. بحصيرة صوفية يدوية ثقيلة ومزخرفة، وعند هذه الزاوية ثمة شمعدان نحاسي كبير يضيء الغرفة ليلا. هنا يا فلورا كنت أقرأ القصص وأنا مقبل على عالم الأدب.. أقرؤها تحت ضوء الشمعدان الساحر.

قالت لالّة يمنة:

- كنت تهوى هذه الغرفة يا مختار.. فبينما يلعب الأطفال في الوادي وتحت الأشجار كنت تعكف على قراءة الكتب.. وأحيانا تكلم نفسك.. كانت

والدتك رحمها الله تخاف عليك من الوحدة.. وتريدك أن تتعلم جيدا، لكنها تقول أيضا، إذا كان في القراءة هلاك أو جنون، فلا داعي لها..

ابتسمت فلورا وقد عرفت فحوى الكلام. بينما قال عمي الذي خرج من صمته:

- العلم لا يهلك.. العلم نور.. وحده الجهل يهلك..

بقيت أنظر إليه وأتطلع في آن إلى الشمس وهي تتسلل إلى الغرفة تحمل معها رائحة الدفلى العتيقة. ثم واصل بتقطع:

- كان أبـي يضربني حين أنسى سورة من القرآن.. أو حين يسألني عن النحو والتفسير فلا أجيب. كان يوبخني ويخيرني بين العلم ورعي الغنم..

يضحك وهو يتابع بإجهاد:

- بل كان يقول لي إن من يفشل في العلم سيفشل حتما في رعي الغنم..

ثم شرد لحظات وهو يضحك في سره كأنه دخل في أحلام اليقظة. قطعت الصمت حين سألته عن الكتب والمخطوطات التي كانت تملأ الغرفة الحرة فقال:

- أبـي علقني ذات يوم في شجرة التين وتركني نصف يوم، لأني هربت من الكُتَّاب.. تركني ولم يسأل عني.. إلا بعد مرور أسبوع حين تأكد أني عَقِلت وملتزم بحفظ القرآن..

أيقنت أن عمي لم يسمع سؤالي فاقتربت منه وأعدت طرحه من جديد بصوت جهوري هذه المرة. التفت إلي مذعورا وقال: - من أنت؟

ربتت زوجة عمي بيدها على يدي وهي تقول:

- عمك يا ولدي بدأ ينسى. إنه يقارب المائة ومنذ مدة وهو يلازم غرفته ولا يتحدث كثيرا.. والوحدة يا ولدي تقتل.

سألتها:

- ألا يزوره عمي البشير؟

- عمك.. الفنان؟ نعم يزوره، لكن حين يحتاج للمال فقط. ما يأتينا من الأولاد يأخذه هو.. وعمك الحاج الطاهر يقول نحن كبرنا ولا نحتاج إلا ما يكفينا للعيش.. لكن البشير سامحه الله يأخذ ما يكفيه ويزيد.. أعتقد أن كل أموال الدنيا لن تكفيه، لم يتغير للأسف رغم الكبر.. عاش في الوهم ومازال..

صمتت قليلا وهي تتنهد بعمق ثم واصلت:

- حين تشتد الحياة على البشير وتضيق به الدنيا يتحول إلى كلب مسعور يا ولدي.. يضرب كل المعز الذي يحوم حول الدار ويفعص الكتاكيت.. ويحدث الحيطان ويشتم.. يصير مخيفا جدا..

سألتها وأنا أشير بسبابتي إلى الزاوية:

- أريد أن أعرف يا خالة أين ذهبت الكتب.. التي كانت تملأ البيت؟ اشتقت إلى رائحتها..

قالت مغتاظة:

- عندما بدأ عمك يفقد البصر وأخذ يسلم الأمور للقدر.. كان أحد أفراد قبيلة مجاورة لنا، وهو رجل متعلم، يزورنا كل خميس ويجلس مع عمك ويتحدث إليه.. يؤنسه في وحدته ويحكي له الحكايات التي يعشقها. يحكي عن الريف والأمير عبد الكريم الخطابـي رحمه الله وعن باقي المجاهدين.. يستدعي كل الماضي الجميل الذي يهواه الحاج الطاهر. وفي كل مرة يأخذ معه كتابا أو كتابين. وكما ترى، كل شيء ضاع حتى الصناديق الكبيرة. بعض

الكتب الأخرى أخذها عمك الفنان.. كان يقول "هذه الحديقة الجميلة يجب أن تزيِّن حياتي أنا أيضا وسوف أحافظ عليها.. فيها رائحة أبـي رحمه الله". كان عمك يعشق الكتب لكنه لم يكن يقرأ. أنا لا أعرف إن كان مايزال محتفظا بها.. لكني سمعت أنه باعها هي أيضا..

ثم أردفت وهي تضغط على شفتيها متحسرة:

- ذات يوم قبل سنوات طويلة، كان عمك راقدا في الفراش.. وكانت الغرفة الحرةُ حرّةً أيضا وخالية. زارنا الرجل كعادته.. دخل الغرفة دون استئذان ومكث فيها نصف يوم. حين كنت أطل عليه من كوة الباب أجده مقرفصا على الحصيرة الصوفية وهو يفتح الكتب وينقل منها في دفتره الخاص. وحين بدأ يسقط الظلام، تسلل بهدوء وهو يحمل قفة مليئة بالكتب.. كان ذلك آخر خميس يزور فيه بيتَنا.

قال عمي وهو ممتلئ بالحيوية:

- هنا جلس مْحمد ولد عبد الكريم الخطابـي أخو الأمير وتناول غذاءه.. وهنا كان يتصل بالمجاهدين بهاتفه السلكي.

التفت إلى زوجة عمي أحمل أسئلة كبيرة متدافعة:

- هل صحيح ما يقوله عمي..؟

ضحكت لالة يمنة وقالت:

- صحيح يا مختار.. هنا على هذه المتربة جلس مْحمد بن عبد الكريم الخطابـي وقضى يومه مع مرافقيه. لم يكن يثق في أحد سوى جدتك الكبرى؛ فهي ابنة الريف الذي ينتمي إليه. كان يحتاط كثيرا.. ولا يأكل إلا ما تطبخه له بيديها. وهنا أيضا كان يلتقي بشيوخ القبائل والمجاهدين ليناقش معهم تفاصيل الحرب ويحثهم على الجهاد؛ ابراهيم الخالدي وابن صالح الرزيني وبن يوسف والبقالي وغيرهم. كان بحاجة إلى دعمهم بعد اعتراض الزوايا.. وبعد الخيانات

الكثيرة التي تعرض لها المجاهدون خصوصا من شخص يدعى "الحسن بن صالح الرزيني" الذي قطع أسلاك الهاتف التي تربط المحاكم بعضها ببعض، وحرَّض آخرين على التآمر. لذلك أقام أخو الأمير هنا بتغسة لشهرين متتاليين؛ فقد كان حريصا على جلب السلاح والمدافع للمجاهدين والتأثير فيهم وحثهم على الجهاد والحد من تقدم الإسبان والتوغل إلى الشرق عبر الغرب.

قال عمي:

- هل تعرف أن جدك المجاهد القايد محمد.. التقى ولد عبد الكريم هنا في هذه الغرفة أيضا؟. كنت أنا صغيرا حينئذ.. لم يُسمح لنا بالاقتراب، لكني تسلقت هذه الشجرة لأستطلع الأمر.. أثارني مشهد الرجل وهو يتبعه المآت من الرجال.

ضحكت خالة يمنة وقالت بصوت جهوري مخاطبة عمي:

- الحمد لله أنهم أنزلوك من الشجرة دون دماء. رأوا أغصانها تتحرك فظنوا أن مخبرا يتنصت على مجلس المجاهدين.. ولولا جدك يا مختار، كما روت لنا جدتك الكبرى، الذي لمحك وأنقذك لكان آخر يوم في حياتك..

قال عمي:

- حين رحل ولد عبد الكريم ورجاله، عاقبني أبـي أشد عقاب على فعلي. أدخلني إلى غرفة بدون نوافذ وأقفل علي الباب ليومين. وهدد أمي أنه سيلحِقُها بـي إذا فتحت لي باب الغرفة. كان أبـي شديدا وعنيدا ولا يرجع في كلامه. لكنه أيضا كان طيبا ويحب الناس. كان شاعرا يتقن العربية ويهوى جمع الكتب والمخطوطات. وكان ينفق على العلم كثيرا من ماله الخاص.. يساعد الطلاب ويحثهم عليه ويقول إنه منقذنا الحقيقي من الجفاف. لكني لم أنس أنه حبسني لليلتين متواصلتين رأيت فيهما رعب الدنيا..

بقيت أتأمل عمي وهو ينسج من الماضي حكايات متفرقة. وكنت حينئذ

أفكر في شيء آخر؛ في عمي البشير ذي الطباع المختلة وأتساءل، لماذا لا يشبه عمي الطاهر ولا أب-ي ولا جدي. قلت لعمي بصوت عال:

- وهل كان جدي يعاقب عمي البشير أيضا؟

قال عمي:

- ذات مرة دخلت غرفة جدك بعدما لزمها فترة طويلة. كان حينئذ يقرأ القرآن بصوت عال وكل أبواب المنزل مغلقة والنوافذ أيضا. كان صوته خاشعا للرحمان ويبكي بشدة مثل طفل صغير. وحين رآني تطلع إلي بعطف وواصل البكاء. اقتربت منه فضمني بشدة وهو يردد كلمات غير مفهومة (سامحني- لا يغفر الله للمقصرين- مغفرة الذنوب) وهكذا. لكني أتذكر أنه طلب مني أن أحتفظ بالكتب النفيسة، وألا أبخل بها على طلاب العلم. حضنني بشدة وقبّل يدي وبلَّل بدموعه شعري. وفي منتصف تلك الليلة فارق الحياة.

قالت لالة يمنة:

- لاداعي أن تسأله يا مختار.. لأن قصصا أخرى تشغل عقله هذه الفترة. هو مستعد للحكي حتى ولو كان وحيدا في الغرفة.

أشارت فلورا بعينيها إلى كراستي فحركت رأسي مستجيبا. فتحت الكراسة وسجلت كلمات قليلة عبارة عن عناوين مقتضبة وإشارات دالة. بينما استدركت لالة يمنة شيئا تاه في سياق الحديث المتنوع:

- نسيت أن أحدثك عن عبد النور أحد أبناء القرية.. يسكن بجوارنا ويعمل موظفا بمركز الصيد في الجبهة، جده السي ابراهيم صاحب الطاحونة القديمة. هو الوحيد الذي يزور عمك بين حين وآخر.. ويحدثه ويؤنسه. يقول عبد النور إنه يملك كتبا يقرأ فيها باستمرار ويقول عنها إنها كنز. كثيرا ما أراه تحت شجرة الأفكادو الظليلة يشرب الشاي ويقلب صفحات الكتب.

أما عمي فقد حرك أصابعه يمينا ليلتقط كتابا مجلدا كبيرا وينطق

بحماس:

- هذا ديوان شعر أبـي.. كتابه الذي عاش سعيدا به. أوصاني قبل أن يموت أن أحتفظ به ليراه الأحفاد..

ثم حضن الكتاب وهمس:

- قال البشير مرارا إنه يريد أخذ الكتاب ليلحن بعض قصائده.. فهو يعزف على العود. لكني لم أوافق على ذلك.. أعرف أنه سيضيعه مثلما ضيع باقي الكتب.. وهذا كنز أبـي رحمه الله. لا أريد أن يعلقني في الشجرة مرة أخرى..

ضحكت فلورا وضحكنا جميعا بينما ظل عمي وقورا كعادته يتأمل البياض وهو مستغرق في التفكير.

لم أكن أعرف عبد النور من قبل. ربما اختلط بباقي شباب القرية الذين يتشابهون في الملابس والسلوك والحركات؛ يجمعهم نسق سلوكي واحد فيجعلهم مثل سرب من حمام الغابات المشرد. وربما كنت أعرفه لكن الذاكرة مثل كل الأشياء في العالم لابد لها أن تشيخ. حين خرجنا من منزل عمي الطاهر وعبرنا التل الصغير الذي يطل على مساحة خضراء كثيفة الأشجار والزرع، تبعتنا زوجة عمي بخطوات بطيئة وهي تقول بحكمة كعادتها:

- هذه الجنة صنعها عبد النور يا ولدي.. كانت أرضا قاحلة صعبة منحدرة لكنه حوَّلها إلى بساتين خضراء مثلما فعل المدرس الإسباني قبل الاستقلال. لم يفقد الأمل طوال السنوات الماضية وكان يردد ألا شيء مستحيلا في دنيانا، العمل ثم العمل والنتائج تتحقق في النهاية. هو طاقة نشاط غير عادية، يأتي كل يوم للحقل في مثل هذه الساعة.. يحمل شايا وكتبا وفأسا ويغوص في التراب بقدميه.

قالت فلورا وهي تشير إلى شجرة الموز الكبيرة:

- الناس معادن يا مختار.. الناس أصناف ولابد في النهاية أن نجد أشجارا مثمرة. ليست كل الأزهار تنبت الأشواك..

أجبتها وأنا أفكر في المدرِّس الإسباني:

- لكن الثمار قليلة يا فلورا.. قليلة جدا ونادرة.. وسط كل هذا الخراب التاريخي.

أشارت لالة يمنة بيدها إلى الأسفل. كان ثمة شخص يحمل قفة ويتحرك بخفة. قالت:

- هذا عبد النور..

اقتربت منه وصافحته. عرفت أنه مايزال يذكرني. قلت له إن هذه الأشجار لابد أن تجعل الذاكرة يقظة حية. ضحك ثم قال:

- أو ربما لأننا نعيش هنا في عزلة ولا نصادف بشرا كثيرين في حياتنا..

صنع ابتسامة كبيرة وهو يشير بيده إلى قمة الجبل البعيد ثم سألني:

- هل تذكر رحلة صيد الأرانب في تلك القمة قبل سنوات طويلة مع ابن خالتك يونس؟ من كان ثالثكم؟

ضحكت أنا بقوة لما تذكرت شابا نحيفا كان يسبق كلاب الصيد حين يجري بين الصخور والأشجار:

- صحيح.. الآن تذكرتك..

- وهل تذكر حين كنا نسهر في خيمة على البحر تحت ضوء القمر.. لا يكفينا ضوؤه فنضرم النار في الحطب ونروي الحكايات، بينما لا تخرج أنت

من الخيمة؛ تمسك كتابا ولا تفارقه حتى يهزمك النوم؟

- نعم.. أتذكر الخيمة وضوء القمر والحطب.. لكني نسيت أني كنت أقرأ كتبا في الخيمة..

قال وهو يفرغ القفة من محتوياتها؛ الشاي وقنينة الماء والكتاب والشاشية الجبلية والفوطة. ثم التقط الفأس وراح يضرب في أعماق الأرض.. ويواصل الحكي. طلبت منه الفأس وفعلت مثله. بعد ضربتين شعرت بالعياء.. لم أستطع الكلام.. كنت ألهث وتملكتني دوخة مفاجئة. اتكأت على جذع الشجرة أستجمع أنفاسي بينما فلورا تضحك.

ثم استدرك عبد النور قائلا:

- هل تعرف أن أجدادنا يا مختار كانوا يقدسون العلم؟ هل تعرف أن كل رجل في قبيلة بني جرير قبل قرن من الزمن، كان يعتبر حمل الفأس خيانة لرسالة العلم التي يحملها؟

قلت له بسخرية:

- والآن..؟

رفع عينيه إلى الشمس.. ثم واصل غرس الفأس في الأرض والعرق ينزلق ثقيلا من جبينه. التقط قلّة وراح يشرب جرعات طويلة ويطفىء لهيب الظمأ. بينما سألته:

- هل مازلت تهوى صيد الأرانب؟

- هههه.. هههه

واصل الضحك بلا انقطاع ثم قال:

- الأرانب هنا في مخابئها مذعورة.. لا تخرج إلا في الليل، أو ربما لا تخرج. قريتنا تعرف الآن نشاطا آخر؛ صيد الحجلان والذئاب بالسلاح.. وكذلك إعدام الكلاب، حيث تستعين السلطات بالقناصين في القضاء عليها. لم يترك البارود مكانا هادئا إلا روَّعه..

- من يمارس هذه الهواية من أبناء القرية؟ أليست مكلفة؟

- العشرات للأسف. حتى ولو لم يملك الواحد منهم شيئا. الكل ينفق أغلى ما لديه من أجل أن يعيش ويستمتع.

بعد صمت وشرود تابع بانفعال:

- لكن أن يغرس شجرة واحدة فذلك مطلب مستحيل. هل تصدق؟ كان الحجل في زمن سابق يطير أمامنا ونحن نغرس ونحصد.. يعيش في أمان. أما الآن، فهو ينحشر في الغابات البعيدة خوفا من الرصاص. القانون لا يسمح إلا باصطياد أربع حجلات بينما هنا كل واحد يصطاد أربعين.. وأكثر. الإنسان لا يشبع.. صرت على يقين من هذا.

كان الحديث شيقا تحت شجرة الأفكادو الظليلة. عبد النور الممتلئ بالأفكار، بالتاريخ والأحاسيس وإرادة العمل والحلم.. أفرغ كثيرا من طاقة الحديث المخزونة لديه وأنا أطرح عليه الأسئلة بلا انقطاع. وكم سعدت حين حكى لي عن المايسترو؛ المدرس الإسباني الذي حوَّل الأراضي المحيطة بالمدرسة في تغسة إلى جنة. كان يدرِّس بإخلاص ويحظى بالتقدير من الأهالي. تعلق به سكان تغسة فأصبح واحدا منهم. لكن بعد الاستقلال حدث شيء آخر. حمل الفتيان صور الملك محمد الخامس وذهبوا إلى منزله ووقفوا وهم يرددون ويصيحون في وجه ابنه الصغير بصوت جهوري (قلْ عاش الملك).

فتحت كراستي بلهفة.. سجلت رؤوس أقلام وشحذت الذاكرة كي تلتقط التفاصيل الصغيرة خوفا من النسيان المؤرق. لكن ما أثارني حقا، تلك الجملة

التي ظلت تتردد في ذهني طوال الليل؛ هذا السلاح قد يتحول في النهاية من أداة تسلية إلى أداة اقتتال.. ونحن مستعدون لذلك..

رحلة الدّرويش

اليوم الذي قضيته في تغسة، جعلني أنسى الموت.

عدت منتشيا رغم الظلام الذي ابتلع الطريق، لم أكن أرى شيئا؛ لا وجه السائق ولا الجبال ولا فلورا الجالسة إلى جانبـي. لكن يدها كانت تلمس يدي فتشعرني بالدفء.. تضغط عليها بقوة وتمررها فوق ساعدي. فقدت الرغبة في الكلام. حاول السائق أن يقول أشياء مثيرة؛ تحدث عن الجفاف وغياب الرعاية الصحية والتعليم.. ظل يشكو ويعاتب دون أن يرتعش. أو ربما حال الظلام دون أن أتلمس تلك التفاصيل التي يكشفها النور. وحين اقتربنا من القرية سألته عن عبد النور:

- هل تعرف شخصا يدعى عبد النور؟

- تقصد السي عبد النور الموظف بمركز الصيد البحري؟

- نعم.. لقد تحدثت عن الجفاف وتهميش الدولة. أنا متفق معك.. لكني أريد أن أعرف؛ كيف حوَّل عبد النور أرضا شبه حجرية منحدرة إلى جنة أشجار مثمرة؟

بعد شرود صغير أجابني:

- هذا رجل ولِعٌ بفن الحياة.. يقال إنه نسخة من جده السي ابراهيم

الذي قضى حياته في طاحونة صغيرة على مجرى وادي تغسة، يستمتع بحياته وبكؤوس الشاي التي لا تتوقف وبسرد الحكايات، غير آبه بالمستقبل أو بجمع المال. عبد النور يشبه جده لكنه أكثر نشاطا.. يهوى الفلاحة والحرث ويجد متعته في تقليم الأشجار وتشذيبها. لا يعرف الجلوس في مقهى أو باب دكان؛ يقال إنه كان مهووسا في البداية بصيد الأرانب.. بعدها فتن بالبحر وصيد السمك، وفي السنوات الأخيرة نذر نفسه للأرض. ههههه.. لا أعرف من قال لي إنه يقرأ كتبا عن الفلاحة ويستثمر كل أمواله في غرس الأشجار؟ أظن أنه يخسر أكثر مما يربح.. هل يوجد عاقل يشتري الأسمدة الطبيعية من الفلاحين بدعوى أن الأسمدة الصناعية مضرة للإنسان؟ إنه من طينة عجيبة.. ومختلفة. لقد ساهم في ارتفاع ثمن الأسمدة.. هو وزراعة الكيف..

وصلت السيارة إلى القرية.. قليل من الضوء الشاحب ينبعث من أعمدة نور متهالكة. انكشف لي وجه السائق بلا ملامح. قلت له:

- صحيح لا يوجد عاقل يعيش في الوهم.

كانت جدتي نائمة حين دخلنا البيت. وكان القنديل يضيء الفناء على وقع العصافير الصغيرة وهي تشقشق بهدوء. تملكتني اللهفة حينئذ في فتح كنز الأسرار الذي أمدني إياه عبد النور. كان الظلام لحظتها بدأ يستحوذ على الأشياء من حولنا وهو يمدني بالكتاب. قال لي بتأثر؛ هذا الكتاب يحكي تفاصيل وأسرارا. إنه يسترجع الصور التي ضاعت. كانت الحسرة تملأ عينيه وهو يقول بمرارة إن معظم الكتب سرقت في النهار لا في الليل، وبعضها الآخر تستعمله النساء وسيلة لإيقاد الفرن حين يكون الهشيم شحيحا. كانت الكتب تحترق وتحترق معها أسرار هذه الأرض؛ حكى لي بصوت يئن.

حين أمسكت الكتاب قرأت على غلافه:

"اثنان وعشرون سنة من الاكتشاف في هذه الربوع المجهولة من 1 إلى 1893. روايات مهمة لرحالة مسلمين، تتعلق بالأرض والسكان والعادات والتقاليد والأعراف والمنتوجات الفلاحية والصناعية والتجارية والثروات

المعدنية والغابوية والرعوية وبساكنة البلد والقوى العسكرية والإدارة واللغات والأعراف"

إنها رحلة الدرويش الذي قضى أزيد من عقدين في البحث والاكتشاف. لم أستطع أن أفتح الكتاب. شعرت أن حياة جديدة تنبعث بداخلي؛ إحساس يماثل ذلك الذي يعثر على كنز بعد رحلة بحث طويلة في الأنفاق. ومن شدة الفرحة وضعت الكتاب إلى جانبـي، ثم التقطته ثانية وقرأت عنوانه مرات متكررة. شدني إليه.. شعرت أنه عنوان روايتي أنا، وأنه يعبر عن حالتي المرضية؛ خوفي وعجزي.. أحلامي الكبيرة وإخفاقاتي التي لا تنتهي؛ ذلك الخليط من المشاعر المتناقضة.. اللاطمأنينة واللايقين في عالم أشد قتامة. إنه يشبهني.. يشبه رحلتي وهروبـي.. حلمي وعجزي. فتحته فطالعتني هذه الفقرة:

"ومن جهتهم، فإن الطلبة الملتحين يمارسون مهنة مدرسين متجولين. فهم يتركون قراهم، حاملين لوحة ونسخة من القرآن الكريم؛ ويأكلون ويبيتون بالمساجد إلى أن يحصلوا في إحدى القرى على وظيفة معلم. عندئذ يتلقون 200 فرنك مقابل عملهم، إضافة إلى الملبس والمأكل والإقامة. ومن الممكن أن يتضاعف مدخولهم بفعل ممارستهم للخياطة التي يتقنها الغماريون. وباختصار، فإننا لم نجد إلى حد الآن، ولن نجد أبدا في إمبراطورية الشرفاء الشاسعة، الفقر المقيت الموجود عندنا في أوروبا. ففي كل مكان بالمغرب، بل ومن المحيط إلى المنطقة الليبية، لا مكان للجوع، هذه الآفة الموجودة ببلداننا المتحضرة، إذ يتم التغلب عليه بفضل الصدقات وخصوصا بفضل التين الوحشي. فمن هو هذا الرجل العظيم والخير الذي غرس أول شجرة صبار في شمال إفريقيا؟ فهو يستحق، وخاصة في زمن الركود هذا، أن يوضع له تمثال من الرخام".

وضعت الكتاب ثانية على الحصيرة. شعرت أني أريد أن أجري.. وبأني مثل الطفل الذي يرى أمه بعد غياب فيهرب من فرط الفرحة ليعود بعدها متسلقا قدميها، حاشرا رأسه بين ساقيها. إنه شكل من أشكال تمديد الفرحة. هل أنا أحلم أم في يقظة؟

كان الهواء لطيفا في تلك الليلة لكني شعرت ببرد ناعم. التقطت غطاء ووضعت فوق الحصيرة فروة خروف صوفية بيضاء ناصعة ذات رائحة عتيقة، وانحشرت تحت الغطاء التقليدي المزخرف. وانحشرت فلورا معي وهي تردد بحركة طفل عنيد:

- لن تستمتع وحدك... جئنا معا.. وهذا الكتاب يهمني؛ إنه مجال اشتغالي الأساس.. لا تراوغ يا مختار.. ههههه

أجبتها بجدية تكرهها:

- أريد صمتا.. لا أطيق القراءة والحديث في آن..

فتحت الكتاب ثانية تحت نور القنديل. لمحت ظل أصابعي على الورقة. ظلٌّ بارد هزيل يلوح ويختفي.. ويرتعش. قرأت المقدمة بتركيز شديد ثم انتقلت إلى الجزء الأول المتعلق باكتشاف الريف. كانت عيناي متعبتين بعد يوم مرهق. التفت إلى فلورا التي غلبها النوم. كان الحماس يملؤني. ومن شدة الشوق واللهفة، انتقلت إلى الجزء الثاني المتعلق باكتشاف جبالة؛ أرض الأجداد عسى أن أطمئن قليلا وأرتوي.

يحكي الدرويش أنه قضى ليلته الأولى في مسجد الخميس بقرية الخميس بمدينة فاس. كان قادما من الشرق نحو المغرب أملا في اكتشاف أرض مجهولة. كان الحلم كبيرا، لكن خوفا لازمه وهو على أهبة السفر؛ بدا له المغرب عالما مخيفا مليئا بقطاع الطرق وبالغلمان الأرذال وبالغاويات الساحرات. لكنه لجأ، مثل كل مغرب-ي، إلى الحجاب الواقي وضمَّنه الدعاء الخالص لله تعالى:

(يا مجيب، يا مغيث، أنت قلت لنا ادعوني أستجيب لكم، فها أنا دعوتك، فاستجب لي. لقد توكلت عليك أنت خير من يتوكل عليه وأنت تعلم سري وعلانيتي، لقولك أعلم ما تسرون وما تعلنون. يا إلهي، إذا كان سفري هذا خيرا أره لي وإذا كان شرا أره لي كذلك)

وضع الحجاب على صدره ونام نوما عميقا بمسجد الخميس. فجأة وفي قلب الليل امتلأ المسجد بنور ساطع باهر، ولاح رجل طويل القامة نحيف البنيان شاحب الوجه.. ثم راح يتلو آيات قرآنية بصوت مرتفع. بعد لحظات خاطبه قائلا:

- أعرف أنك أتيت من الشرق راغبا في اكتشاف المغرب.. أنا قنديل جبالة..

أفاق مفزوعا وفرحا في آن.. لكنه قرر خوض تجربة السفر بحثا عن الحقيقة، عن النور الذي يلوح في الأفق. لقد حان وقت الاكتشاف العظيم.

اجتاز عديدا من القرى حتى بلغ نهر ورغة الذي تنحدر مياهه الصافية من جبال صنهاجة الشاهقة، وهو يفصل فاس عن جبالة. كان مضطرا أن يقطع النهر عبر قارب صغير، طلب منه صاحبه قرشين لكنه وضح له أنه طالب علم فاستجاب لطلبه دون مقابل. وضع الدرويش قدميه في الضفة الأخرى فلاحت له التلال والجبال مغطاة بالأشجار والبساتين وانشرح قلبه..

أقام بالقليعة أياما قليلة رفقة طلاب العلم؛ سُمِح له بمتابعة الدروس الدينية بالمسجد، حيث يقضي ليلته ويتناول وجبته مجانا. وبعد صلاة المغرب حين ينتهي الطلاب من الكتابة على الألواح وحفظ القرآن، يقومون بجولة في القرية ويحصلون فيها على أطباق الكسكس واللحم والخبز والعسل والزبدة إلخ. كان العشاء أهم وجبة ينتظرها طلاب العلم، بعدها يتفرغ بعضهم إلى القراءة وبعضهم الآخر إلى سرد الحكايات أو قضاء أعمال أخرى.

بعد ثلاثة أيام سمع بوجود حفلة إحسانية قرب ضريح الولي مولاي بوشتة الخمار سيد الرياضيين بقرية الصافيين؛ تسمى "الوعدة" بعرف الجبليين، فعزم الذهاب إليها. وحول هذا الضريح كانت تقام تداريب في الرماية وركوب الخيل. ويحظى مولاي بوشتة بتقديس خاص من الناس الذين لا يتوقفون عن زيارة قبره خصوصا في عاشوراء والعاشر من رجب طلبا للبركة والقوة والشجاعة. وفي المساء الأخير للوعدة يأخذ الرجال الموسمات

والغلمان معهم خارج الضريح متفوهين بكلمات بذيئة. سأل الدرويش أحد الأشخاص: ألا يخشى هؤلاء غضب الولي بفعلهم المنافي للقيم؟ لكنه حدجه بنظرة استغراب وقال: إن مولاي بوشتة متسامح. وحين سأله هل تسري الأمور على هذا النحو في كل ربوع المغرب أجابه: إن عرب وأمازيغ الجنوب والوسط لا يعرفون سوى النساء، في حين يفضل سكان جبالة والسوسيين والريفيين الغلمان، وبسبب ذلك نعتوا بقوم لوط.

شعرت أن النوم الذي كان يغالبني طار فجأة. ولحسن الحظ، فلورا نائمة كي لا تتعبني بالأسئلة المتلاحقة. ثم واصلت قراءة حكاية الدرويش تحيطني الدهشة.

حين وصل الدرويش إلى ضريح مولاي بوشتة وجد مباريات في الغناء والمسايفة والرماية. ووجد أزواجا يتبادلون القبل، وخرافا وعجولا تذبح وولائم تقام للفقراء ليلا. قضى أياما هناك.. ولم ينس ذلك اليوم الذي كان فيه مستلقيا تحت قبة مولاي بوشتة، حيث راودته فتاة في العشرين واقترحت عليه أن يجامعها. حاول الاعتذار معللا أن موافقته تعني موته وهو الآتي من الشرق، لكنها أصرت على ذلك. حينئذ لف الجلباب على رأسه وانكمش وتظاهر بالنوم. غادرت الفتاة المكان وهي تمطره بأقدح الشتائم.

طويت الكتاب. التفت إلى فلورا ثانية. عيناي تحملان كل أسئلة الدنيا. كأن التبدد أصابني في تلك اللحظة؛ أفكاري صارت غريبة عني. هزمني القلق وهو يفتك بأحشائي رويدا رويدا. أفاقت فلورا على تنهداتي العميقة. كانت منهكة فحملت وسادتها ودخلت الغرفة وهي تقول بصوت سكران:

- في الغد ستحكي لي يا مختار.. لن أتركك..

بينما لزمت صمتي وحيرتي. لم أفتح الكتاب ثانية. صارعت أرقي حتى استسلمت للنوم. وفي الصباح أخفيت الكتاب وخرجت أبحث عن الجواب.

التقيت بابن خالي رضوان الذي كان يكبرني بسنتين. ولأن قلقي

يهزمني كالعادة لم أتدرج في الحوار، بل سألته كمن يقذف سهما:

- قل لي يا رضوان.. هل كان اللواط عادة منتشرة في أرضنا قبل سنوات طويلة..

تطلع إلي باستغراب ودهشة. صمت قليلا ثم قال:

- أبعد كل هذه الغربة في بلاد النصارى لم تجد ما تتهم به أجدادك إلا اللواط؟ هذا هو العلم الذي أخذته هناك؟

زممت شفتي وأنا أحاول استدراك الموقف:

- لا أقصد ذلك يا رضوان..

- وماذا تقصد؟

- بالأمس قرأت كتابا يقول إن جبالة والريفيين يفضلون الغلمان على النساء..

ضحك وهو يحرجني بسؤاله:

- وهل كل شيء تقرأه تصدقه؟ قل لي من ألف هذا الكتاب؟

لم أستطع أن أقول له إنه فرنسي، يُجَمِّل صورة فرنسا المنقِذة ويمهِّد للاستعمار بحديثه عن مغرب عظيم مجهول، فأجبته:

- هو جوال ملقب بالدرويش قضى عشرين سنة في الريف وجبالة يجمع الحكايات ويصور عادات الناس وتقاليدهم.. جمع كل الحكايات ورواها لكاتب صاغها في كتاب سماه "المغرب المجهول".

قال بجدية وهدوء هذه المرة:

- شوف يا ابن عمتي.. هذه الأمور يصعب الحديث فيها هنا.. قد يُساء فهمك. في كل بلاد الدنيا يحدث ذلك.. لكن التعميم غير معقول. أنا نفسي أشهد على حالات كثيرة وغيري أيضا وأنت أيضا تعرف ذلك.. نحن مجتمع بدوي يطغى عليه الجهل والكبت. أنت تعرف أن الناس كانوا يعيشون في الغابات، رعاة غنم ومعز.. أو يقضون وقتهم في التسكع.

سألته بفضول:

- قلت إنك شاهد على حالات كثيرة.. أريد أن أعرف.

- هي أمور عادية.. تحدث مرارا.

بعد ساعة من الحديث عدت للمنزل. لم تخرج جدتي من غرفتها. قالت لي فلورا إنها متعبة وتشعر بإنهاك في جسدها. دخلت الغرفة المظلمة. كانت جدتي ممددة على سرير فوقه نافذة صغيرة يتسلل منها ضوء خافت يشبه ضوء القمر. كانت تثبت عينيها في السقف الأبيض ولا تتكلم. قبلت يدها ورأسها فلم تتحرك. حاولت أن أطمئن على حالتها لكنها لزمت الصمت. تشير بأصبعها إلى السماء وتغيب.

كنت حينئذ مثقلا بالأسئلة فانسحبت إلى غرفتي. قالت فلورا:

- أين كنت يا مختار؟

لم أجبها. سحبت الكتاب من تحت الفراش وفتحته ثانية. قالت بحزم:

- أنا أسألك يا مختار.. هل أتكلم وحدي؟

قلت بتردد:

- لقد التقيت برضوان ابن خالي.. سألته عن شيء يشغلني من الأمس.

- ما هو؟

قرأت في هذا الكتاب أن أهل هذه المنطقة كانوا في زمن ما يفضلون الغلمان..

- ههههه.. ههههه

وظلت فلورا تضحك.. تضحك بقوة وتضع راحة يدها على فمها لتكتم ضحكتها. سألتها:

- لم الضحك؟

- لأنك تنزعج من كل شيء.. لأتفه الأشياء. هل تخاف أن يكون أجدادك عاشقين للغلمان؟

بقيت مطرقا لكنها واصلت:

- وماذا قال ابن خالك؟

- مثلك تماما.. قال نفس الكلام..

سألتني فلورا سؤالا لم يخطر ببالي:

- هل ستحكي هذا في روايتك؟ هل ستروي قصص الناس أم ستُلمِّح فقط؟

- لا أعرف.. لا أعرف حقا.

التقطت كراستي ثم جلست في بيت النار على فروة الخروف البيضاء. ورحت أسجل ما حكاه رضوان بالتفصيل. بعدها قرأت على فلورا بصوت جهوري هذه الفقرة من الكتاب:

"آلاف المتهتكين في هذه المنطقة الرائعة بجبالة المسماة ب"الشام الصغير" نظرا لجمال طبيعتها، من تطوان إلى نهر سبو، يقومون في لياليهم الحمراء، بتشجيع عناصر من الجنسين على الرذيلة. وكان بجوار الدرويش شخص يتناول حبات اللوز ويشرب كأسا من الشاي ويبدو من ملامحه أنه جاد ولم يفقد وعيه. وتجرأ محمد على مخاطبته قائلا:

- ألا تفكرون أبدا في الموت؟

فانزعج الرجل من السؤال غير المتوقع ورمق السائل الغريب بعيون قاسية لأنه تجرأ على نقد ضيوفه وأجابه وكأنه يخاطب جاسوسا:

- يا عزيزي، حينما يتوفر المرء على ما يريد وحينما يكون العيد هو عيد المسلمين، فهل هناك ما يمنع المرء من طلب المتعة؟

ولاحظ الدرويش الذي أراد التخفيف من الوقع السلبـي لسؤاله الأول، بأن هذه العادات والتقاليد غير موجودة ببلاده بالشرق.

- هذا طبيعي! لأن وجود النصراني في بلدكم يمنعكم من التعبير بكل تلقائية عن مشاعركم الدينية، في حين أننا هنا، نطلق العنان لحماسنا. اذهب عند بني زروال وسترى هناك أشياء مريعة. فنحن أناس عاديون بالمقارنة معهم.

وتدخل شيخ مدافعا عن الطالب الغريب قائلا:

- نعم، إن هذا الشرقي على حق؛ وأنا أخجل من الاحتقار المستمر الذي نناله من بني زروال. فلو لم يكن أبناء بلدي ذليلين مثل اليهود، لما انخرطوا في اللهو. آه! إن بني زروال يعاملوننا مثل النساء! فلا يمكن للفتاة أو الولد أن يبتعدا عن القرية إلا وتعرضا للاختطاف من طرف هؤلاء المحاربين القساة الذين يتجرؤون أحيانا على مهاجمتنا في عقر ديارنا واختطاف أطفالنا لتلبية رغباتهم السافلة، وعندما يقضون حاجاتهم منهم، يبيعونهم في الأسواق

وغالبا ما نفقد أثرهم إلى الأبد".

حدجتني فلورا بنظرة استفهام وقالت:

- يبيعونهم في الأسواق؟

لكني وقفت مفزوعا أتأمل تلك الشروخ التي تملأ جدران البيت وقد أثارت انتباهي تحت خيوط الشمس. كررت فلورا السؤال فقلت بصوت خفيض:

- هي شروخ كثيرة.. ليست الجدران وحدها التي تصدَّعت.

عسل حر

أمطرت السحب في اليومين التاليين وكان الجو غائما ثقيلا هجم فيه الشرقي بشراسة. تحركت الرياح قوية ومصحوبة بزوبعة غبار داكن. قضيت أوقاتي في بِيت النار. وعلى الرغم من سطوع الشمس في بعض اللحظات فإن الشرقي كان عنيفا جدا؛ ضباب كثيف وثقيل وندي. صار لون السماء رماديا داكنا.. تلبَّدت السماء واسودَّت أطرافها، وهبت تلك الرياح التي تجفِّف الوجه. جوٌّ يجعل القرية أكثر بشاعة؛ حيث تصير الأشجار غامقة مكسوة بالأتربة ويتخذ البحر لون الغيوم الثقيلة المتشبعة بالبخار، وتختفي النوارس في الظلال البعيدة.

في صباح اليوم الذي أعقب العاصفة، أفقت باكرا يلازمني شعور بإنهاك شديد. لكني رغم التعب لم أستطع معاودة النوم. برودة لاسعة تسري في جسدي وتزحف فوق جلدي. شعور بالإغماء يسيطر علي، وبأن دقات قلبـي تتباطأ. لازمني كسل تام وإحساس بالضيق ممزوج بعدم الرغبة في أي شيء. أعرف هذا الشعور جيدا.. خصوصا في الصباح؛ حيث يكون الذهن صفحة بيضاء تواجه العالم مثل فريسة حرة منطلقة تربص بها وحش في قلب الخضرة. شعور صار ملازما لحياتي منذ سنوات طويلة. هلعٌ يصاحبه شك ولاطمأنينة وعدم القدرة على الفعل.

وبينما أبحث عن أقراص الأدوية التي تعدِّل مزاجي تذكرت أن فلورا رمتها قبل أيام. انتبهت إلي بعينين ماكرتين وقالت:

- من الأفضل أن تمشي قليلا في الهواء الطلق.. ذلك أفضل يا مختار.

قلت وأنا أرتعش:

- لكن الجو سؤوم جدا.. سيضاعف شعوري بالقتامة.

- رغم ذلك.. سوف تنتعش.. صدقني..

ارتديت ملابسي الرياضية وخرجت رغم حالة الإنهاك المسيطرة. وصلت إلى شريط الوادي ورحت أركض بهدوء وأتنفس بقوة. أتأمل شجرة التين وقد هرمت. أمسح الحقول بعيني وأتمعن الزرع الذي افترش الأرض. وكنت أتنفس بصعوبة بسبب الرطوبة. قطرات العرق البارد تتصبب على جسدي كأنها ثعابين تزحف فوق رمال لاسعة. شعرت بالعياء؛ كان وزني في السنوات الأخيرة ازداد بسبب إدمان الأقراص المهدئة، والتفريط وعدم التوازن في الأكل، والانقطاع عن ممارسة الرياضة. كنت أعرف أنها أحد الحلول المجدية.. وأنها تمنحني طاقة داخلية قوية، ومع ذلك لم أجعلها عادة يومية. تفوَّق الكدر وهزم تلك الإرادة المشتتة التي يتنازعها نقيضان اثنان؛ أحلامٌ تدفعها إلى الأمام واستسلام يهوي بها إلى هوة سحيقة قاتمة. قرأت مرارا أن المشي هو المعالج القوي للاكتئاب، وأن القراءة والمشي يجعلان الإنسان أكثر إشعاعا وانطلاقا، ومع ذلك لم أفلح في جعل الرياضة عادة يومية مثلما جعلت القراءة إحدى طاقاتي الفعلية. كنت ألهث لكنني أعمد إلى التنفس بقوة.. وأحاول أن أفكر في الأمور الجيدة التي تمنح الطاقة. أبعدت عن خيالي كل الوساوس بالقوة. وصلت إلى البئر. شربت ماء كثيرا باردا وصافيا حلو المذاق. يتقطر الماء على جسدي.. يغسل أطرافي ويشعرني بالحرية. خلال عودتي التقيت بعمي البشير. شاخ بسرعة. فقد ذلك البريق الذي كان يلمع في عينيه. لا يتحدث إلا عن المال ومشكلات الحياة اليومية التي لا تنتهي. كان الحديث فاترا ومقتضبا. شعرت بالعياء وكان هاجس القلق يبدد طاقتي. انسحبت بعلل واهية وتابعت طريقي. حين عدت إلى المنزل وجدت الماء الساخن في انتظاري. كانت فلورا قد أوقدت البُرمة النحاسية وملأتها بالماء. أمدتني بفوطة وبأعشاب

أحافظ على الاستحمام بها. فقد كانت تعرف مزاجي جيدا.. وتسهم في تعديله باستمرار لكن بمزاج أيضا. قلت لها وأنا أنسحب من بيت النار:

- كم أنت رائعة أيتها الجبلية...

دفعتني وهي تصنع فرحة عميقة وتردد:

- وكم أحبك!

على الرغم من شعوري الدائم بالشيخوخة قبل أوانها.. وبأنني صرت هرما مثل هذا العالم البارد، فقد كانت ثمة نقطة نور تشع بعيدا، خلف الذكريات والظلال البعيدة. نور ملاك يرفرف ويحلق.. انبثق من نبع خفي.. ملاك يهمس بصوت طفل مشرد بين سنابل الزرع في الحقول الدافئة. هذا الملاك الذي يأتي في اللحظات الأخيرة لينتشلني من السأم أدركت أنه سبيلي إلى الطمأنينة الهاربة باستمرار.

زارني ملاكي وأنا أتمدد على فروة الخروف البيضاء في بيت النار. بدأت الهواجس تتلاشى وبدأ نور الشمس يسطع. وزقزقت العصافير.

خرجت فلورا في جولة على الشاطئ لتمارس هوايتها في التقاط الصور الفوتوغرافية النادرة. بينما قررت زيارة خالتي رحمة وإن كان خوفي من تعكر المزاج صار هاجسا يلازم تفكيري. لقد صرت مع الزمن والتجارب أشبه ببحيرة راكدة لا تتحمّل الرياح. سيل من الانطباعات المختلفة والمتماثلة في آن يغزو هذا الجسد الذي أرهقه الترقب. لازلت أتذكر السؤال الذي فاجأت به طبيبـي الإسباني الذي عالجني قبل فترة طويلة من اكتئاب حاد ألم بـي وأرهقني لسنتين؛ هل إذا حرمتني يا دكتور من علّتي فإنني سأشفى؟ هل أستطيع أن أتخلص من ذكرى عشق كان ملاذي ووقودي في هذه الحياة؟ هل يتخلص الإنسان من الحقيقة ولو كانت مؤلمة ليعيش في الوهم؟ لكنه أجابني جوابا لازم خيالي وقتا طويلا واستدعى تلك الأفكار التي سعيت إلى أن أجعلها عقيدة ثابتة بداخلي، استدعاها.. لكن سؤاله حرك أمواجها الهادئة: هل كانت

بالفعل حقيقة أم وهما يا مختار..؟

في الطريق إلى بيت خالتي، لازمتني صورة يونس الذي انتهى بمأساة. لماذا يقرر الإنسان في لحظة أن ينهي كل شيء؟ أن يطفئ النور؟ كانت خالتي تعرف أنه انتهى منذ زمن؛ منذ اليوم الذي جعل حياته رهينة بوجود سعاد. لكن، ألم تجعل حياتك أنت أيضا، قبل زمن طويل، رهينةً بوجود حياة؟

عند باب الدار توقفت الأفكار. فتحت لي مريم الباب وقد كشف الضوءُ المنكسر على وجهها هالة من التيه والذهول. واجهتني المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط؛ كانت ظلالي المرعبة تنعكس عليها وتتلاشى فيها مثل أمواج عاتية منفلتة لا تخضع لقانون الجاذبية. وكان جسد مريم البريء ينكمش مثل بقايا كابوس. دامت حيرتي بضع ثوان فحسب، لأواجه بعدها خالتي وهي جالسة إلى جوار النافذة تترقب السماء الغائمة.

أدركت وأنا أبحث عن صيغ أعدِّل بها مزاجي؛ أن ذكرياتي وظلالي.. كل تفاصيلي القديمة في هذه الأرض تخونني، إنها أشبه بطائر باز ذكي ممزق الجناحين، يعشق التحليق عاليا لكنه لا يستطيع. قبلت يد خالتي الباردة.. كانت ترتعش.. لأول مرة أرى خالتي رحمة ترتعش. كل كلمات المواساة لم تنفع وأنا أسعى جاهدا بكل قواي الهزيلة إلى تخفيف آلامها. ورغم أني لا أملك طاقة الحديث والإقناع، ورغم أني صرت أميل إلى الصمت والتأمل والوحدة، فقد تحدثت كثيرا في ذلك الصباح الغائم. أما خالتي فاكتفت بالتسبيح والنظر إلى السماء. عيناها يابستان مثل نبع ناضب. وكان الهواء المثقل بالرطوبة الآتي من الشرق يتسلل إلى النفوس عبر النافذة الصغيرة فيجثم عليها ويصنع جليدا صدئا. قالت بصوت مبحوح، وبعد صمت استدعى عللا أجهد مرارا لإخفائها:

- ألم أقل لك إن يونس انتهى منذ زمن يا ولدي؟ ألم أقل لك إنه حفر حفرته بنفسه..؟

كانت كلماتها متصلبة وجامدة.

- نعم خالتي.. معك حق. لكن أرجوك لا تعذبـي نفسك، الحزن لن يغير شيئا..

وعادت إلى صمتها ورفعت عينيها إلى السماء وراحت تتأمل السحب الداكنة بفتور شديد.

لم أستطع تحمل هذا الجو الندي الرطب الذي ينزف القلب فعدت إلى البيت لأمضي ساعات طويلة في القراءة.

عادت فلورا متأخرة وقد شغلني غيابها. جلست إلى جانبـي تتأمل ألبوم الصور الخاص بجدتها نيفادا وقد امتلأت عيناها بالحب.

قالت وهي تضع الألبوم إلى جانبها:

- أكيد تشعر بالتيه هذا اليوم؟

- كيف تقرئين أفكاري فلورا؟

- لأني أحبك.. وفي هذه الغرفة أشتهيك أيضا..

واقتربت مني بشفتيها اللتين تقطران عسلا. كنت دائما أشبهها بقنينة عسل حر فتضحك هي وتقول بصوت خافت؛ عسل أسود. لكني أجيبها، ثمة سواد أنصع من البياض. قبلتني في عنقي قبلة طويلة ارتعش لها كل الجسد. قلت لها:

- جدتي هنا..

- لا تقلق.. إنها نائمة كعادتها..

انتصبت فجأة وأقفلت باب بيت النار وفتحت النافذة الصغيرة التي تطل على الخارج ليتسرب الدخان الأسود. كانت النار متوهجة في الكانون.. بخار

يتصاعد من البرمة وينتشر في السقف. كنت ممددا على ظهري فوق فروة الخروف، إلى جانبـي ألبوم الصور والذكريات. اتكأت فلورا علي بهدوء وهي تردد بصوت يذوب مثل الشمعة:

- لا تقل شيئا.. تأمل هذا البخار المتصاعد.. كل الأشياء تتصاعد إلى فوق.. إلا نفوسنا يا مختار، أليس كذلك؟ لا تقل شيئا.. أرجوك.. تأمل بياض البخار وهو يذوب مثل بياض الثلج وتأمل الحطب وهو يحترق ودعنا نحترق أيضا..

لكنها لم تترك لي فرصة للتأمل. وضعت شفتيها على عنقي ومررتها على وجهي وجبيني.. رسمت قبلة طويلة على شفتي. كانت شفتاي باردتين يابستين لكن طعم العسل أيقظ نارا بداخلي. ظلت تلتهم شفتي بلسانها الرطب وتمسك رأسي بيديها وكأنها تحافظ على توازني المفقود. ثم خلعت ملابسي وملابسها وهي تقول بكلمات الشعراء الساحرة:

- فلنتحرر من القيود يا مختار.. أريد لهذين الجسدين أن يلتقيا ويذوبا ويصبحا جسدا واحدا.. أريد لهذا الشُّهد أن يصفى من شمعه؛ أريده صافيا كالمرآة عذبا كوجه القمر.

وظلت تقبلني في أرجاء جسدي وهي تمرر أصابعها على جبيني وكتفي وصدري.. تمرر ظفائرها الرقيقة بهدوء فتصنع رعشة ممتدة تزلزل كياني. ثم تقول:

- اغمض عينيك.. وتأمل ملامحي في خيالك.. فكر في الأشياء الجميلة التي تحيط بنا..

أغمضت عيني مستسلما لكني لم أفكر في شيء. كنت كصخرة ثلج تذيبها الشمس. أردت أن أتحرك لكنها أمسكت يدي وجعلتني سجين جسدها الفاتن. وتحت البخار الذي يمتزج بلهيب النار، كنت أذوب. أيقظت فلورا بداخلي كل الأحاسيس المسجونة. أردت أن أقول شيئا.. أن أبادر بالفعل، لكنها

كانت أقوى مني في تلك اللحظات. هزمني جسدها وهو يتراقص فوقي ويتمدد مثل أفعى مسالمة. هزمتني تلك الرعدة المخيفة وهي تنخر كياني الهش؛ آثارها التي تشبه صدى الطبول في ليلة عرس ساخنة. لم أستطع تحمل هذا الارتداد؛ كان الثلج الذي بداخلي لا يقدر على تحمل الشمس الحارقة.. أيقظت فلورا شعورا جديدا انبعث فجأة كأن الشقوق والصخور التي بداخلي تتزحزح ليتبعها انفجار.. كأني عصفور جرب التحليق فلم يعد يهوى عشه. انتفضت فجأة؛ ذهني خال من الأفكار ومن الهواجس، أمسكت فلورا بيدي.. جذبتها بقوة ناعمة شريرة وأنا أتأمل عينيها اللامعتين تحت الدخان. كنا نختنق قليلا.. لكن دخانا آخر كان يخرج من النفوس. لم أعد أطيق الصمت. ألتهم شفتيها وأمص صدرها بقوة كطفل ظمآن. وأمرر شفتي على ساعدها وظهرها وأصنع دائرة صغيرة على سرَّتها.. فتضحك هامسة في أذني ومستسلمة "أرجوك" ثم أرفع يديها وأحضنها بقوة. وحين شعرنا أننا انتهينا.. وأننا لم نعد نتحمل، ذاب الجسد في الجسد. تشابكت الأيادي والأقدام.. وانطلقت الآهات في الغرفة تتصاعد وتتوهج تحت نار الحطب وبخار الماء.. ورأيت نجوما مشعة وكواكب لامعة وأشجارا بثمار وورودا عطرة، رأيت جسدين يحلقان بعيدا. ثم في لحظة واحدة ساد الصمت وتوقفت الآهات. وتلاشى اللهيب وصار الحطب جمرا باهتا. واستلقينا على الفروة منهزمين ومنتشيين، لكني قلت بهدوء:

- أنت الوحيدة التي تعرفين!!

كنوز غمارة

كانت فلورا قادرة أن تصنع فرحتي.. هي الوحيدة التي عرفت الطريق إلى هذا القلب المعتم. ولأني كنت أشعر بعجز يرافقني، وبخوف يمتصُّ حماسي، فقد كنت أراها مثل الشمس في قلب السماء الصافية، تمنحني طاقة نور مشعة.

كل الصور تراود خيالي وتتفجر مثل أشعة الليزر. في تلك الليلة شعرت أني أكثر قدرة على الفعل. انحشرت في بِيت النار لساعات طويلة أسجل في دفتري أسماء العجائز في قريتي ممن قاربوا التسعين ويمتلكون ذاكرة جيدة. كنت قد بدأت رحلة البحث عنهم واللقاء بهم. وكنت أتعمد أن يكون اللقاء مصادفة كي لا أثير خوفهم وشكوكهم، خصوصا أنهم يرتابون من أي حديث خارج حياتهم اليومية البسيطة. التقيت رجالا ونساء، كلهم حدثوني عن جدي وعن الحياة القديمة وعن عام الجوع وعن الإسبان وعن الحرب وعن علماء غمارة الذين ذاع صيتهم في كل البلاد وعن كنوز أهل سوس والجني الحارس. لكن قليلا منهم من كان يحسن الحكي والغوص في التفاصيل والتقاط الإشارات. الأحداث نفسها تتكرر بصيغ متفاوتة في الإثارة. وفي أحيان كثيرة كنت أسجل حكاية يرويها عجوز عن واقعة محددة وأقارنها بما يرويه عجوز آخر فأكتشف أن معظم الأحداث التاريخية تخضع لأهواء المتكلم وغاياته. أيقنت أن السرد التاريخي للوقائع رهين بسياق منتجه وظروف تلقيه. فهذا الشيخ العياشي الربون الذي يقارب التسعين ومايزال يملك ذاكرة الأطفال، حكى لي كيف قنص جدي أباه أيام الحرب مع الإسبان. سألته عن السبب فقال

إن أباه كان يجمع اللوز ليبيعه للجنود الإسبان، فلمحه جدي حينئذ أسفل الجبل الذي يطل على البحر من الجهة الشرقية لأمتار؛ أو ما يسمى رأس promontoire، فقنصه ببندقيته في يده اليسرى مما أدى إلى شللها. لكني حين سألت خالي الحاج محمد عن الواقعة قال لي إن والد الشيخ العياشي كان يتعاون مع الإسبان وينقل لهم أخبار المجاهدين. كان خالي يحكي بحماس وثقة وهو يجتر أمجاد أبيه، بينما أسجل في دفتري رؤوس أقلام وعناوين وملاحظات.

وها أنذا في هذا المساء الصيفي العذب، أشعر بحافز حقيقي لم أشعر به منذ زمن طويل. قررت أن أصوغ الواقعة التي حكاها الشيخ العياشي وخالي الحاج محمد في عنوان محدد، مدركا أن العمل الفني يبنى بالتدرج وعبر مراحل عديدة ولابد للكاتب أن يجمع المادة الضرورية للسرد. كانت الرواية ذات وجهين لكني انتصرت لرواية خالي لأنها كانت مدعمة بالحجج التاريخية.

واقعة المومبار

في صيف 1925 وفي قلب الحرب والنيران بين المجاهدين والإسبان. اشتكى السي ادريس الربون والد الحاج العياشي وصديقه محمد الغماري جدي إلى القائد المركزي للمنطقة. استدعى القائد جدي وأباه الفقيه السي احمد للتحقيق في الواقعة. ذهبا إليه في بيته. قال القائد لجدي الأكبر الفقيه السي احْمد:

- ابنك آ السي احْمد تعاون مع الإسبان.. ينقل لهم معلومات ولديَّ شهود..

سأله جدي الأكبر:

- من هم؟

- ادريس الربون ومحمد الغماري.. ويجب على ابنك أن يدفع غرامة

خمسين ريالا فضية..

ظل جدي الأكبر صامتا بينما قال جدي محمد بحسم وهو يضع خمسة ريالات في يد القائد:

- هذه بركة زيارتي لك. وسأقول لك شيئا واحدا: أنت قُلْ وهم يقولون وأنا أقول، وغربال سيدنا المجاهد تغربل كل شيء..

وخرج جدي وأبوه من البيت وانحدرا عبر الجبال.

بعد شهر التقى جدي شخصا يجمع بيضا فسأله:

- لمن هذا البيض؟

كان الرجل معروفا بالبلاهة الشديدة. أجابه:

- أجمعه للسي ادريس الربون. سيبيعه للصبنيول يوم الخميس.

حاول جدي أن يخفي غبطته لكنه لم يستطع. ظل يضحك بقوة وهو يصعد جبل خنوبة. في الليل قال لأبيه السي احْمد:

- كما ترى يا أبـي.. أرادا أن يحفرا لي حفرة فوقعا فيها..

ظل جدي ينتظر الخميس بفارغ الصبر. أخبر قادة الحرب في الريف بالواقعة وتم الاتفاق حول ضرورة إنزال العقاب بالمخبرين. أرسلوا إليه عشر رماة من الريف ببنادقهم كي لا يتم تسريب الخبر إلى الخائنين. وفي فجر الخميس كان جدي ومرافقوه في الجبل المطل على رأس promontoire؛ أو ما سمي فيما بعد "رأس المومبار" حيث مكان التخابر. ظلوا لساعات يراقبون الوضع. عند الساعة الحادية عشرة بدأ زورق صغير يقترب من الشاطئ مقبلا من الجهة الغربية حيث يتمركز الجنود الإسبان في نقطة تقع عند حافة الجبل المطل على أمتار. وقف القارب عند حافة الشاطئ وخرج ادريس الربون

ومحمد الغماري من بين الصخور متجهين إلى القارب. كان عليه جنديان اثنان وثقا حبلا معقودا بمرساة في قاع البحر. كانا يناديان على الرجلين أن يسرعا. خرج المخبران مذعورين بسرعة وهما يلتفتان جنوبا وغربا. وحين اقتربا من القارب أطلق جدي وابلا من الرصاص نحوه. أصيب السي الربون في أعلى ساعده وعاد مسرعا إلى جحره يتبعه محمد الغماري. أما القارب، فكان أحد الجنديين العالقين به، يطلق الرصاص عشوائيا بينما الآخر يقطع الحبل بأسنانه بعدما تعذر عليه رفع المرساة من القاع.

تملكني شعور بالانتشاء وأنا أصوغ الحكاية وأعيد قراءتها. الليل مازال طويلا وطاقة الكتابة محفزة على السهر. كان لابد أن أنهي موضوعين رئيسين انتهيت من جمع مادتهما؛ عام الجوع وعلماء غمارة.

عام الجوع

كانت سنة 1944 أشد الأعوام قساوة. في هذا العام ولدت أمي ورأت الظلام عوض النور. فبعد جفاف حاد عصف بالمنطقة، ونفاذ محصول الناس الضئيل من القمح والشعير، وهجرة الريفيين إلى المدن بعد تخزين محصولهم الضئيل في مطامير، بدأ الرعب يدب في القلوب. صار الإنسان لا يشبع؛ من يأكل خبزة أصبح يأكل أربع أو خمس.

قال لي عمي البشير باقتضاب، وهو صاحب النكتة، حين سألته عن عام الجوع وتفاصيل الحياة اليومية "القملة يا ابن أخي.. لاشيء إلا القملة" وصمت، بينما ضحكتُ ضحكا عميقا من القلب وهو يردد الكلمة ويزم شفتيه. أما الخالة رحمة زوجة الساقي السي المفضل، طريح فراش الموت، فحكت لي كيف كان الناس يحفرون جذور نبتة "أيرني" من الأرض؛ تُغسل وتُجفف تحت أشعة الشمس ثم تُطحن فَيُستخرج منها نوع من الطحين يمزج مع قليل من الدقيق ويتحول إلى فطائر تسبب تقرحات في المعدة وإسهالا حادا. ولا يكتفي الناس بهذه النبتة، بل يجمعون نوعا من النوار يسمى "الحميضة" وكذلك "البقولة" و"الكرنينة" و"زيت الدرو" المر، وأيضا "البلوط" الذي يقشر

ويخبز.

في ذلك العام، كان الريفيون يموتون في الطرقات. يعبرون القرى قاصدين المدينة، فلا يجدون خبزا. الكل خائف على مخزونه القليل. كان الرعب من المجاعة هو المسيطر على عقول الناس.

أعدت قراءة ما كتبت دون أن أصحح أو أضيف أو أحذف. خبأت الورقة في الحقيبة يتملكني شعور بالحيرة؛ تفاصيل كثيرة أهملتها. راودتني الأسئلة: هل يكفي أن أسرد معلومات عن عام الجوع؟ أليست وظيفة الروائي أن يغوص في هامش التاريخ؛ يصور عالم الناس الخفي وأحاسيسهم المشتركة؟ ألم يحك الساحر عبد الرحمان منيف عن القحط في روايته وأبدع في تصوير الغيمة التي تمر سريعا فوق الناس؟ ألم يصوِّر آثار القحط على السلوكات البشرية فغاص في تأويلها؟ ظلَّت الأسئلة تنهش عقلي. ثم سحبت الورقة من الحقيبة ثانية وسجلت عليها ملاحظاتي الطارئة آملا في العودة إليها بعد أن أشحذ مخيِّلتي من جديد. واصلت الكتابة بحماس مفاجئ تملَّكني وأيقظ أحاسيس الانطلاق بداخلي.. بدّد ذلك الشعور الذي يأسرني مرارا في صور مختلفة تتراوح بين التيه والفراغ السحيق. التقطت هذه المرة الظرف الخاص بعلماء غمارة من حزمة الأوراق المحشورة في الملف. شهادات أشخاص التقيتهم، وملخصات كتب ومقالات قرأتها عبر أزمنة مختلفة. رحت أتصفحها بإمعان وتركيز وأنا أفكر في جدواها وضرورتها الروائية. الأسماء كثيرة ولا تحصى، متباعدة زمنيا وجغرافيا؛ علماء وفقهاء وأولياء صالحون وقضاة ومدرسون؛ منهم من استقر في القرى ومنهم من سافر إلى المدن المغربية المختلفة ومنهم من هاجر إلى دول أخرى.

لمحت أسماء كثيرة في الأوراق والجذاذات؛ الفقيه الولي الصالح سيدي أبو مهدي عيسى المنصوري من قبيلة بني منصور من أسرة أولاد أحمادون الشهيرة بمزاولة الطب التقليدي. والفقيه الشريف سيدي الطيب الوجدي البوعناني الترغي، والفقيه الهاشمي الدحمان الترغي. والفقيه العلامة الأستاذ سيدي عمر بن العربـي الجيدي من قرية تيجساس بقبيلة بني زيات، والعلامة

الباحث المحقق الأستاذ سعيد بن أحمد بن العياشي أعراب الذي نزل عند كبار فقهاء غمارة؛ في قبيلة أزغار عند الفقيه الشيخ محمد المدني أعراب، وقبيلة بني رزين عند بعض فقهائها، ثم قبيلة بني جرير بمدشر "أركل" عند الفقيه عبد السلام بن يحي. والفقيه السي العلمي أعراب من شماعلة والسي ابن أمينة من تجكان، والفقيه الشطون من بني سميح، والفقيه التطواني من تغسة، والفقيه الزمزمي من تجكان.

بقيت أتصفح الأوراق الكثيرة وأتأملها لعل خيالي يجود علي بحلٍّ لمعضلتي. وبينما أرتب هذا الركام، لمحت جذاذة بارزة بخط أحمر كتب أعلاها المدرِّس "الشيخ العياشي أعراب"؛ نموذج الأستاذ الفريد في عصره. أعدت قراءة المعلومات التي جمعتها حول الرجل قبل زمن، وتملكني شعور جديد قاوم كل الفتور الذي ألَمَّ بـي وأنا أفكر في موضوع العلماء. وبعد وقت قضيته في القراءة والمراجعة قررت صياغة فقرة عن هذا الفقيه الذي لا يشبه الآخرين.

الشيخ العياشي

ولد بقرية أعرابن ودرَّس بمدرسة "تالدمان" الشهيرة، وهي مدرسة عتيقة كبرى ذات ماض قديم، تناوب على التدريس فيها مجموعة من فقهاء غمارة وتخرج فيها كثير من العلماء والفقهاء. ينتسب الشيخ العياشي أعراب إلى الولي الصالح سيدي يحيى أعراب دفين قرية أعرابن على شاطئ البحر المتوسط. قرأ في فاس التفسير والنحو وعلوم القرآن. كان يتخرج على يديه ستون طالب علم كل سنة. من سماته الورع والتقوى والاستغناء. طلب منه الإسبان بعد احتلالهم لشمال المغرب أن يعمل قاضيا لكنه اعتذر. يدرِّس في سبيل الله ويرفض أخذ المقابل؛ مُد من القمح كما هو متعارف عليه. يردد دوما لطلابه وأهل قريته "إذا أردتم أن أشارط، ففي سبيل الله". يحكى أن شخصا قال له ذات يوم "منحك الله الرزق يا شيخ.. فاستغل الفرصة ولا تضيِّعها"، حينئذ أخذ الفقيه كسرة خبز ومنحها للرجل وطلب منه أن يسخِّنها جيدا.. لكن الخبز احترق وصار جمرا. قال الفقيه للرجل "هل أردت أن تحرقني مثل هذا

الخبز؟". ويروى أن قائد القبيلة لم يكن يستطيع أن يزايد مع الشيخ، فإذا طلبه شخص لحل مشكلة لا يستطيع أحد منازعته أو رد حكمه. وذات يوم التقى عامل مدينة شفشاون الشيخَ ولم يصدق أنه هو الرجل العالم بهيئته البسيطة وتواضعه. اقترح العامل على الشيخ أن يطلب ما يريد (ملكية طاكسي أو ما شابه) لكن الشيخ أجابه (لا أريد شيئا... فقط حزمتين من التبن للبقرتين). كان يحب العلم ويدرس بحب وإخلاص.. ويعيش ببساطة.

تملكني شعور مبهم وأنا أصوغ المعلومات المتفرقة وأنظم الجذاذات المشتَّتة. لكن هذا الشعور تحوّل إلى مارد ينفث سحره العميق في كياني حين التقطت الجذاذة الخاصة بأهل سوس الذين هجروا غمارة قبل سنوات طويلة تاركين أسرارهم وكنوزهم تحت الأرض. استثمرتُ هذا الحماس المفاجئ وواصلت رحلة الكتابة بشغف ومتعة.

كنوز أهل سوس

يروى أن أهل سوس الذين استوطنوا جبال غمارة هجروها بسبب "الشرقي" الذي حرق كل شيء. لكنهم قبل أن يرحلوا خبؤوا الذهب والنقود المسكوكة والفضة في حفر تحت الأرض وقيَّدوها وسخروا جنِّيا لحراستها. وهاهم بعد سنوات يعودون لاسترداد كنوزهم. كثيرا ما يفاجأ أهل غمارة بوجود حفر عميقة هنا وهناك مسيَّجة بحجارات متراصة، كل حفرة تشبه بئرا صغيرا ناضبا. يعود أهل سوس في سرية تامة يحملون "التقييدة"؛ وهي عبارة عن مخطوطة تدل على مكان الكنز من خلال إشارات وعلامات دقيقة مثل الشَّمس والصخور والأشجار والبيوت. يدوِّنُ صاحب الكنز هذه العلامات بإشراف الفقيه الذي يسخِّر الجن للحراسة. ويجب أن يكون الفقيه متمرسا صاحب تجربة وخبرة، وأن يكون واثقا غير متردد، لأنه سيخوض حربا مع الجني الحارس.

في قرية "إمدران" كان يسكن بيتا قديما من الحجارة والطين، شخصٌ يسمى المسبوك. هو على يقين منذ طفولته أن تحت سور المنزل يوجد براد

فضي قديم مليء بالنقود. لا يملك الرجل أي تقييدة، ولا القدرة على الحفر خوفا من الجني. لكنه عاش زمنا طويلا يخفي سره ويأمل في الحصول على الكنز. وهو الرجل الفقير الذي يعمل حمَّالا يجر عربة بمدينة طنجة. وذات يوم، اهتدى المسبوك إلى شخص يدعي أنه فقيه ومتخصص في استخراج الكنوز. لجأ إليه وحكى له سره ووعده بمنحه نصف الكنز إذا تم استخراجه. وفي ليلة ربيعية ذهبا معا إلى "إمدران". طلب الفقيه من المسبوك ألا يخف إذا رأى شيئا مخيفا في أثناء تعزيمه. استجاب المسبوك وكان الرعب يملأ قلبه، وهو يشير للفقيه إلى مكان الكنز. كانا وحيدين في قلب الليل وفي خلوة الجبل. راح المسبوك يتراجع إلى الوراء في هدوء بينما الفقيه يقرأ ويردد كلمات غير مفهومة، يرفع صوته ويخفضه، وفجأة شهق المسبوك حين رأى ثعبانا كبيرا يطل فوق السور. قال وهو يصرخ بجنون "هاهو الثعبان..". ارتعب الفقيه وظل يرتعش فرماه الجني بعيدا إلى قاع البحر، بينما راح المسبوك يقطع الجبال جريا دون توقف.

تلُّ الهوى

كان صباحا عذبا ذلك الذي قضيته فوق التل عند الحافة المطلّة على البحر. تمددت على التراب الدافىء تاركا قدمي في الهواء الطلق بينما غطَّت الشمس كلَّ رأسي.. فاحتميت بمذكرتي وذكرياتي وسهوت. لم أنتبه لقبري أمي وجدّي يومها.. ولم أعكر صفو اللحظة بتفاصيل منغِّصة، مدمِّرة للفرح. قررت أن أستمتع بالخلوة الجميلة والهواء العذب. من بعيد، يظهر شريط الوادي الذي يصب في البحر ويخترق القرية، وتلوح النوارس الجائعة وهي تتراقص فوق نقطة التقاء الماءين وتتربَّص بالسمك الصغير الذي تتقاذفه الأمواج المتعاركة.

تتماثل الصور في الذاكرة؛ يصير الزمن مجرد كذبة نصدقها لكي نواصل الحياة. إننا نحيا بالمفاجآت التي لا تنقطع.. وبالأمنيات العميقة. لكنكَ كنت تكره المفاجآت طوال غربتك؛ تخاف رنين الهاتف أو جرس المنزل، لا تتحمل الانتظار ولا الأخبار المؤلمة. هل كنتُ أنانيا؟ هل مازلتُ أنانيا؟ رفعتُ عيني إلى الشمس.. لهيبُها سرى في عروقي النابضة، أشعل أحاسيسي القديمة وذكرياتي المحبوسة فأخذني الحنين كالعادة إلى صورتها.

منحتُك ياحياة نارنجة لأدخل الجنة، لكني تهتُ طويلا في دروب الخوف.. تركت الأشياء ورائي وعشت ما تبقى من حياتي في ظلال الأمنيات المكسورة. كانت الفجيعة أكبر، فلا أنا عدت أنا ولا أنت أنت ولا الأرض هي الأرض. تكسرت المرآة التي كانت تجمعنا ذات ليلة شتوية فتكسَّرت معها صورنا وصرنا أشلاء بلا معنى. كنت سعيدا وأنا أقطف حبة النّارنج وأمنحها

لك.. واثق المشاعر والنظرات.. وكنتِ أيضا سعيدة. قلتِ إنني مجنون.. وقلتُ لك إنني أهوج. وقلتِ أيضا فيما بعد إن جنوني كان مفتاحا لقلبك، لكني قلت لك إن الحب يحوِّلنا إلى أطفال ويعيد لنا بهجة الدنيا ودهشة العالم.. لا، ليس جنونا. الجنون ليس قرارا أو حافزا. لقد قرَّرتُ أن أمنحك النارنجة وكنتُ في الحقيقة أمنحكِ الشمس التي أحبها. قررتُ أن أبدأ معك لأتملك نور اليقين الذي انسرب مني، وأبدِّد اللاَّطمأنينة التي أرهقتني، وأنت استجبت.. كنتِ عازمة أن نمضي معا إلى حافة القدر.. نخفقُ مع الريح ولا نتعب مثل صانعي الأحلام الصغيرة وهم يتسلَّقون جدارا من الوهم. لكنني انكسرتُ فيما بعد يا حياة.. أيقنتُ أن الريح كانت أشد مني وأن مرآتي مكسورة. رحلتِ أنت.. قررتِ الرحيل فجأة وتركتِ مداد هذا القلب يسيل.. تركتيه وحده بلا أجنحة في معركة خاسرة. قاومتُ كثيرا.. وقررتُ أن أبدأ مرارا في أرض جديدة، بلا ماض وبلا أمنيات قديمة، لكن الحياة علمتني أن كبحَ الوجع أقسى من الوجع.

رفعتُ عيني إلى الشمس. كانت بعيدة ولاهبة. تنهدت بعمق وأنا أسترجع التفاصيل القديمة بمرِّها وحلوها. أتذكر أني حكيت طويلا ونحن نجلس تحت شجرة النارنج. قلتُ كل الأشياء التي تقال ولا تقال. كنتُ ثرثارا ولم أترك لحياة فرصة للحديث. أردت أن أقول كل شيء.. أن أختصر العالم في صور خاطفة مبهمة ومتدافعة. بينما تنصتُ هي بكبرياء البحر وتبتسم، فتزهر الدنيا وتثمر الأشجار ويصير للعالم معنى. حكيت لها عن القرية وعن عشقي للبحر والصيد ورغبتي أن أكون كاتبا. لكنها أحرجتني بقولها: لا أحد يقرِّر أن يصير كاتبا.. فإما أن تكون كاتبا أو لا تكون. لكن مع مرور الأيام وبعد أن قرأت رسائلي الطويلة التي لا تتوقف قالت لي: أنت بالفعل تملك أحاسيس الكتاب ولغتهم..

لا أدري كيف مرَّ الوقت بسرعة. قضينا ساعات تحت الشجرة. أنا أحكي وهي تسمع، وعيناها تلمعان تحت الظلال المترنِّحة.

وحين طلبت منها أن تحكي لي قصتها، ابتسمت بتغنج وقالت: لقد تأخرنا ويجب أن نرحل. تجمَّدت وظهر الكدر على شفتي.. بينما أخرجَت خاتما فضيا

من أصبعها ومنحته لي وهي تردد: هذا لكي تتذكرني.

أشرقت الشمس في قلبـي وشعرت أني إنسان جديد مفعم بالنشاط. قضيت ليلتي تلك أتخبط بين السعادة والفرحة والترقب والقلق. أنام وأصحو وأنام ثانية.. الليل بطيء وأنا مشرد في الخيال ألملم صورها الهاربة. أمسك الخاتم وأتأمله وأضعه تحت ضوء المصباح فيشع أنوارا متلألئة في قلب العتمة. يضيء ليلي ويمدد فرحتي الطارئة.

قضينا شهورا نلتقي في الصباح ونفترق في المساء. أمنحها رسالة عند نقطة الفراق وأطلب منها رأيها في الصباح. لم يكن يعكر صفونا سوى السياسة. تطلب مني أن أبتعد عن المظاهرات والعمل السياسي، فأجيبها أن النضال ليس اختيارا فحسب بل قدر وواجب.

كانت حياة قادرة أن تصنع فرحتي. معها شعرت أن الدنيا تستحق أن تعاش على نحو أفضل.. معنى الحب ومعنى أن يكون الإنسان سعيدا.. وليس بحاجة للناس. كانت تبدو لي الشوارع جميلةً والأشجار مثمرةً ومعها أيضا عرفتُ قساوة القدر ووجع الفراق. لم يكن يهمني مرارة الاعتقال وألم التعذيب وقساوة السجن والوحدة، بقدر ما شغلني فراقها. كان شوقي إليها يملؤني.. تمضي الأيام في السجن رتيبة بطيئة ومملة تستنفذ كل طاقتي في الحياة. أغمض عيني في الظّلمة فتلوح حياة بثوبها الأزرق وظفائرها الطويلة وهي تخترق الريح مثل شراع.

الآن وأنا جالسٌ على التل، سحبٌ صغيرة تصعد من الشمال عند حافة البحر الممتد.. تبدو الجبهة علي يميني طائرا كبيرا مستلقيا على الماء برأس محدب. رعشةٌ خفيفة تسري في هذا الجسد.. اتخذ العالم من حولي صورة مغايرة للمألوف؛ كأن بريق البحر الذي يشعُّ في الذاكرة محته رواسب الزمن وصار باردا صلبا مثل الجليد.

تنهدت بعمق تحت لهيب الشمس وأنا أسترجع شريط الصور. لماذا يا حياة؟ لماذا تركت هذا القلب معلقا على مشانق الحب ورحلت بعيدا؟ مشيتُ

طويلا وحدي في الطرقات الطويلة وتحت الأضواء الشاحبة. سألت عنك الأمكنة التي جمعتنا في فاس وتطوان.. كل الدروب العتيقة والساحات.. الظّلال والحيطان الندية والأبواب المقوسة. كنت كالمجنون وهو يبحث عن ظلِّه في دروب المتاهات. لم أكن أملك طاقة أخرى للحب.. وأنت تدركين أني من سلالة المتعبين في دنيانا الحزينة. قضيت شهرا في البحث. نفد المال الذي كان بحوزتي ولم تعد أرض فاس قادرة أن تتحملني. عدت إلى تطوان لأواصل البحث وأنا لا أملك سوى آخر رسالة وصلتني منك والخاتم الفضي. ضاقت بـي الدنيا ولم أعد أملك شيئا يربطني بهذه الأرض. ماتت أمي وغبتِ أنت. وها أنذا أخرج إلى الدنيا من جديد بلا نبض؛ خوفٌ ورغبةٌ في التلاشي في آن. شيء يفوق القدرة على الوصف. لكن حلما رافقني في تلك الأيام.. حلما مريعا وجميلا؛ أهوي من فوق تل، وقبل أن ألمس الأرض الصلبة، أطير ثانية وأحلق عاليا.. نقطة نور تلمع في الأفق البعيد.. تستثير خيالي الهش. أحلق وأطير نحوها وهي تبتعد وأنا أسرع.. ألاحقها فيبتلعني الضوء وأفيق من نومي مفزوعا.

كنت أحن إلى القرية حينئذ، لكني لم أقو على السفر إليها.. كانت صورة أمي ترافقني.. ذكريات الطفولة؛ الحزن المتجدد مثل الموج يقذفني إلى دوائر الشك واللايقين. وبدأت علاقة جديدة تنشأ في وعيي؛ الخوف من الماضي ومن الحنين الآتي من الشرق. قررت أن أمضي وحسب.. بإرادة منزوعة الحلم وبيقين المترددين.

مات أبـي بعدها بشهور.. كان قد عانى كثيرا بعد وفاة أمي واعتقالي. لم يتزوج مرة ثانية رغم كل الضغوطات فقاسى الوحدة. أنهكه المرض فاستسلم له. سافرت بعد وفاته بأيام إلى القرية بحثا عن الطمأنينة، لكني كنت في الحقيقة أواصل رحلتي نحو التيه. كنت أعرف أن الحياة لم يعد لها معنى بعد كل هذه الجراح المتواصلة. وحده السفر الطويل من أنقذني من روحي. من جعل هذا الجسد يتمدد في الحياة أكثر لكن بلا روح وبلا طعم. وعلى الرغم من ذلك الشعور المرهق بأن الحياة تافهة وبلا معنى، لم يتوقف الحنين. صرت على يقين أكبر أن كبح الوجع أقسى من الوجع. وكانت هذه الحكمة خلاصة

تجربتي في الحياة. ولولا فلورا لواصلت كبح وجعي.. ولكان اضطرابـي النفسي الحاد الذي عانيته لسنتين قد تفاقم وأرهقني أكثر.. وربما لكنت انتهيت.

تنهدت بعمق وأنا أتذكر فلورا... ذلك الخليط من التعقل والجنون.. الحكمة والسحر.. الكبرياء والضعف، وحدها كانت القادرة على أن تمنحني الحياة من جديد أو هكذا تصورت. بدت لي من بعيد وهي تلتقط الصور؛ لأطفال وطيور ونباتات، كأنها فراشة. كانت تقول باستمرار إن الإنسان بلا هوايات يمارسها لا يشعر بقيمة الحياة.. تبدو كئيبة. ربما لذلك كانت تحثني على الكتابة.. تشجعني باستمرار وتحفزني. بل إنها أعجبت بتلك القصة الوحيدة التي كتبتها في السنوات الأولى من غربتي. طلبت مني مرارا أن أنشرها لكني رفضت. كانت تقول لي "إنها قصة جذابة ولم تفارق خيالي.. إنها تعكس صورتك؛ هروبك وخوفك، عجزك واستسلامك.. هاأنذا أكررها لك يا مختار، لابد أن تنطلق..". لكني توقفت ولم أنطلق يا فلورا. شيء عميق كان يجعلني منفصما عن عالمي. عشت في الشرود.. أقول أشياء بينما يسرح خيالي في أشياء أخرى مبهمة.. تفاصيل صغيرة رقيقة مثل خيوط الفجر في بدايات فصل الخريف. تمتلىء ذاكرتي بالصور.. أقرر بحافز الكتابة أني سأبدأ لكني أصير مثل قطعة جليد تذوب تحت الشمس. تملكني اليقين أني لست أنا.. أني واحد غيري، وأني شخصان في جسد واحد يتصارعان. عشت لسنوات أحارب هواجسي العنيدة، لكن حلم الكتابة لم يتوقف.. كنت على يقين أنه الفعل الأكثر قدرة على تفسير تناقضاتي الحادة. ظل حلما يدغدغني كل وقت ويمثل هاجسا حقيقيا في حياتي الراكدة.

وها أنذا أتذكر البدايات مرة أخرى؛ تلك الاستعارة التي ألهمت خيالي ودفعتني لمواصلة الحلم ولو بجناح مكسور؛ استعارةُ امرأة مثل شراع في قلب النهر. أتذكر فلورا وهي جالسة في مقعدها في الحافلة وقد فتحت كتابا وراحت تقرأ. كان الطريق طويلا بين مدريد وغرناطة. ولأن من عادتي ألا أقرأ خلال السفر بسبب الشعور بالدوار، فقد بقيت أتطلع عبر النافذة إلى الأراضي الفسيحة. كان شعرها الأشقر الطويل يغطي وجهها وكان الشعور الذي يلازمني خلالها هو الوحدة. الطريق طويل وأنا لا أتحمل النوم في الحافلات.

لكن فلورا كانت سعيدة ومنتشية.. تقلب الصفحات وتسجل في دفترها ولا تلتفت.. إنها تشبه شراعا يخترق الريح والصخور في قلب النهر الجارف.

لكن الصخرة تدحرجت ببطء وأذابتها الشمس. فقد لمحت الشقراء تنقل نصا من كتاب مجلد تبدو الكلمات في صفحاته مكتوبة بالعربية. أثار المشهد فضولي.. سألتها فأزاحت ظفائرها الطويلة وانكشف أمامي وجهٌ مثل المرآة، صاف مثل الغدير، يشعرك بالطمأنينة ويحفزك على الثرثرة. ولأن من عاداتي السيئة أنني كثيرا ما أقيم الناس من تعبيرات وجوهم، فقد شعرت حينئذ بالألفة وأنا أختلس حنينا مبهما من عينيها اللتين تبتسمان وتخفيان مرحا عذبا. بدت لي مثل زهرة تطوف على سطح البحر.. تقلبها الأمواج دون أن تهوي بها إلى القاع. زهرة بليلة توهم أنها مستسلمة لكنها تنتفض فجأة وهي تلمع تحت الشمس وتتناثر صورا متماثلة مثل الصدى. قالت لي ببريق خطفني: نعم أتحدث العربية.. هل أنت عربـي؟ أجبتها أني مغربـي مقيم بغرناطة وأعمل بالثقافة منذ سنوات وتعبت. ضحكت هي وقالت: لا أحد يتعب من الثقافة.. أليس كذلك؟ فأجبتها بمزحة طارئة: القصة طويلة جدا.. لكن إذا لخصتها سأقول لك إني تعبت لأن وقتي ضاع في القراءة والبحث ولم أكتب شيئا. قالت: آه.. فهمت.. فهمت قصدك.

لكن جليد فلورا ذاب على وقع الحكايات الطويلة. حكيت لها عن انتمائي لقبائل غمارة.. وسبب منفاي الاختياري. ودون أن أتعب في الشرح وجدتها تعرف التفاصيل. وكم كانت دهشتي كبيرة حين حكت لي عن جدتها التي كانت تعيش في الجبهة ما بين أواخر العشرينات حتى الاستقلال عام 1956. حكت عن جدها الطبيب الإسباني وأمها التي ماتت وهي صغيرة وعن رغبتها في زيارة المغرب.. أو على الأصح بيت جدتها القديم في الجبهة.

كنت أنصت لها وأنا أتطلع عبر النافذة إلى التلال البعيدة وأحن. غمرتني سعادة حقيقية وأنا أحكي عن القرية وذكريات الطفولة. وكانت فلورا تنصت ببراءة الأطفال ودهشتهم. وصلت الحافلة إلى غرناطة. سجَّلت رقم هاتفي.. ومنحتني فيلا فضيا صغيرا كان في حقيبتها وقالت: هذا لكي تتذكرني.

ثم طبعت قبلة صغيرة على وجنتي ورحلت. ووجدت نفسي بين خاتم حياة الفضي وفيل فلورا الفضي، أبحث عن سر هذه التماثلات التي نحيا بها.

نيفادا

التقطت فلورا من حقيبتها السرية العلبة الجلدية الحمراء الصغيرة وحشرتها في محفظة وضعتها على ظهرها بإحكام شديد ثم عقدت حزامها عند بطنها كأنها تستعد لمعركة. أمسكت ألبوم الصور بين يديها وخرجت إلى الشمس. كان صباحا ربيعيا لطيفا يعكس ظلاله البراقة على صفحة البحر وهي تتلألأ وتشع. حين تطلعتُ إلى الشمس شعرتُ برهبة.. كأنها تسرق لحظات الصفاء بداخلي لتكشفني أمام العالم جثة هامدة بلا روح. وضعت ساعدي الأيمن على عيني واحتميت به من خيوط الشمس المرهِقة. قالت فلورا وهي تشير بيدها إلى الجهة الشرقية عبر نافذة السيارة:

- متشوقة لرؤية الجبهة يا مختار.. أشعر أن حنينا مبهما يسري في ضلوعي..

ثم تساءلت وهي تتطلع إلى السماء:

- هل يحن الإنسان إلى مكان لم يعش فيه؟ هل يمكن لذاكرة مفرغة أن تصنع حنينا؟

بقيت صامتا. لم أكن أملك إجابة. كنت أفكر أنا أيضا في همومي الخاصة وحنيني العاجز.

عشت بالجبهة في بيت مازلت أتذكر تفاصيله الصغيرة والكبيرة. بيت

من طابقين اثنين وحديقة صغيرة بها شجرتان صغيرتان لا تنموان، لكنهما تظلِّلان باب البيت من أشعة الشمس التي تخترقه في الصباح الباكر. كنا نترك الباب مفتوحا ليدخل الهواء اللطيف ويعبر ممرا طويلا يفصل صفَّين من الغرف المتقابلة. وفي نهاية الممر حمام تقليدي احتل ربع مساحة المنزل. كانت معظم نساء العائلة وبناتها يفضلن الاستحمام به مرة في الأسبوع لأنه كان يعمل بالحطب. وحين ينتهين من الاستحمام يجدن أمي قد انتهت من إعداد ثلاثين رغيفة من القمح.. تملأ أمي المائدة بالرغيف والفطائر والعسل والزبدة والبيض البلدي والزيت والحلويات الطحينية وكؤوس الشاي. كان يحلو للنساء أن يجتمعن في بيتنا القديم ولا يتوقفن عن الحديث والثرثرة حتى ينتصف الليل. كنت أتلصَّص على النساء وهن يتغامزن وأحيانا يرقصن.. وذات يوم لمحني أبـي أطلُّ من ثقب الباب على مجلسهن فعاقبني أشد العقاب.

ومثلما تنفث الجبهة ذلك السحر في الذاكرة، فإن صورا أخرى نقيضة لم تسلم منها هذه المخيلة؛ صور العساكر المغاربة الذين وفدوا إلى الجبهة بعد الاستقلال. كانوا عنيفين لا يبتسمون. كنا أطفالا نلعب ونطل عليهم في ثكنتهم العسكرية وكانوا هم يسبوننا بحناجرهم القوية. كنا نراهم كائنات فضائية غريبة حلَّت على أرضنا الهادئة. ولا أنسى ذات يوم حين لمحني أحدهم أتسلق السور.. جذبني من يدي وجرني إلى الثكنة وهو يسب وأنا أرتعش. ولولا أبـي الذي أسرع لكنت انتهيت بين يديه.

ابتسمت وأنا أجول بعيني من نافذة الطاكسي عبر صفحة البحر الكبيرة وأسترجع الصور القديمة.. انتبهت جيدا ونحن نطل على الجبهة مثلما ينتبه هواة الفن التشكيلي للوحة جميلة في معرض تشكيلي. كانت فعلا تبدو مثل لوحة فائقة الروعة. صخور ملساء كبيرة شامخة تطل على بحر متوسطي ناعم يختزل تاريخا ممتدا. وكانت فلورا تقول لي وهي تضع راحة كفي على قلبها:

- قلبـي يدق يا مختار.. جدتي نيفادا عاشت هنا أجمل أيامها. هنا دق قلبها أول مرة.

التقطت العلبة الصغيرة من محفظتها وفتحتها ثم أخرجت خاتما فضيا عتيقا. أمسكته بأطراف أصابعها بقوة ومدت يدها خارج النافذة وتلقفت هواء الجبهة وهي تردد:

- فلنزرع الحب يا مختار.. مثلما زرعته نيفادا قبل عقود..

أجبتها بسؤال فلت من لساني فجأة بنغمة ساخرة:

- هل صحيح زرعت الحب يا فلورا..؟

سحبت فلورا يدها وصمتت ثم قالت بحسم:

- لابد أن تكسِّر فرحتي يا مختار.. لن تتغير.

انتبه السائق إلى حالة التوتر التي سادت فجأة فرمقني بنظرة فضول مقيتة. لم أعر الأمر اهتماما أكبر حقيقة؛ فقد كانت الجبهة تستأثر بخيالي وذاكرتي حينئذ.. تقترب الصور القديمة وتبتعد مثل شمس مترددة بين الاحتجاب والسطوع. لمحت عند مدخلها بنايات كبيرة؛ بعضها مرتفع وبعضها الآخر غير متناسق. طلبت من السائق أن يبطئ سرعة السيارة فاستجاب. ورحت أتأمل صف المنازل الطويل والمعرج. بعضها مطلي بالأزرق والآخر بالأخضر الفاقع وبعضها بالبنفسجي. لاحظت أيضا أن الطريق الطويلة التي تفصل المنازل عن البحر وتخترق الفضاء الشاسع نحو الميناء قد تآكلت من الجانبين وملأتها الحفر. وإذا استثنينا منظر الصخور المطلة على البحر والتي لم تمسها يد البشر بعد، فإن الإحساس الذي انتابني حينئذ، ونحن نخترق بعيوننا شوارع الجبهة ودروبها الضيقة، هو البشاعة.

نزلنا بالقرب من الميناء. رائحة مقززة تخنق الأنفاس.. يملأ الغبار الرصيف الإسمنتي المتآكل. جدران المنازل القديمة المطلة على البحر صار بياضها متشحا بلون الطين المبلل بمياه عكرة. اتخذت الحفر المنتشرة شكل أحواض مائية حقيقية؛ رائحة الدم المنبعث من محل لبيع الدجاج وبقايا السمك

المتعفن والمياه المتسللة من البيوت؛ كلها لم تجد منفذا لها غير سور الميناء الذي يحبسها ويجعلها مثل سحابة داكنة معلقة فوق تل من النفايات. بدا لي الميناء وأنا أستنجد به من البشاعة هو أيضا باهتا وقد تراجعت نسبة مياهه وصار مثل وردة تحتضر.

نظرت إلى فلورا.. كانت هي أيضا يابسة تذبل تحت لعاب الشمس. أرخت يديها شبه منهزمة بينما ظل ألبوم الصور معلقا في أصابعها. أمسكتُ يدها وخطونا داخل الميناء دون أن نلتفت يمينا أو شمالا.. ثم صعدنا إلى الجبل عبر منازل متفرقة بلا انتظام.. وكانت الشمس تشتدُّ فوقنا وترخي بأشعتها مثل برتقالة ناضجة تضيء بحمرتها عتمة الحديقة. شعرت بالعياء وأنا أصعد الجبل بينما كانت فلورا طليقة.. تمشي بثبات وسكينة. كنت بدأت ألهث حين اقتربت من القمة. وقفت قليلا واستدرت ورائي. انتابني دوار خفيف وبدا لي البحر بعيدا ورهيبا وبدت الجبهة أيضا نقطة صغيرة في فضاء كبير. لكنها بدت أكثر جمالا من فوق.

تابعت الصعود وكان لوني باهتا شاحبا يميل للاصفرار. لا نقطة دم في وجهي المتغضن.. جبيني بارد وحلقي يابس. أمدتني فلورا بتمرتين وماء معدني. وصلنا إلى القمة. يبدو مزار "سيدي يحي الورداني" وحيدا فوق تل يطل على بحر الجبهة. في الجهة الشرقية شاطىء "مرسى الدار" هلالي الشكل وقد حل فجأة في السماء الرطبة ليثير الحنين ويحفِّز الذاكرة على التقاط الصور البعيدة. مياهُه صافية.. افترشت الأحجار والنباتات المتناثرة هنا وهناك أعماقَه بانتظام وسكون مطلق. في الناحية المقابلة، وعند أسفل الجبل، تربض الجبهة مثل سمكة نائمة تفترش رمال البحر. كانت تبدو من الأعلى أكثر جمالا وانتظاما. قلت لفلورا:

- لا نكتشف حقيقة الأشياء إلا من الداخل فقط.. نحن نصعد إلى الأعلى دائما لنتخلص من البشاعة التي تطاردنا.. لكننا للأسف ننسى أن البشاعة تصير جزءا من ذاكرتنا لأننا سنعود حتما إلى الأسفل.. وجودنا هنا مؤقت وعابر..

كانت فلورا تتنفس قليلا من الهواء النقي المحمل بالأعشاب ورائحة الماعز وطراوة البحر. قالت لي وهي تتأمل المزار:

- أليس هذا هو مزار الورداني يا مختار؟

- نعم هو..

أجبتها وأنا ألتقط أنفاسي بهواء حر عتيق. ثم تابعت:

- ها أنذا حققت طلبك. لماذا كنت تلحين على زيارة هذا المكان إذن..؟

أخرجت من محفظتها العلبة الصغيرة مرة أخرى وهي تشير إلى البحر وتردد:

- في واجهة المزار جهة البحر لابد أن أمشي مسافة ما حتى أصل عند حافة الجبل حيث بناية إسبانية قديمة كما أوصتني جدتي.

قالت لي وهي تلملم دهشتها:

- هي بالتأكيد تقصد تلك البناية الأثرية القديمة.. أكدت لي نيفادا أن بيتا صغيرا أشبه بكوخ كان يطل على البحر ويواجه المزار.

أشرت بيدي إلى الحافة وأنا أتأمل أطلالا وبقايا برج عسكري قديم:

- نعم فلورا... هي أطلال قديمة.. جدران حجرية مكسورة. نيفادا تتحدث عن الماضي البعيد.. كل الأشياء تتغير..

ثم طلبت مني أن أقف وأتبعها وهي تتمتم:

- حكت لي نيفادا أنها كانت تجلس مع جدي عند تلك الحافة مساء كل يوم ويقضيان أجمل الأوقات تحت ظلال الشمس وهي تغيب. كانت تتكوَّر في حضنه وكثيرا ما غلبها النوم لساعات.

وصلنا إلى الحافة. قالت فلورا:

- كان جدي حين ينهي عمله بالجبهة.. يعالج المرضى أو يفحصهم، يشعر براحة عميقة. يطلب من نيفادا أن تعد شايا وكعكة ثم يصعدان إلى قمة الجبل.. يجلسان معا ويحكيان تحت ضوء القمر. في هذا المكان ولدت قصة حب رائعة.. وفي هذا المكان أيضا جاءت إلى الدنيا ماما ألْما.

ساد صمت كنت خلاله أفكر في الماضي؛ صور كأنها صبيب ماء. بينما قالت فلورا:

- أريد أن نجرب السمر على حافة ضوء القمر يا مختار. نجلس معا ونحيي الذكريات.. ممكن؟

لم أجبها. كنت أفكر حينئذ في شيء آخر.. في البارود والرصاص والقنابل التي ملأت هذا الجبل قبل عقود. كنا نحفر التراب باستمرار ونبحث عنه لنلعب به في ساحات الجبهة وحدائقها. وخطرت على بالي فجأة الأقدام العارية وهي تجوب هذه الجبال والصخور؛ أقدام متورمة ومشقوقة.. أصوات الطائرات المفزعة وهي تلقي القنابل على المجاهدين وعلى القرى والأسواق المكتظة كما حكى جدي وكما قرأت في الكتب. كل الصور راودتني وأنا أنظر إلى فلورا وهي تحكي بحنين يلمع في عينيها مثل لمعان سيف قاتل. قلت لها:

- نذهب؟

أجابتني بحدة:

- أنا محملة بوصية يا مختار.. أقصد وصية جدتي نيفادا..

- ما هي؟

- طلبت مني أن أدفن هذه العلبة في هذا المكان.

لزمت الصمت. فتحت فلورا العلبة وأخرجت خاتما فضيا منقوشا ورفعته إلى السماء. كان يلمع تحت الشمس.. أعادت الخاتم إلى العلبة ثم التقطت فأسا ذات سن حديدية صغيرة ويدا خشبية قصيرة من حقيبتها وراحت تضرب في أعماق التراب. وضعت العلبة في الحفرة العميقة وغطتها بالتراب مرة ثانية.. وسكبت قطرات من الماء وهي تردد:

- نيفادا الآن سعيدة.. سعيدة جدا..

التفتت فلورا إلي والدهشة تملأ عيني. كانت تذرف دموعا هادئة. لأول مرة أرى فلورا تبكي.. حضنتها بقوة وقبلت جبينها. كانت ترتعش. ثم سمعت صبيا من بعيد وهو يصفر بقوة.. فاعتدلت.

تطلعت إلي فلورا بعينين غائمتين وهي تردد:

- سنزرع الحب يا مختار... نيفادا أيضا زرعت الحب. لم تزرع غير الحب.. أتفهمني؟

اتكأت برأسها على كتفي وألقت نظرة شاردة على البحر. بدت الجبهة مثل فانوس معلق في مقدمة مركب تائه. ظللت أربت برأسي على جدائل شعرها الناعم. شبكت يديها في يدي وتنهدت بقوة وهي تقول:

- نيفادا اشتاقت إلى هذا المكان.. تبكي كثيرا وهي تتذكر تفاصيلها هنا.. أجمل أيام عمرها. تحكي لي عن الحدائق والشوارع الأليفة وعن حب الناس وحياتهم المشتركة. عن الحريرة المغربية في رمضان، وعن الأعراس الجبلية، وحفلات الباليه.. لم تكن تتوقف عن الحكي. لقد أحبَبْتُ الجبهة من حكاياتها.. أتفهمني؟

كنت أرتب شيئا ما في خيالي لأقوله.. لكني تراجعت. أعرف أن الحديث سيجرني إلى الاحتداد.. ففضلت الصمت. واصلت فلورا:

- أريد أن أرى بيتنا القديم يا مختار.. البيت الذي عاشت فيه أمي

طفولتها. أكيد ما يزال موجودا.. أرجوك ساعدني.

رأيت في عينيها حنينا وقلقا عذبا. أمسكت يدها وضغطت عليها ثم قلت:

- كل شيء سيتم..

رفعتُ عيني إلى الشمس.. كانت تضيء بحر الجبهة ودروبها الضيقة. قلت وأنا أشير إلى شاطئ "مرسى الدار":

- أتعرفين فلورا؟ هذا هو المنحدر الذي كانت تسلكه الفتاة التي ترغب في الزواج.. تحملُ شمعةً وتسبحُ في البحر عارية..

برقت عيناها وقالت بلهفة:

- وهل فعلا تتزوج؟

أجبتها:

- وهل كانت زوجة المراقب الإسباني أيام الاستعمار تصدق مثل هذه التخاريف لتتدحرج عبر الرمال والناس تتفرج؟

قالت:

- الحاجة ربما تجعل الإنسان يستسلم..

ثم أردفت:

- عليك أن تسجل هذه التفاصيل في روايتك.. هي جزء من حياة الناس وأسرار هذه الأرض..

- نعم هي أشياء كثيرة.. معتقدات يتمسك بها الإنسان لكي يجد حلولا مجدية لمعضلاته..

ثم تابعت وأنا أشير من قمة الجبل إلى الأسفل:

- هناك أيضا.. يوجد كهف مظلم، تقصده المرأة العاقر التي ترغب بالإنجاب.. يقال إنها تبول هناك في ظلمة الكهف. كما أن المرأة التي تعاني هبوطا في رحمها فإنها تفتح فرجها للأمواج التي تصطدم بالصخور فترتد قويةً ويساعدها ذلك على عودة المهبل إلى وضعه الطبيعي.

خلفنا كان مزار سيدي يحي الورداني، بقبته الصغيرة الصفراء ونوافذه المربعة الضيقة وبابه الأزرق، ثابتا مثل حارس يقظ.. يعتلي قمة الجبل المطل على الجبهة وشاطئ "مرسى الدار" ويواجه المتوسط وحيدا بجدرانه العتيقة التي شُيِّدت قبل خمسة قرون. اقتربنا من المزار.. قالت فلورا:

- أريد أن أراه من الداخل يا مختار..

خطوت بهدوء تتبعني هي بحذر.. كنت أتلمس الوساخة المنتشرة في المحيط؛ الأكياس البلاستيكية وقارورات المياه والغائط المتيبس لبشر وحيوانات. مزيج من روائح العشب الأخضر وزبد البحر والتربة الندية وشمس الربيع، تكسِّرها رائحة الأزبال وبقايا البلاستيك المحترق. دخلت إلى المزار وخلعت حذائي.. كان صفير الطفل الصغير يصل إلى أذني متتابعا ومزعجا. سألتني فلورا:

- لماذا يصفر ذلك الطفل؟

- ربما يعتقد أننا سندنس المزار.. ربما..

ضحكت وقالت:

- هل مايزال الناس يحجون إلى هذا المكان؟ حكت لي نيفادا عن طقوس كثيرة كانت تمارس في السابق.. عن الجموع التي تنطلق من ساحة الجنرال مولا وتقطع الجبال حتى تصل إلى هنا وتقدم القرابين. يذبح العجل ويوزع بين الناس.. بينما يحمل بعضهم الشموع وينخرطون في الدعاء

والبكاء..

- نعم.. هذا الذي كان يحدث. أنا أتذكر صورا من المشهد. زرت المكان وأنا صغير لكني أتذكر سمات السعادة وهي تنتشر في الجبهة في اللّمة بعد انتهاء الموسم الفلاحي واحتفال الناس. يقام هذا الكرنفال منتصف كل أغسطس من كل عام. يملأ الصخب ساحة الجنرال مولا؛ صفير الأطفال وحلقات "أحيدوس والهايت"، حلويات العيد على طاولات مرتصفة بنظام على جانبـي الطريق. خيام كثيرة تضم مختلف السلع من ثياب وملابس وأحذية وأفرشة ومواد غذائية. الكل يعرض سلعته ويستخدم حوافز مختلفة لجذب الزبناء. ويتوافد على الكرنفال كل أهالي القبائل المجاورة، يأتون على دوابهم أو عبر المراكب التقليدية. لكن فيما بعد، استخدمت السيارات ومختلف وسائل النقل الأخرى، حينئذ كان الكرنفال قد فقد سحره الأخاذ وتحول إلى شبه ذكرى بلا أي بريق.

بقينا عند باب المزار وتواصل الصفير. قالت فلورا:

- ما تقصد بالهايت؟

- هههه.. تريدين معرفة كل شيء؟ حسنا.. هو نوع من الشعر الارتجالي الهجائي حيث التناظر بين النساء والرجال. كانت والدة الرايس عبد الخالق تتقن هذا الفن الشعبـي. لا زلت أتذكر بعضا من شعرها:

ألاّ يلالـي أيـا الحمام في العالـي

مانسماحشي أيا لي يجي يحني خلاني

كانت تحمل البندير إلى أعلى وترقص وتلقي أشعارها بينما يتجمع الناس حولها منبهرين.

خلعت حذائي ودخلت إلى المزار بينما بقيت فلورا عند الباب يطل الشوق من عينيها. صندوق مسيج بثوب أبيض وشموع معلقة عند وسط

الأقواس العتيقة.. رائحة البِلى تنبعث من الأسفل وزوايا الجدران المتآكلة.. الغبار الشديد حوَّل السجاد إلى مستنقع. لم أقل شيئا.. كان الصفير يزداد حدة. خرجت بسرعة متوجها إلى الطفل.. اندفع بسرعة تاركا معزتيه. ظلت فلورا تضحك وهي تقول:

- إنه طفل يا مختار..

التفت إليها بعينين مندفعتين:

- أعرف أنه طفل.. وأنا أيضا طفل..

وضحكَت ثانية وهي تخرج من المزار. تبعتها وسط الهدوء الذي ساد المكان ثانية. كانت المعزتان تلتهمان العشب في صمت.. بينما ترخي الشمس ظلالها على البحر فبدا مثل فانوس في قلب الظلام. قالت فلورا:

- نذهب إلى الجبهة؟

رفعت عيني إلى الشمس وهمست:

- فلنذهب..

وانحدرنا عبر الجبل. بدت الجبهة مثل صحن في قعر بئر. انحدرت بقدمين لا تملكان شجاعة القرار.. قادتني الطريق الرقيقة المعرجة فاستسلمت لها مثل صبـي يلتصق بأمه في أول يوم دراسة.

الرائحة العطنة من جديد؛ بقايا السمك المتعفن ممزوجة بالمجاري التي تصب في الميناء.. خليط قاهر يدب في المخيلة ويستثير كل مشاعر الضيق والنفور. شعرت برغبة في الغثيان.. تملكني الفتور فجأة لكن رغبتي في الاكتشاف كانت تحول دون هروبـي. تنهدت بشيء من الاستسلام ونحن نعبر الطريق المؤدية إلى ساحة الجبهة حيث بقايا أشجار نخيل قديمة نخرها السوس. كانت أوراقها متهدِّلة متراخية تتسلل أشعة الشمس من بين سعفاتها

المغبرة. كنت أتأمل الأرصفة المتآكلة وقد غطت حجارتها طبقات الأتربة المتراكمة وملأتها الحفر المنتشرة على صفحتها فصارت أشبه بحقل جرفته السيول. قلت لفلورا:

- هذه الأرضية شيَّدها الإسبان قبل عقود طويلة لكن معالمها بدأت تندثر على ما يبدو.

سألتني وعيناها تحملان دهشة وأسى:

- ألم تبن الحكومة المغربية شيئا بعد الاستقلال؟

لم أجبها. ففي تلك اللحظات كان وقع خطوات غير منتظمة يخترق أذني. وقف أمامي شخص بملامح مألوفة؛ عينان كليلتان وفم صغير يابس مشقوق. وضع يده على كتفي وهو يسألني بنبرة ملغزة:

- لا تقل يا مختار إنك نسيتني؟

بقيت صامتا أحدق في وجهه.. أريد أن أقول شيئا.. أن ألتقط هذا الرجل من ذاكرتي المشروخة لكني لم أفلح. اختلطت صورته بوجوه عديدة. شعرت بارتباك.. لكنه قال بنبرة ظافرة وهو يشير إلى آثار جرح قديم على جبينه:

- هل تذكر، قبل زمن طويل، حين رميتني بحجارة على جبيني وكنت ستنهي حياتي؟

وضعت راحة يدي على جبيني وأنا أضحك ضحكا متقطعا:

- نور الدين.. نعم نور الدين..

وحضنني بشدة وهو يرحب بـي ويبتسم.. تغضن وجهه وبدا أكبر من سنه بكثير مع انتشار الشيب في أطراف شعره المتكدِّس. قلت له:

- تغيرت كثيرا يا نور الدين. صورتك القديمة ماتزال تراود خيالي باستمرار.. أنت الوحيد الذي يجب أن أتذكره..

ثم قلت لفلورا التي ظلت تراقب الخطابات المضمرة الملغزة:

- هذا نور الدين.. الذي ترك بصمته في رأسي يا فلورا.. تلك الحفرة العميقة التي لا ينبت فيها الشعر أبدا..

وضحكت وهي تقول:

- لكنك كنت ستنهي حياته أيضا.. أليس كذلك؟

- نعم.. هي قصة طويلة..

قلت لنور الدين الذي ظل يرقب فلورا بدهشة:

- تغيرت الجبهة يا صديقي.. ما الذي حدث؟

زمَّ شفتيه وقد تضرج وجهه. وساد صمت بدا خلاله وجه نور الدين ممتقعا.. قال بما يشبه الاستسلام:

- لا فائدة من الحديث. صدقني.. أشياء كثيرة ضاعت ونحن نتفرج..

سألته فلورا:

- هل بإمكانك أن تدلني على المنزل الذي كان يقطنه الطبيب الإسباني مانولو فترة الحماية الإسبانية..

التفت إلى يساره وهو يرفع يده:

- طبعا.. هذا هو..

ثم أشار إلى نقطة بعينها حيث مقهى صغير مكتظ يتوسط بقعة تقابلها منازل متراصفة.

سألته:

- أليس هذا منزل عبد السلام حميش الموظف بقيادة الجبهة كما أتذكر؟

- نعم هو يا مختار.. هو منزله الذي اشتراه من الطبيب مانولو بثلاثمائة درهم بعد الاستقلال بأيام..

بينما قالت فلورا:

- لا يمكن.. ليس هو. منزل جدي كانت له شرفة كبيرة تطل على حديقة.. وهو من طابقين وليس به مقهى..

ثم التقطت ألبوم الصور وفتحته وأشارت إلى البيت وهي تردد:

- هاهو البيت يا مختار.. شرفة نيفادا المطلة على النخلة الكبيرة.. أين هي الشرفة وأين هي النخلة؟

قال نور الدين وهو يضحك:

- أولاد السي عبد السلام رحمه الله حولوا الطابق الأرضي إلى مقهى بسبب موقعه التجاري الهام المطل على الساحة وعلى المنفذ الوحيد التي يربط الجبهة بالطريق الوطنية.. وكان لابد عليهم أن يحولوا أيضا الشرفة إلى غرفة للنوم بعد أن ضاق بهم المنزل بغرفه القليلة..

نور الدين يحكي بلا مبالاة، بينما فلورا تتأمل الصورة وترفع عينيها إلى المنزل المطلي بالأزرق الفاتح والأبيض والكستنائي وألوان أخرى بلا تناسق أو طعم وهي تردد:

- لا يمكن يا مختار.. لا يمكن..

وحين توجهنا جميعا إلى المقهى الصغير.. واجهنا الدخان المنبعث من الداخل؛ رائحة السجائر المحشوة بالحشيش والكيف وهو يتصاعد في شكل سحب بخار كثيفة من أعواد السبسي التي انتشرت في المقهى مثل مدافع صدئة في حرب منتهية. شعرت باختناق بينما تتأمل فلورا واجهة المنزل وبابه الحديدي غير المطلي وقد تآكل بفعل الرطوبة.

التفت إلى نور الدين وكانت نظراتي تضيع وسط الدخان. أردت أن أقول له إن هذا الجسد الميت بحاجة لنا جميعا.. لكن الكلمات تبعثرت فجأة. أي كذب؟ لم أكن أملك طاقة الفعل ولا طاقة الحلم..

انخفضت حدة الصراخ في المقهى الصغير. الوجوه المتغضنة تحدق فينا شاردة ومستطلعة. همهمات وإشارات ورائحة فضول تسري في العيون المتعبة التي لفحتها شمس الجبهة الساخنة. جلسنا عند باب المقهى نحن الثلاثة. طلبنا كؤوس الشاي المنعنع. فتحت فلورا ألبوم الصور وراحت تقلب الصفحات. تقارن بين بيت جدها والمقهى.. ترفع عينيها إلى السقف وإلى الجدران الباهتة.. تحدق في أرضية المقهى وتمرر قدمها على السيراميك ذي اللون الفاقع وتبحث في الصور عن سماتِ تماثلٍ مفقود. قالت وهي تقترب مني:

- كل شيء تغير يا مختار.. لون الجدران والسيراميك وباب البيت وفناؤه.. كأنني أبحث عن وهم، صورة متخيلة، لا ذكرى لمكان حقيقي عاش فيه بشرٌ أجمل أيام عمرهم. طلبت مني نيفادا أن أصور لها البيت.. تريد أن تراه قبل أن ترحل.. تريد اللوحة التي تركتها معلقة في الغرفة المطلة على النخلة الكبيرة قبل أن تهاجر لغرناطة.

ظلت فلورا تحكي كما لم تحك من قبل.. ثم قالت بذهول:

- لا الشرفة بقيت ولا النخلة.. هل يمكن للوحة فنية أن تقاوم شرَّ

الزمن؟

ربت بيدي على يديها وهدأت من قلقها. التفت إلى نور الدين وأنا أفتح ألبوم الصور وأشير إلى وجوه بعينها. يضحك وهو يقول:

- هذا محمد العاصمي والد الحسن وهذا أخوه عبد الله. وهذا محمد أحناش وهذا علي المتيوي..

واجتمع حولنا الناس وهم يضحكون ويتأملون صور أبائهم وأجدادهم. التقطت فلورا الألبوم وأشارت بيدها إلى شخص

بعينه:

- وهذا من يعرفه؟

هتف أحد الحاضرين وهو ينفث دخان سيجارة حشيش في سقف المقهى:

- هو الشيخ عبد الرحمان الفنان..

قال نور الدين:

- صحيح هو الشيخ عبد الرحمان..

برقت عينا فلورا وهي تردد:

- هل ما يزال هنا؟.. أقصد.. هل هو على قيد الحياة؟

أجاب نور الدين:

- نعم.. هو في بيته القريب من هنا؛ أحد أقدم بيوت الجبهة. وهو أيضا أكبر رجال الجبهة عمرا.. عاش مع الإسبان وكان يعزف معهم.. وكانوا

يحبونه.. هو الوحيد الذي عاش تلك الحياة التي نسمع عنها فقط، وهو الذي يعرف تفاصيلها.

تعالت همهمات الحاضرين وهم يتأملون الصور.. بينما تابع نور الدين وهو يخاطب فلورا:

- نعم هو الوحيد الذي يعرف الجبهة وتاريخها.. ليس لأنه كبير في السن.. بل لأنه كان يقرأ كثيرا وكان يفكر ويسأل كثيرا ويريد أن يعرف باستمرار..

لمعت عينا فلورا مثل جمرة في قلب الريح وهي تمسك بخيط رفيع سيقودها إلى الماضي. أن ترى ذلك الرجل الذي أحب أمها ألما في صمت.

قُبَّة المدفع

كانت الرحلة إلى الجبهة ممتعة. لقد شعرت رغم السأم الذي انتابني في لحظات كثيرة أنني عثرت على خيط مبهم من خيوط كتابة الرواية التي تؤرقني. قررت أخيرا بعد تخبط طويل أن أسجل وأستقصي وأبحث وأسأل وأعاين وأستجدي. قضيت الأيام التالية معتكفا في قراءة المراجع الضرورية التي حصلت عليها، وفي مجالسة الشيوخ ممن تحفظ ذاكرتهم قصص الماضي وتفاصيله، أسألهم عن حكايات جدي القديمة والحرب والاستعمار وحياة الناس. يجري الحديث على عواهنه أحيانا، وأحيانا أخرى يأخذ المتكلم الحيطة والحذر ويقتصد في الحديث أو يتجنب الخوض في التفاصيل.

في بِيت النار، مستلق بين الأوراق والكتب.. تقارب الساعة الحادية عشرة نهاراً.. وهو الزمن المفضل عندي للكتابة. وعلى الرغم من أن ضوء الشمس يخترق الظلمة، لكن نور القنديل مثَّل حافزا حقيقيا لي. أغلقت النافذة وأوقدت القنديل وطلبت من فلورا أن تتركني وحيدا، وألا تبتعد بعيدا، أن تظل أنفاسها قريبة مني.. وأن يفصلنا جدار واحد فقط. استجابت على مضض وهي تضحك ضحكا ممزوجا بالكبرياء. رهبة غامضة ورعشة خفيفة وحنين مفاجئ يسري في الروح. شعرت أني مثل بحار تائه يواصل التجديف وقد امتلأت يداه بالبثور ولهبت ظهره الشمس، لكنه يعاند ليصل إلى البر الآمن. التقطت الأوراق البيضاء والقلم الأسود واتكأت على الجدار وحلقت في النور الباهت وقد نثرتُ حولي المراجع والجذاذات الكثيرة وخريطة غمارة. ثم كتبت عنوانا مؤقتا ووضعت تحته خطين وانطلقت:

قصة محمد بن زينب

في سنة 1921 كانت قريتي "أمتار" أرضا خلاء.. يشقها واد يسمى في الكتب القديمة "إمطير" وكانت القرية حينئذ تسمى "مرسى أمتار"، تمثل نقطة مركزية خاض حولها المستعمر الإسباني والمجاهدون المغاربة حربا طويلة امتدت لسنوات. كان الإسبان يطمحون لاحتلال مراكز محددة على شريط البحر الأبيض المتوسط والانطلاق منها في التوسع. وكان محمد بن عبد الكريم الخطابـي أمير الجهاد بالريف يعي خطورة ذلك، وفطن إلى أن احتلال قبائل غمارة يمثل خطرا على الريف من جهته الغربية. أوفد الفقيه مُحمد بن عبد الكريم جماعة من المجاهدين إلى قبيلة غمارة لتوعية الناس بخطر العدو وتحريضهم على الجهاد والدفاع عن الأرض، من بينهم أخوه مْحمد بن عبد الكريم الخطابـي والسيد أحمد بودرا، والشيخ محمد بن عمر بن باحمد، والقائد سي عمر بن محمدين، والشيخ الصديق بن الشادي وغيرهم في جيش يضم ستمائة مجاهد. قطعوا طريق بني يطفت وبني بوفرح ومسطاسة ومتيوة. وحين وصلوا غمارة، مروا على بني رزين وبني سميح وبني جرير وبني بوزرة. ثم شرعوا في قصف الإسبان بالبارود على شاطئ البحر في تيكيساس. بينما ترمي المراكب الحربية الإسبانية المجاهدين بمقذوفاتها النارية. أصيب خلال هذه المعركة السيد محمد بن الحاج مسعود الجديري. ثم انتقل المجاهدون إلى حصار الإسبان في أماكن متفرقة أخرى منها قاع أسراس. وتمَّ الخناق على العدو الذي لم تعد تصله المؤونة إلا بالطيارات. لكن بعضا من أعيان قبائل غمارة لم يساعدوا المجاهدين وقطعوا عنهم الخبز وسلموا بعضا منهم إلى الإسبان. لذلك قرر السيد مْحمد بن عبد الكريم الانتقال إلى قبيلة بني سلمان وبني خالد، إلى أن نزلوا بمرسى الجبهة.

في تلك الأيام حدث اتفاق سري بين الإسبان والشريف أحمد البوهالي الرزيني والشيخ حمو بن العيساوي على أن يضربوا بالبارود السيد مْحمد بن عبد الكريم ومن معه. وحدثت مواجهات بين الطرفين، انتهت بتدخل قبيلة بني يطفت وبني بوفرح وخاب سعي حمو بن العيساوي وأحمد البوهالي ومناصريهم.

في يوليو 1921 انتهت معركة أنوال بانتصار المجاهدين وحصولهم على العتاد العسكري من مدافع وقذائف وبنادق. واقترح الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابـي تنصيبَ قياد على القبائل وتوزيع السلاح على المجاهدين وفق نظام معين تجنبا للفتنة والاقتتال بين الناس والقبائل.

كان جدي قائدا على قبيلة بني جرير التي تحد شمالا بالبحر المتوسط، وتحيط بها قبائل بني سميح وبني منصور وبني بوزرة. بينما عين على بني رزين القائد اليزيد بن صالح، وعلى بني بوزرة القائد بن يوسف، وعلى بني سلمان القائد محمد المحرش، وعلى بني زيات القائد أحمد البقالي، وعلى بني سميح القائد عبد السلام البقالي البوهالي، وعلى بني خالد القائد إبراهيم الخالدي والقائد تاج الدين الخالدي. جدي الذي لم يبلغ عامه الأربعين حينئذ كان قائدا للمائة؛ أي مائة مقاتل يعملون بأمره. وكان قناصا محترفا. يحكى أنه كان يسافر هو والقادة السبعة ليتدربوا على ضرب البارود في قبيلة اسطيحات. وكان اليزيد بن صالح يردد "نضربو نضربو.. وفحال بن زينب ما نضربو". كان أحد أفضل رماة غمارة على الإطلاق.

في ذلك الوقت عين الجنرال الإسباني "ريكاردو بوركيطي إي لانا" مقيما عاما لإسبانيا بالمغرب. وكانت خطته أن يوسع نطاق الاحتلال داخل الريف وغمارة بكل القوة الممكنة والوسائل المتاحة. احتل الجيش الإسباني في الخط الشرقي تافرسيت، وتقدم أماما في بني سعيد إلى أن وصل أفراو. وزاد عسَّةً في مرسى "أمتار".

كانت "أمتار" حينئذ أرضا مفتوحة تحيط بها قبائل عديدة تطل عليها من بعيد. وكان جدي الذي يقطن بمدشر خنوبة، يقطع مسافة طويلة على الأقدام بين الجبال والخنادق ليصل إلى تلال أمتار هو ورجاله. وكان ثمة خندق طويل يبلغ الألف متر حفره المجاهدون من التل الذي يشرف على أمتار من الجهة الشرقية ويطل على البحر المتوسط. يقطعه جدي ومن معه إلى أن يصلوا إلى الوادي الذي يشق القرية ويصب في البحر، قبل أن تنضب مياهه في السنوات الأخيرة بسبب الجفاف ويتوقف عن الصبيب في شهر ماي من كل

سنة. كانوا يقطعون الخندق مقوسين وفي صمت حتى يصلوا إلى نهايته عند مجرى الوادي. وهناك يقذفون الإسبان الرابضين في الضفة المقابلة للوادي عند حجر الزاوية تحت الجبل المسمى "تفازت" بوابل الرصاص ثم يعودون إلى التلال البعيدة. لم يكن للمجاهدين من همّ إلاّ الحد من تقدم الإسبان وسيطرتهم على القرى والمداشر المجاورة.. وعدم ترك الفرصة لهم للزحف إلى الشرق.

وكان الفقيه مُحمد بن عبد الكريم الخطابـي قد أرسل إلى قبيلة بني زروال الفقيه بولحية ليتفاوض مع الشريف عبد الرحمان الدرقاوي بعدما تعذر عليه ملاقاته بنفسه. وقد اجتمع به في زاويته وتفاوض معه لكنه امتنع عن مساعدته. بل إنه كتب إلى صنهاجة يأمرهم بضرب المجاهدين ومنعهم من المرور بترابهم، وحذروا بني زروال بمعاقبة كل من يخالط المجاهدين أو يمنحهم خبزة واحدة. وكادت نيران الفتنة تشتعل بين الطرفين، لكن الفقيه محمد بن عبد الكريم طلب من الفقيه بولحية العودة إلى أجدير تجنبا لأي حرب قد تقوم بين المسلمين.

أما المجاهدون الذين أرسلهم الفقيه محمد بن عبد الكريم الخطابـي إلى قبائل غمارة بقيادة عبد الكريم بن السي علي الحتاش الأجديري، فقد نجحوا في مواجهة العدو في تيكيساس وأمتار. وبذلك زال النفوذ الإسباني الذي كان عمَّ قبائل غمارة بأجمعها.

لم يستسلم الإسبان.. بل عمدوا إلى دفع المال لبعض الأعيان واستمالة قلوبهم وتحريضهم على المجاهدين. وانتصر كثير منهم لتلك الغاية مما أدى إلى انسحاب الفقيه مُحمد بن عبد الكريم الخطابـي الذي كان مقيما حينئذ في قبيلة مرنيسا. عاد هو ومن معه إلى داخل الريف تحت وابل البارود واستشهد بعض من جماعته.

في أجدير حكى الفقيه مُحمد بن عبد الكريم الخطابـي عما لاقاه من بعض أهل غمارة من غدر؛ قبضوا على ستة أشخاص من قبيلة بني ورياغل

مرضى في أمتار، ودفعوهم للإسبان حتى افتداهم المجاهدون في عملية تبادل الأسرى التي قام بها السيد محمد أزرقان.

لكن المجاهدين في غمارة استاؤوا مما صدر عن قبائلهم، اعتبروه عاراً يجر عليهم البلاء وينقص اعتبارهم لدى المسلمين، فارتأت جماعة منهم أن يصلحوا بين قبائلهم والفقيه محمد بن عبد الكريم ومن معه. فحضر بعضهم إلى قبيلة بني بوفرح؛ الشيخ تاج الدين الخالدي، والشيخ إبراهيم الخالدي، والشيخ الهادي مغوز المتيوي الريفي، والشيخ اليزيد بن صالح، مع أعيان آخرين. التقى بهم السيد مْحمد بن عبد الكريم والسيد محمد أزرقان والفقيه ابن علي بولحية والشيخ صديق بن الشادي مع بعض أعيان الريف. واتفقوا على الانتصار للجهاد ومعاقبة الخائنين. عاد المجاهدون إلى غمارة مسرورين بهذا الاتفاق في انتظار أن تصلهم الأسلحة في أقرب الآجال.

في غشت 1922 كان المستعمر لا يتوقف عن محاولة احتلال مرسى الجبهة الاستراتيجي؛ وهي النقطة التي تفصل بين غمارة والريف. وكانت أمتار هي المدخل الرئيس للتوغل في تغسة والجبهة. وكان الإنزال عن طريق البحر بالنسبة إلى الإسبان معقدا بسبب وجود المدافع الثلاثة التي نصبها القائد شعيب بن حدو بن المعلم الأجديري على قمة جبل (إيمدران) الذي يطل على أمتار. وقد صادف نصب المدافع مرور مركب حرب-ي بالشاطئ الذي يطل عليه الجبل، فرماه المكلف بالضرب القائد عمر بن الحاج أفقير. قُتل كومندار المركب وبعض الضباط المرافقين له، وكاد أن يغرق لولا أن أنقذه مركب آخر كان قريبا منه. وقد استعان المجاهدون في حصار أمتار بالمدافع الثلاثة لمدة ثلاثة أشهر، عملوا خلالها على مد المؤونة للمجاهدين ليلا حتى أفرغوها من الجنود الإسبان الذين ركبوا البحر فارين.

كان جدي في تلك الفترة يقضي كل وقته فوق التلال يراقب الإسبان والخونة أيضا. كثير من هؤلاء يقومون بتبادل تجاري مع المستعمر؛ اللوز والبيض والعسل في مقابل السكر والزيت والشاي. لكن التبادل يصاحبه نقل أخبار ومعلومات عن المجاهدين ومواقعهم.

يحكى أن جدي ذات يوم ملأ بندقيته بالقرطاس ونزل بمفرده إلى أمتار عبر الخندق. وصل إلى نقطة تتوسط القرية وتقابل الجهة الغربية حيث التل الذي يحتله الإسبان. كان تلا صغيرا فوقه بنايات حجرية وخيام ومعسكرات وأشجار وتحته على امتداد الشاطئ جنود إسبان يطوفون في مساحة ضيقة يحدها البحر من جهتي الشمال والغرب والوادي من الجهة الشرقية. وكان للجنود الإسبان في ثُكنتهم بغلٌ يستخدمونه للسخرة؛ يقضي اليوم في الصعود والهبوط من أعلى التل إلى أسفله. ينقل المياه والأكل وأشياء أخرى. وكان جدي يراهن المجاهدين أنه سيصيب البغل وصاحبه من هذه المسافة الطويلة.

ظل جدي يرقب التل البعيد إلى أن تحرك البغل من عل وفوقه الجندي. كان الجو حينئذ حارا والشمس لاهبة يتعذر معها النظر من بعيد، خصوصا في أرض قاحلة رملية تصنع لهيبا مرتعشا يتردد ويعشي العين. كان العرق يتصبب من جبين جدي وهو مقوس في الخندق يراقب بتمعن شديد حتى وصل البغل إلى نصف التل في زاوية مواجهة له. حينئذ أطلق جدي من بندقيته رصاصتين. تطاير الغبار من التل وسقط الحصان وتدحرج هو وصاحبه وعاد جدي عبر الخندق مسرعا ليختفي في التلال ويربح الرهان.

كان يعود إلى بيته في "خنوبة" سعيدا.. يجلس مع المجاهدين تحت شجرة البلوط أو في جنان "تازبلت" المليء بأشجار التين والرمان والعنب، يحكي لهم كيف قنص الجنود الإسبان، بينما الرجال يضحكون على وقع كؤوس الشاي التي لا تنقطع، غير مبالين بالطائرات التي ترمي القذائف، والمراكب التي تقذف الجبال والقرى. وكما قالت جدتي ذات يوم "في الحرب تصبح القنابل مثل البحر الهائج.. نعتاده ولا نندهش". لكن شظايا قنبلة رمتها طائرة ذات يوم كانت السبب في مقتل جدتنا الكبرى. كانت امرأة كبيرة.. تطوف حول البيت في قرية خنوبة تتفقد الكتاكيت الصغيرة، وحين ألقت الطائرة كرتها، أصابتها شظاياها فماتت لحظتها. كان الإسبان يقذفون القرى ويتعمدون قصف الأسواق حيث يتجمع الناس. ولم تكن غايتهم سوى أن يستسلم المجاهدون خصوصا وأن إسبانيا شعرت بالإنهاك وبأنها لا تتقدم في ريف المغرب خطوة، فكانت تريد أن تثبت أنها قوة استعمارية لا يستهان بها

بعد الحرب العالمية الأولى.

شعرت بالتعب وأنا أسرد الوقائع. لكن سعادة خفية تملكتني وأنا أعيد قراءة ما كتبت بصوت جهوري، وأنقح بعض العبارات وأغير بعضها الآخر. استلقت فلورا إلى جانبي وهي تبتسم.. ثم قالت:

- أنا سعيدة لأنك بدأت.. هذا سيجعلك إنسانا جديدا.. منطلقا..

بقيت صامتا.. بينما ابتسمت وهي تتنهد.. لكن من القلب هذه المرة.

رسائل إلى ألما

في غرفة متوسطة عند مدخل البيت القديم إلى اليمين، تتوسطها نافذة خشبية صغيرة تطل على الشارع الفسيح، وعند حجر زاويتها؛ حيث ذلك السرير المحاط بمتربتين ومائدة وتلفاز قديم، تقابله خزانة كتب عتيقة.. كان الشيخ عبد الرحمان يجلس على مترية محاذية للكتب إلى جانبه حفيده الذي يقارب العشرين. يلبس بذلة عصرية؛ قميصا فاتحا وسروالا رماديا مخططا بالأبيض خطوطا رقيقة باهتة. يحمل منديلا ويمد أصابعه إلى قلة ماء وينزق الكأس فتسيل القطرات متدافعة.. يشرب بلهفة كمن حرقته شمس أغسطس ليتيبس في خيوطها المجنونة.

ضوء الغرفة المنبعث من المصباح المتدلي من السقف لين في هذا المساء الذي تغرب فيه الشمس قبل أوانها خلف جبال الجبهة، مخلفة غروبا مبهما ونديا. أتذكر الآن وأنا أنزلق بنظراتي على الجدران المشقوقة، بيتنا المجاور لبيت الشيخ.

حدجتني فلورا بنظرة ارتياب. هدأ الشيخ والتقط أنفاسه بعد سلسلة سعال خانق. ثم تطلع إلى فلورا بعينين غزتهما الشعيرات الدموية الرقيقة مثل ثعابين صغيرة في صحراء ملتهبة. ظل يرمقها ويشرد لكن فلورا رفعت عينيها إلى أعلى الجدار حيث عود عتيق مغلف بثوب رمادي كساه الغبار. قالت فلورا قاطعة صمت الغرفة:

- هل هذه آلتك يا شيخ؟

أجابها وهو يمسح جبينه بمنديله الأبيض:

- نعم..

ثم التقطت ألبوم الصور وقالت وهي تشير إلى صورة شاب وسيم تطغى الجدية على نظراته:

- هل تعرف هذا الشاب الجميل؟

تطلع الشيخ إلى الصورة وتملكه الذهول.. انتشرت تلك الثعابين الصغيرة في عينيه وراحت تزحف في الذاكرة.. قال وهو يحمل الألبوم بيدين تحلقان وترتجفان:

- هذا أنا...

عاد إلى صمته.. شرد قليلا ثم رفع عينيه إلى العود. امتلأتا بالدموع القصية وهو يحن لزمن عذب. ظل يتأمل الصورة.. ثم التقط من تحت وسادته صورة مماثلة لها. قال بارتعاش:

- إنها صورتي أنا... لكنها فقدت بريقها مع الزمن يا ابنتي.

كنت ملتزما الصمت أتأمل عينيه وكلماته وحسرته أيضا.. وأراقب نشوة فلورا وهي ترى في وجهه حنينا مفتقدا.. وغبار ذكريات جارحة. قال الشيخ وهو يغرق في تفاصيل الصورة:

- كيف حصلت عليها؟

أجابته وهي تراقب حركات وجهه وانفعالاته:

- أنا فلورا حفيدة نيفادا.. ابنة ألْما.. تتذكرها..؟

حالة صمت ممزوجة بالرهبة والدهشة والترقب اللعين. كأن الشيخ صار قطعة صنم محشورة في قبر عميق وبارد. تجمَّد الزمن وتصلبت الذاكرة وصارت السماء الصافية التي تميل للغروب متخذة تلك الحمرة اليافعة، ثقبا داكنة متفرقة تغطيها السحب البيضاء الثقيلة. زم شفتيه وهو يتأمل فلورا بعينين كليلتين وتساءل بنغمة تضيق شيئا فشيئا:

- أنت ابنة ألْما..؟

ثم رفع عينيه إلى العود المثقل بالغبار وواصل:

- ألْما كانت مثل فراشة.. نور الجبهة؛ شمسها وقمرها..

وراح يحكي بشوق بينما فلورا مندهشة ترتسم على سحنتها فرحة طفولية. حكى الشيخ عن الجبهة والناس والحب والحياة المشتركة، بينما مضيت متحمسا في تسجيل التفاصيل في مذكرتي الخاصة.

كنت حينئذ أتأمل الشيخ وهو يحكي ويتجدد وقد أخذه الحنين إلى زمن بعيد. ثم همست في أذن فلورا في الوقت الذي كان فيه الشيخ يمسح جبينه بمنديله الأبيض:

- ألم يقل نور الدين إن الشيخ كتاب أسرار؟

تطلع الشيخ إلى فلورا بعينين غائمتين:

- هل ألْما على قيد الحياة؟

- لا.. ماما ماتت منذ سنوات طويلة.

ظل الشيخ صامتا وهو يرى دموعا تغطي عيني فلورا. ثم أخرج مفتاحا من جيب قميصه ومدَّ يده إلى درج الخزانة بجواره وأخرج حزمة من الأوراق والملفات معقودة بخيط رقيق ومحشورة في كيس بلاستيكي شفاف. فك الحزام

وهو يلهث ثم التقط مذكرة جلدية عتيقة. فتحها وسحب منها صورة قديمة. تطلع إلى فلورا وهو يردد بصوت خافت وكان حفيده يراقب في صمت وحيرة:

- هذه لك فلورا... إنها ألْما الجميلة..

التقطتها فلورا وهي مترددة بين الدهشة والفرحة والحزن كشمس خريف تقاوم الغيوم. إنها تشبهها.. تشبه رحيقها الذي اختطفه القدر. قالت وقد دمعت عيناها وهي تقبل وجه ألْما.. ثم مسحت عينيها بأصابعها وهي تواصل:

- آه كم كانت جميلة.. فعلا كانت مثل فراشة..

ظلت فلورا تصغي بشغف لحديث الشيخ، بينما لم يكن يهمني أنا سوى التقاط التفاصيل المجهولة وحشد ما أمكن من المعلومات التي تختزنها ذاكرة هذا العجوز الذي يوشك على الرحيل. كانت الأسئلة تتدافع بداخلي بغير انتظام.. تتلاحق وترتبك. معظم شيوخ القرية رحلوا.. ومن بقي منهم عاش كأنه لم يعش مطلقا. بقيت أفكر وأنا أمعن النظر في عيني الشيخ. كان ممتلئا بالحنين.

واصلت الأسئلة بينما انتابت الشيخ نوبة سعال شديد. كانت عيناه تحملان حسرة حين سألته عن إحساسه الآن بالجبهة والناس. قال بصوت اليائس:

- لقد قطعنا الأشجار التي كانت تزين الجبهة وحدائقها. الكل ساخط.. لا أحد يضحك. وأنا لم أعد أخرج من منزلي. صدقني.. أخاف أن أرى وجوه الناس.. نظراتهم صارت قاسية. واكتفيت بالعيش في ذكرياتي ما تبقى لي من أيام.

وراح يحكي بينما فلورا تنصت بزهو المنتصرين وهي تحاول أن تعيد الحوار إلى ألما:

- صدقني يا ولدي.. لقد فشلنا في كل شيء. كنا سعداء بالاستقلال..

كنت أنا سعيدا رغم ألم الفراق.. لكن للأسف لم نصنع بهجة حقيقية. والمخزن لم يرو الأرض للأسف.. بل تركها تحترق.. كانت الجبهة تسمى قديما "مسيابة"؛ أي أرض الخلاء المهجورة، وهي إلى الآن "مسيابة" بالفعل..

عمدت إلى إخراج الشيخ من دائرة الكآبة بسؤال مختلف:

- سمعت أنك كنت عازفا أيام الحماية..؟

عادت تلك الابتسامة العتيقة تطل من عينيه.. قال وهو يلتقط من مذكرته صورا ويشير بأصابعه التي ترتعش:

- نعم درست بعد الاستقلال بمعهد تطوان.. أما خلال فترة الحماية فكنا نعزف نحن الخمسة على تلال الجبهة وشواطئها أنا والمتيوي والدكالي والسرغيني ومشبال، كنا نعزف أغاني فريد الأطرش وأم كلثوم. حفظنا كل ما كان يصلنا عبر صوت القاهرة من طرب جميل ونتدرب عليه باستمرار. أتذكر أننا كنا نعزف فوق تل يطل على ميناء الجبهة، وكانت ألما تحب عزفنا.. تحب كثيرا أغنية "أول همسة" لفريد الأطرش..

رسمت فلورا بسمة هادئة على شفتيها ثم قالت بصوت ناعم:

- حين أسمعك الآن لا أشعر أنك كنت خجولا ومنطويا إلى الحد الذي يجعلك تكبح مشاعرك الجميلة؟ لماذا لم تصارحها؟ ولماذا يكبت الإنسان مشاعره الصادقة؟

صمت قليلا ثم قال:

- أردت أن أصارحها ذات صباح فوق الجبل. لكني توقفت أو ربما هي أوقفتني.. لا أعرف ماذا حدث.. حقا لا أعرف. كنت خجولا جدا.. ومترددا على الدوام..

شرد قليلا ثم تابع:

- مات أبـي وتركني وحيدا في دنيا باردة. حلمت مرارا بالسفر.. أحلامي كانت كبيرة. لكني للأسف عشت حياتي بشعور اليتيم. دائما أقول في نفسي: من أنا لأحب؟ ومن أنا لتحبني فتاة تضيء ليل الجبهة كلها مثل القمر؟ ولذلك قضيت ما تبقى من العمر بشعور أني لابد أن أكمل حياتي من أجل أولادي فقط، لا كما تمنيت أو حلمت أنا.

التفت الشيخ إلى حفيده الذي كان متسمرا يتابع الحوار. كان قد نزع سماعة الهاتف المحمول من أذنيه وراح ينصت لحديث جده.. تملأ الحيرة عينيه الصغيرتين. قال الشيخ لحفيده:

- ما أقوله يا بني مجرد تخاريف عجوز.. لا تصدق جدك ولا تحك لجدتك هذه الأوهام.. هيا ناولني العود..

لكن الحفيد أجابه بسخرية:

- تخاريف يا جدي.. كل هذه الدراما تخاريف؟

تحرك الشاب وهو يتمتم ويرسم على عينيه دهشة متواصلة والتقط العود من الحائط. أخرجه من غلافه المغَبَّر وناوله جدَّه الذي تنفس بقوة وهو يلمس عوده العتيق. أحاطه بذراعيه النحيفتين والحنين يسري في ملامحه. وبدأ يدندن وهو يرتعش.. توقف لحظة وقال:

- هذا لحن أول همسة لفريد.. هدية لك فلورا.. لروح أمك الجميلة.

كان يدندن وهو يقول بصوت خافت رقيق:

"زي النهارده كان حبك يوم ما عاهدتك أصـون ودّك

وحلفت لك إنـي بـحبّـك وكان يميني فـوق خدّك

وكان أحلى همسة لأحلى وردة فاكرها لسّة زي النهارده

كان القدر راضي علينا حنون كان القمر جماله يسبـي العيون..".

فلورا منتشية تنزف شوقا. بينما شردتُ بعيدا وقد اجتاحني شعور بأني أولد من جديد على وقع الإيقاع المرتعش. بدأت سحابة الأرق تتبدد وأنا ألمح صوتا من زمن مفقود أرهقته الآلام المتراكمة. لكن صحراء عذبة امتدت في خيالي.. تتوسطها بركة ماء بارد.. كنت أجري وأنا ألهث.. ظمآنٌ يريد أن يرتوي.. وحدي في صحراء قاحلة والسماء قريبة بنجوم تتلألأ.. تكبر وتصغر.. وتصنع خيوطا متشابكة معرجة.. أتيه بين قدر حتمي وإرادة منزوعة هشة.. تغوص قدماي في الرّمل اللاّهب.. أشعر بثقل يجذبني إلى قعر القرار.. السماء تقترب أكثر لكن النجوم تتباعد لتفسح لنور الشمس أن يضيء البئر. أشرب الماء بلهفة.. أغتسل فيتجدد الحنين إلى الحلم القديم.

ينتهي الشيخ من عزفه. يذيبني نور المصباح الشاحب. أتعرى وحيدا في خيال هش مثل نملة في الشتاء. ألتفت إلى فلورا.. تمسح دموعها وتخفي حنينا انبثق فجأة. أفقت من شرودي على الشيخ وهو يسألني عن أبـي:

- والدك كان صديقي.. كنا نقضي أوقاتا طويلة مع بعض.

ثم سحب من خزانته بعض الكتب ومنحها لي وهو يقول:

- سمعت من نور الدين أنك تعد كتابا عن تاريخ المنطقة؟

أمسكت الكتب.. ورغم شعوري بالدفء حينئذ واصلت تصلبـي المفاجئ دون أن أجد تفسيرا مقنعا. بينما راح الشيخ يحكي لي عن الجبهة وتفاصيلها في عهد الحماية وبعد الاستقلال.. وأنا أسجل.

وحين اشتد الظلام خارج البيت قررنا المغادرة. قال الشيخ لفلورا وهو يمدها بمذكراته:

- هذه لك يا فلورا.. فيها رسائلي القديمة لألما..

أمسكت فلورا المذكرة المحشوة بالأوراق والصور. مررت أصابعها على ظهر المذكرة الجلدية المنقوشة والمحفورة بخطوط معرجة ومتشابكة.. ثم اقتربت من الشيخ وقبلت رأسه وهي تقول بصوت هامس:

- أكيد ألما الآن سعيدة..

انسحبنا من المنزل بخليط من المشاعر؛ كان الظلام قد ابتلع الشارع الفسيح. أعمدة الإنارة المتفرقة والمتهالكة تفصلها مسافات طويلة.. تقاوم العتمة مثل شموع تهددها الرياح.

عدنا إلى القرية صامتين نخترق ظلمة الجبال الملتوية. تحضن فلورا مذكراتها بينما أستعيد في خيالي المشوش حديث الشيخ وتفاصيل الجبهة المتناثرة. لكن ريحا لطيفة كانت تتسلل عبر شقوق النافذة وتحمل معها حنينا مكسورا.

في بيت النار، وضعت قدمي في سطل ماء ساخن ظل يغلي لساعة فوق الكانون. وكان الدخانُ المنبعث من البُرمة النحاسية ومن العود المحترق قد ألبسَ السقفَ سواداً وصنع جليداً من الرطوبة اللّزجة. بينما حملت فلورا بين أصابعها طبشورا وكتبت على الجدار "ألْما التي أضاءت ليل الجبهة".. وقالت بحماس:

- ألم أقل لك..؟ ثمة وجهٌ آخر دائما. كانت ألْما تحلق وتصنع البهجة يا مختار.. الشيخ عبد الرحمان لا يكذب.. لقد تفوّق الحب على الضّغينة وهزم الأحقاد..

نبضٌ يسري في قلب قدمي المحشورتين في قعر السطل. خليطٌ من المشاعر والذكريات الجارفة والصور الدافئة والوقائع المتحجرة؛ كل ذلك وأنا أقرأ جملة فلورا على الحائط القديم.

ضحكت فلورا وهي تقول بإيقاع المنتصرين:

- حديث الشيخ كان ممتعا.. نقلني إلى عالم أكثر سحرا؛ فردوس الماضي العذب. رأيت ألما بعينه هو.. حديثه كفيل أن يصنع بهجتي..

شعرت بأن قدمي تصلبتا في قلب الماء المتوهج. سحبتهما وحشرتهما في فوطة واستلقيت على الحصيرة. طلبت من فلورا أن تعد كأس حليب بعشب السّالمية الذي أحبه. استجابت على مضض. قامت وهي تمطط شفتيها وتتمتم بكلمات غير مفهومة. وحين عادت قلت لها باستفزاز تمقته:

- المغربية تخدم زوجها يا فلورا.. تخدمه وهي سعيدة..

أجابتني بحدة:

- لكني لست مغربية.. ولست خادمة.. ثم إني أعد لك الشاي لأنك متعب.. ولأني أساعدك على تعديل مزاجك الذي أعرفه.. أقصد الذي لا يعرفه غيري.. أريدك أن تكتب.

لزمت الصمت. تابعت هي كمن لسعها عقرب:

- ومادمت تريد خادمة.. فلماذا لم تتزوج مغربية تطيعك؟

قلت:

- لأني أحببتك أنت..

تطلعت إلي بعينين قلقتين:

- من يحب يقبل الآخر على علاته يا مختار.. لا كما يريده هو.. أليس كذلك؟

هربت من الإجابة تجنبا للتوتر؛ فقد عزمت أن أقضي الليلة في الكتابة والتسجيل. أن أشحذ الذاكرة وأغوص في التفاصيل اللعينة. الليل مازال

طويلا.. وهي فرصة لمغالبة النوم المستعصي وحالة التقلب في الفراش لساعات دون جدوى، بل فرصة لأتربص بتلك الصور التي تتزاحم في المخيلة. لقد بدأت أتلمّس عمق مشكلتي؛ ففي الوقت الذي أقرر فيه أن أبدأ.. ثمة قوة خفية تشدني إلى الهوة العميقة.. شيء مثل المغناطيس، أو التيّار الجارف. ما بين الحركة والسكون يوجد قرارٌ لكنه في حالة جمود مثل الجليد... إنه بحاجة إلى الشمس.

قال الشيخ

في تلك الليلة، في بِيت النار، هيأت كل شيء لأكتب.

نفضت الحصيرة من الأتربة وكنست الأرض. ثم رتبت الأوراق والجذاذات أمامي في شكل هلال. وضعت وسادة فوق الأخرى وهيأت المكان تحفيزا للذاكرة والخيال. التقطت "زيزوة" وسكبت فيها ماء حارقا من البرمة.. وضعت ملعقتي شاي وقليلا من السكر. ثم فركت حزمة نعناع حر وحشرته في الكأس الطويل وسكبت عليه الشاي الغامق فهبَّت تلك الرائحة العتيقة إلى الذاكرة. التقطت قلم الرصاص وورقةً وضعتها على حاملة أوراق جلدية ذات قابض حديدي في أعلاها. رشفت جرعات طويلة من الشاي واتكأت على الجدار وأنا أشحذ القريحة وأستدعي الخيال.

الشيخ والبحر

"كانت خيوط الظلام في ذلك الصباح العذب من شهر نيسان 1956 تسيل من السماء الصافية مثل شلال متدفق مجنون. المركب الذي كان ينقل ألما ونيفادا ويخترق البحر الهادىء، يخترق أيضا قلب الشاب الممزق.. ويقتلع جذور الفرحة من ذاكرته التي صارت مثقلة بالجراح. بقي وحيدا تحت النخلة الكبيرة يحتمي بالحزن من الشمس التي كانت تتسرب بين سعفاتها وتذيبه.. ثم تقذفه إلى التيه. بقي تحت الشجرة يتأمل الشرفة وهي موصدة.. ويحدق في الباب وقد أغلق على أحلام وذكريات.. يلملم جراحه وهي تتفتت أشلاء مثل

جندي يسلم سلاحه لعدوه في معركة المصير الأخيرة. لكن ألما قررت أن ترحل وتتركه معلقا على حبل الشوق والأمنيات المبهمة. لقد احتمى بالشمس من قهر الفراق. أراد أن يعيش تلك اللحظات ممددا على صفحة الشرود.. كان يخاف أن يحوِّله فراقُها إلى ظل إنسان فحسب. ومنذ أن رحلت والشّيخ يحب البحر.. يرى في موجه الهادئ طيفها العذب.

قال الشيخ:

- كانت تحب البحر.. والشمس. وتحب الناس أيضا.. كانت دوما تحلق..

ثم تابع وهو يذوب مثل قطعة جليد على صفيح ساخن بينما "فلورا" منتشية:

- أتعرفين..؟ حين رحلت ألْما عائدة إلى إسبانيا مع جدك وجدتك بعد الاستقلال.. في ذلك اليوم؛ أقصد يوم الرحيل، بقيت أنا مختفيا خلف شجرة النخيل التي تواجه البيت. لم أستطع أن أودعها.. شعرت أني عاجز.. كانت الشمس تشتد فوقي وأنا أحتمي بظلال الشجرة.. كنت خجولا.. نعم خجولا جدا.. ولولا الدراسة لما تغيرت.. هي التي أنقذتني من جحيم التردد الذي كان يسكنني..

مسح عينيه بمنديله وهو يبتسم فأطلَّ الشوق مثل الرحيق وتابع بنغمة حنين مبتور:

- لكن فراق ألما حولني بالفعل إلى عجوز قبل الأوان؛ فقد عشتُ ما تبقى من حياتي في ظلال الذكريات مقتنعا بأن ما مضى وحده كان الأجمل..

حين وصلت السفينة وأطلقت صفيرها استعدادا للرحيل، كان عبد الرحمان مايزال واقفا تحت النخلة الكبيرة متسمرا يقاوم السقوط مثل عمود نور عصفت به الرياح. ألما واقفة عند الشاطىء تتفقد الجبهة وشوارعها

الفسيحة وحدائقها الجميلة. تستنشق هواءها للمرة الأخيرة وهي ترتعش. عائلات إسبانية ويهودية كثيرة تجمعت في مواجهة السفينة. جمعوا ما أمكنهم من أمتعة وملابس وأغراض شخصية لكنهم تركوا أفرشة البيت وتركوا ذكرياتهم هناك.

كان عبد الرحمان يتألم للفراق وكانت ألما تتألم أيضا وهي تودع الناس وترى شوارع الجبهة وبحرها للمرة الأخيرة. حين صعدت إلى القارب الصغير الذي سيحملها إلى السفينة ظلت تطل على الجبهة وتشير بيديها. لكن عبد الرحمان الذي ذرف الدموع ظل مختفيا خلف النخلة وهو يشير بيده وهي ترتعش ويحمل بيده الأخرى رسائله".

رفعتُ عيني إلى القنديل.. نورُه يتراوح في بيت النار ويخبو بالتدريج. سرَت في أعماقي رعشةٌ مبهمة وأنا أكتب عن الشيخ وألما. أعدت قراءة ما كتبت بصوت جهوري ودافئ. ناديت فلورا بحماس. قرأت لها ما كتبت. كانت سعيدة بحماسي المفاجىء. ثم وقفت بسرعة وقالت:

- أرجوك.. أكتب. أنا سأنسحب.. ثم أعود لاحقا.

شربت جرعات من الشاي البارد ووضعت عنوانا جديدا وأنا أفكر في مشاعر الشيخ وحنينه إلى الماضي:

عازف العود

قال الشيخ لفلورا:

- ألْما يا ابنتي كانت مثل فراشة.. تحلق.. وكانت تضيء ليل الجبهة وتضيء هذا القلب..

ثم ربت بكفه على أوتار العود وتابع:

- هي في خيالي باستمرار؛ تجري وسط الأشجار والورود وتطير..

تدير ظهرها للجبهة وتواجه البحر بيدين مشرعتين للريح وتبتسم. أرقبها تحت النخلة مثل زهرة برية يافعة تقاوم الظلال الباردة.

حكى الشيخ أنهم جميعا كانوا يصعدون جبل "مرسى الدار" في بداية الخمسينات، يعزفون فوق قمته العالية، أو في "الغريفة" المطلة على الميناء. تلمع عينا ألما سعادة وحنينا وهي تضحك للشمس، بينما الشيخ يعزف وهو يتشرب رحيق عينيها الضاحكتين. تضيء الشمس خصلات شعرها وتضيء قلبه. يختلس النظر إليها وهو يواصل العزف على العود.. وحين أراد ذات مساء ربيعي عذب أن يهمس في أذنيها بارتعاش، قالت له وهي تنسحب مثل الغروب:

- لا تقل شيئا... إنني أراه في عينيك.

تُجكان

اعتكفت في بيت النار لأيام محشورا بين المذكرات والكتب والجذاذات والخرائط. تخرج فلورا إلى القرية.. تقضي ساعات الصباح على الشاطئ ثم تعود منتشية مثل شجرة اغتسلت بالمطر ثم تعرَّت فجأة تحت لهيب الشمس. كانت كلما تدخل وترى ظلال الظلمة واحتباس النور تقول لي إن الكاتب عليه أن يزاوج بين العزلة والحياة.. لابد من الشمس كي تمنحه طاقة الكتابة.. الشمس هي التي تضمن لنا يوما جديدا عذبا. بيد أنها في هذا الصباح لم تقل شيئا. كان الجو كئيبا مثقلا بالرطوبة. عادت من جولتها بسرعة ولم تتكلم. ضحكت بقوة وأنا أقول لها:

- يبدو أنك في أسفل درجة من سُلَّم الفرحة.. مكتئبة..

تضحك بسخرية لاذعة وتجيبني:

- صحيح ليست لدي طاقة بسبب هذا الجو الغائم الثقيل.. وربما الملل لأني قضيت أياما منعزلة معك عن العالم لا أنجز شيئا.. وربما لأن المشكلات تتفاقم هنا وتتعقد، وهذا شكل من أشكال العبث، يجعلنا متذمرين. لكن صدقني يا مختار، أنا أعرف كيف أصنع فرحتي. سأستحم وأعد كأس شاي وأجلس لأرتب أوراقي. الأيام تتلاحق وأنا لم أفعل شيئا.. أتفرج على الزمن وهو يمضي فقط..

تجنبت الخوض في الجدال فالتقطت كتابا بخفة:

- قرأت في هذا الكتاب عن قبيلة غمارية مثلت مركزا مشهورا بعلوم الدين.. يقصده الطلاب من أنحاء كثيرة.. تخرج فيه الفقهاء والعلماء أبرزهم العلامة أحمد بن عبد المومن ومحمد بن الصديق ومحمد بن عبد الصمد التجكاني. إنها قبيلة بني منصور الغمارية وخصوصا قرية تجكان..

جلست فلورا إلى جانبـي وهي تردد:

- أريد أن أسمعك.. أن أعرف أكثر..

ورحت أحكي..

هي قبيلة توجد وسط غمارة من جهتها الشرقية، يقطعها نهران كبيران ويسقيان أراضيها الشاسعة هما واد أمتار وواد ابن يحي. وهي تمتلك غابات كبيرة مختلفة الأشجار: البلوط والسنديان والسرو والكرز الوحشي. بينما تمتلئ أوديتها بأشجار التين والعنب. وهي أرض الزوايا والصالحين، كثير من أهلها يتبعون الطريقة الدرقاوية، ويوجد مقر الشيخ الصديق بن عبد المومن بقرية تجكان التي تقع في الزاوية الشمالية للقبيلة قرب الحدود المشتركة بين بني سلمان وبني بوزرة وبني جرير. ويحكى أن الشيخ كان رجلا ذكيا غير متعصب وكان يقرض الشعر بالعامية المغربية، ويتصور أن الشعر الحقيقي يجب أن لا يكون محاكاة للقصيدة الجاهلية الصعبة. لكن شهرته الأدبية لم تكن تضاهي شهرته كونه ابن الولي الصالح الشيخ سيدي الحاج أحمد عبد المومن المتوفي أواسط القرن التاسع عشر. فبعد وفاة الشيخ عبد المومن ترأس أبناؤه باقي الزوايا في قبيلة بني منصور وبني خالد وبني زناسن بالريف.

التفت إلى فلورا المشدودة. واجهتني ببشاشة ساعدتني على مواصلة الحكي. بقيت منجرفا في تيار الشرود الذي تملكني فجأة بينما قاطعتني:

- ماذا تقول؟ أراك تتكلم في صمت..

- بني منصور.. قبيلة بني منصور وقرية تجكان. إنها البداية في رحلة

البحث عن عبق التاريخ. هل ترافقينني إلى هناك..؟

لم يدع حماسي لفلورا مجالا للتردد فأشارت برأسها موافقة.

أفقنا باكرا في الصباح التالي. اطمأنت على جدتي الراقدة في فراشها. وضعت حقيبة على ظهري بعد أن حشوت فيها ماء وتمرا وزبيبا وتفاحا ومثلي فعلت فلورا.. ثم انطلقنا بين الحقول في رحلة التقصي والمعاينة. كان الصباح مزيجا من الضباب وخيوط الشمس المنفلتة. خلفنا وراءنا القرية قاصدين طريق الوادي غير المنتظم. لمحت شاحنات كثيرة عند أسفل الوادي كأنها مراكب تائهة في قلب المتوسط الهادئ. وبدت فرشة الأرض الكبيرة مثل سجاد أخضر تتخلله آبار فوهاء متفرقة. غمرني شعور قاس بالفتور حين عبرنا الطريق الترابية المعرجة مخلفين غبارا كثيفا ناتجا عن الآلات الكبيرة التي تطحن الحجارة اللازمة لتعبيد الطريق الرابطة بين تطوان والحسيمة. وصلنا إلى السواقي الصغيرة التي تتوسط الحقول. غمرت يدي في المياه الباردة وبللت شعري وشعرت بظلال سعادة تهب مع صدى حنين بعيد. لكني ما إن انحشرت وسط الحقول الخضراء وقطعت مسافة صغيرة حتى تجمدت أمام الهكتارات الخضراء من حقول الكيف.

شيءٌ يشبه الجمود أو التصلّب أو التلبّد.. شيءٌ ثقيل جثم على صدري وأنا أتأمل المساحات الشاسعة من سنابل الكيف الخضراء الغامقة والكثيفة. شعرت بسخونة في أطرافي.. برغبة في أن أبلل حلقي بالماء البارد. سحبت قنينة ماء من المحفظة لكنها كانت دافئة بطعم الحليب الخاثر. انزعجت وتملكني الأرق.. التوتر العذب الذي تلطِّفه رياح تهب من الشرق. وصلنا إلى البئر. نزعت فلورا المحفظة من ظهرها وشربت من السطل الأسود وبللت وجهها بالماء البارد. تقوست برأسي وحشرته في السطل لكني أفرطت في الشرب وحين انتصبت شعرت بدوار شديد. جلست تحت شجرة التين بالقرب من جدول المياه المتدفق. رفعت عيني إلى سقف الشجرة الظليل وكنت شاحبا باهت الوجه يابس الشفتين. أمدتني فلورا بعلبة تمر أكلته بنهم. استعدت تركيزي قليلا وبدا العالم حولي أقل سآمة. نسائم الكيف تتسلل إلى الذاكرة عذبة

لطيفة تحمل معها الحنين إلى صور قديمة متفرقة. قالت فلورا وهي تضحك:

- هل هذا هو الحشيش المغربـي؟

أجبتها بفتور:

- هذه نبتة الكيف التي تتحول إلى حشيش يتهافت عليه كثير من الأوروبيين؟

صمتت وهي مدركة أن الجدال العقيم سيحول الرحلة إلى معركة مشحونة بالمهاترات. بينما مسحت جبيني بفوطة صغيرة سحبتها من محفظتي. كانت الرطوبة الثقيلة حينئذ تفاقم إحساسي بالغم.. يتصبب العرق كأنه عين حديثة النشوء. بينما تتقطع الأنفاس بسبب الضغط والمزاج الثقيل. بقيت أراوغ شعوري قدر المستطاع إلى أن جاء مصطفى ابن خالتي عيشة التي توفيت قبل سنتين عن عمر يتجاوز التسعين. رحب بـي ودعاني أنا وفلورا إلى منزله الرابض أعلى التل والمطل على السواقي وحقول الكيف. كنا نمضي تحت ظلال الأشجار وأنا أتأمل الخطوط العريضة التي قسمت وجه الرجل. لكن خطواته الخفيفة توحي أنه مازال محافظا على حيويته؛ فبين حين وآخر يتسلق الأشجار ويقطف لنا تينا لذيذا نادرا يميز المنطقة نسميه "الغدان". كل "غدانة" بوزن تفاحة. أقسمها قسمين وأدخلها إلى حلقي بلهفة وشوق، بينما تتعب فلورا في إزالة قشرتها. نمضي ونتوقف قليلا وقد تلاحقت أسئلتي بلا انقطاع وكان مصطفى قليل الكلام. هو فلاح بسيط يحيا مثل معظم الأهالي في قريتنا الذين يتعبهم التفكير أو التعليل. حين وصلنا إلى المنزل لمحت الغرفة التي تقع تحت الشرفة. تذكرت أيام الصبا واليفاعة حين كنا نختبئ بها خلف شكائر القمح. وفي زاويتها حجر الرَّحى القديمة التي بنيت قبل أربعمائة عام. غمرني شعور بأن الزمن خدعة كبيرة وأننا نحيا فقط بالصور القديمة.. مهما ابتعدنا في أراضي الله البعيدة. شعرت أن ذلك الطفل القابع بداخلي والمتوجس يولد من جديد بأحاسيس مبهمة وبتردد مفعم بالرهبة وبحماس فاتر. فتحت الباب شاردا. في الزاوية نفسها حجر الرحى تكدست فوقه آلات الحرث وأنابيب السقي

وخردة متآكلة. اقتربت منها وأشرت إلى فلورا:

- هذه هي الطاحونة القديمة التي حكيت لك عنها.. عمرها أربعمائة سنة.

التقطت فلورا المصورة وهي تتأمل حجرين مستديرين يربطهما قطب الرحى الذي يمكن الحجر الأعلى من الدوران فوق الأسفل. وبينما تستعد لالتقاط الصور طلب منها مصطفى أن تتوقف وهو يشير بأصبعه إلى أكياس كبيرة من البلاستيك الشفاف. عرفت حينئذ أنها مملوءة بالكيف بعدما أفرغ من سنابله استعدادا لتحويله إلى قطع حشيش. قلت له:

- هذا محصول العام الماضي.. أليس كذلك؟

قال وهو يمطط شفتيه بحسرة:

- نعم هو... لا أحد يطلبه. لكن يشاع أن العام القادم سيكون أفضل.. لم يعد المخزن يضايقنا بعد المظاهرات التي انتشرت في المغرب هذا العام.. لقد صوّتنا على الدستور الجديد ولابد أن تراعي الدولة وقفتنا معها. هل تعرف؟ كنا باستمرار نضطر للدفع كي نحمي أرضنا... الآن ننعم بالأمان أكثر.

وبانزعاج طفيف قلت:

- ولماذا تتشبثون بها؟

- وماذا نفعل.. بماذا نعيش؟

بعد صمت قصير تابعت:

- والفلاحة والصيد وتربية المواشي والعسل..؟

ضحك بسخرية وقال:

- يبدو أنك غبت كثيرا يا ابن خالتي ونسيت حقيقة هذه الأرض.. أنت تتحدث عن جبال ومناخ لا يساعد على شيء.. الجفاف يعصف بنا منذ سنوات والدولة نستنا، منذ الاستقلال لم تفعل شيئا كأنها تعاقبنا.

ثم تابع وهو يرمي عينيه بعيدا:

- منذ أن ولدنا وجدنا الكيف. أنا أيضا لا أحبها لكن لا يوجد بديل. ولولا هذه النبتة الجديدة التي استوردت من باكستان لكنا نموت بالجوع. إنها نبتة سحرية تنبت في قلب الصخور. لكنها تتطلب أسمدة كيماوية كثيرة. الآن أصغر شاب في المنطقة يستطيع إذا مضت الأمور كما نتوقع أن يبني منزلا في سنة واحدة.

جلسنا في الشرفة. ريح رطبة تهب عبر الوادي وتحمل معها خليطا من النسائم؛ أشجار التين والكيف والسماد الطبيعي والتربة الندية والماعز. بدا المشهد أمامي كأنه يتكرر عبر السنوات في صور خاطفة مثل الومضة. أتذكر صورتي وأنا أجري بين الحقول وأتمرغ في التراب كالحصان؛ كانت لعبة الاستخفاء هي المفضلة لدينا، وكانت فاطمة الجميلة ذات العينين الواسعتين تحسن التخفي. لكني كنت قادرا على ملاحقتها في الجحور. نختبئ خلف شكائر الزرع ويلتصق جسدانا فأشعر بحرارة صاعدة وبأشياء أخرى تجري في عروقي البعيدة مثل الدبيب.

تنفست بعمق وأنا أشرب جرعات طويلة بصوت مزعج من كأس الشاي الأخضر كثير السكر. بينما فلورا تبتسم وتكتفي بإشارات ملغزة بعينيها. فهمت منها أننا تأخرنا والرحلة ماتزال طويلة إلى تجكان. التفت إلى مصطفى ذي الملامح الآسيوية الصغيرة. سألته:

- هل ماتزال تجكان بعيدة؟

- نعم.. ولماذا تجكان؟

- قرأت في أحد الكتب أنها قرية العلماء وبها معاهد لتعليم أصول الدين.. وتخرج فيها الفقهاء والأولياء.. قرأت أن بها أكثر من أربعين كُتّابا..

- هههههه.. هههههه.. من كذب عليك؟

استفزني ضحكه المزعج فقلت بشيء من الحدة:

- الأمر ليس مضحكا لهذه الدرجة؟

انكمش مصطفى فجأة مثل قنفذ أملس وقال:

- تجكان كانت... الآن كل شيء تغير. هذا العشب الأخضر غيَّر كل شيء.. أكل كل شيء؛ الأرض والنفوس في آن. معظم الأهالي هناك يتاجرون في الكيف والحشيش. ولا يتنقلون إلا بالسيارات رباعية الدفع.

وأشار بأصبعه الجاف والحاد مثل السكين الصدىء إلى الجهة المقابلة حيث طريق معرجة تقسم الجبل قسمين وقال:

- أنظرْ إلى السيارات وهي تهب إلى قريتنا تباعا من قبيلة بني منصور.. إنها لا تتوقف اليوم كله.

- هل للتسوق؟

- بل للتنزّه في القرية.. المنصوري والخالدي وأهلنا في باقي المناطق المرفهة حين يحصلون على المال يتنفسون الدنيا.. هم يعشقون رفاهية الحياة ويسعون إلى الاستمتاع بحق. هم ليسوا مثلنا يا مختار، نتفرج على الحياة من بعيد..

- وهل يتنفس الإنسان بسيارة رباعية في قرية بئيسة لا تتوفر على شوارع أو طرقات أو إنارة؟

سألته وأنا أضحك بمرارة محاولا أن أتجنب الجدال أو تفسير السلوكات الطارئة. التفت إلى فلورا يملؤني شعور بالغيظ والسأم.. وكان مشهد السيارات المتلاحقة يوحي بأنها ستخوض حربا.. تنفث الغبار في السماء.. سطحُها متكدس بالبشر وهم يصيحون بلا معنى كأنهم بدائيون. وقفت فجأة وطلبت من فلورا العودة؛ فقد استفز المشهد خيالي الهش وحرك أرقي الأبدي.

في غرفة جدتي أسندت ذراعي على الحائط وأنا أتأملها مستغرقة في التسبيح وترديد الدعوات. كان النور الرقيق يتسلل عبر النافذة الصغيرة ويكشف وجها مليئا بالأسى. اقتربت من سريرها الحديدي العتيق.. وضعت يدي على رأسها وهي نائمة تتأمل السقف الأبيض بعينين زائغتين. لم تنتبه لوجودي بل واصلت التسبيح رافعة سبابتها إلى السماء. قبلت رأسها وأنا أشم تلك الرائحة القديمة؛ رائحة القرية وأمي والحنين، ثم قصدت بيت النار.

كانت الحصيرة مليئة بالكتب والأوراق. وعلى الرغم من شعوري المنفر بالإخفاق بعد فشل الرحلة، إلا أن شيئا عميقا كان يستثير خيالي ويلوح مثل طيف عذب يخفق في الأفق البعيد؛ لعله ذلك الشعور بالانطلاق وإرادة الفعل. بدأ حلم الرواية يدغدغني، يتسرب بلطف إلى كياني الهش ويحول الشعور بالسأم إلى فرحة فتية هادئة أو إلى شمعة تضيء عتمة الليل. لكن الشمعة التي تذوب شيئا فشيئا خلف الظلال المبهمة لا يطفئها سوى ذلك الحنين الآتي من بعيد؛ المكسور والمكسوّ بالسقوط المتكرر للأمنيات. كنت على يقين أن الآلام حين تصبح جزءا من الحياة فإنها تفقد كل المعاني والدلالات.. إنها ليست سوى قدر عبثي نقبل به ونتعايش معه ولكن لا نحبه. وفي قلب هذا العبث تصبح اللحظات الجميلة؛ حيث النور والدفء والسعادة المؤقتة القصيرة جدا، تعويضا لذلك الإخفاق المتكرر المحفور في الروح.

واليوم.. أنا سعيد. هل سعيد بالفعل أم هي مراوغة لذات استبد بها الأرق وأرهقها؟ وقفت في مواجهة الحائط القديم.. كانت ظلالي القديمة تتراوح وتتشتت على الجدران العتيقة. مددت يدي على الجدار الدافئ واتكأت برأسي على ساعدي.. ثمة دوار يشبه قرار الموت المفتعل. تمتد يد فلورا إلى رقبتي

وتتسلل بعمق إلى أعلى ظهري. يسري الدبيب في جسدي وأرتعش.. تضمني وتشبك يديها حول صدري وتنام برأسها على كتفي وتردد بصوت هامس "أحبك".. ألتقط يدها وأقبلها فتنتشر ظلالي الهامدة مثل مرايا تنير ظلمة السراديب.

ظلت الرحلة تلازم خيالي وتستدعي أفكارا تتولد واحدة تلو الأخرى. السيارات والغبار وحقول الكيف. لا يبعث المشهد على التأمل ولا يثير الخيال بأحاسيس عذبة، بل يولد السأم والتقزز. لكن صوتا آخر ينبع من بعيد ويجادل بأقسى نبرة ممكنة؛ ليست الكتابة تجميلا لواقع ما، بل كشفٌ للمستور فيه. التقطت ورقة وقلم رصاص وممحاة وجلست على الحصيرة وكتبت عنوانا صغيرا:

الطريق إلى تجكان

كان (م) يمضي بين حقول الكيف ذات العيدان الطويلة؛ يتذكر صباه من خلال الرائحة التي طالما اعتقد أنها تنشط العقل. لكنه شعر أن ثمة فرقا بين العيدان القديمة التي تتميز بالقصر، والعيدان الحديثة المستوردة من باكستان الأكثر طولا. وفي أثناء مشيه بمحاذاة السواقي التي تخترق الحقول، كان يبلل شعره بالماء البارد المتدفق ويصغي بعمق إلى خرير المياه التي كان يحبها أكثر من حبه لأي شيء. لا ينسى (م) أنه كان يقضي معظم النهار في السباحة في واد "أمتار" عند التقاء مائه بأمواج البحر.. يتمرغ في زبده حتى يشعر بالإنهاك ويغالبه النوم وهو على ضفاف النهر تحت أشعة الشمس. لا ينسى أيضا أنه يذهب إلى أرض خاله في وسط الحقول ويملأ السطل بالماء البارد من البئر العميقة ثم يسكبه على جسده النحيف وهو يرتعش. كان يحب الماء ويشعر أنه سبيله الوحيد للسعادة المطلقة. وهاهو اليوم يجدد الحنين.. يبلل شعره ويترك القطرات التي تكاد تبلغ حجم حبات التوت تنزلق على خده، ويقول ل(ف) وهو يستدعي كل ذكريات الطفولة "كم أنت جميلة!" فترد عليه بعينين تلمعان تحت أشعة الشمس المكسورة "وكم أنت مزاجي!".

يواصل (م) طريقه مخترقا حقول الكيف التي ابتلعت كل الأرض، لكنه يتوقف بين حين وآخر لينصت لدقات متتابعة ومنتظمة تأتي من البيوت الموازية للوادي تشبه دقات الطبول في حرب قديمة. عرف بحكم التجربة أنها عملية تحويل سنابل الكيف إلى حشيش؛ فبعد جمع محصول الكيف شهر أغسطس يتم تخزينه في غرف خاصة حتى يحين موعد استخلاص المادة الخام؛ عبارة عن مادة لزجة طحينية يتم أيضا تحويلها بواسطة ضغطها في آلات إلى قطع صابونية. لكن صوت الطبول الذي يخترق صمت الوادي ويمتزج بنقيق الضفادع وصرير الجراد، ينفذ إلى الذاكرة ويستدعي الصور الطفولية الدفينة. كانت المنازل مثل الأطلال تحيطها أشجار متفرقة وحقول الكيف حتى بدت كأنها مستودعات لمنتوجات فلاحية. صمت رهيب لا يكسره سوى صياح بعض الأطفال الحفاة وهم يتسلقون الأشجار ويصرخون. حاولت (ف) أن تلتقط الصور لكن (م) منعها من ذلك تجنبا لغضب أهل القرية. قطعا صمت الوادي ومايزال صدى الدقات يتسلل إلى أعماق (م) ويثير مشاعره المتضاربة بين الأسى والأمل المتجدد.

كانت الطريق الضيقة والمعرجة تعلو وتنخفض وتنتشر في جوانبها الأسمدة الطبيعية المتراكمة. لا يقطع السكون سوى صوت السيارات الرباعية التي تتوافد على القرية من "بني منصور" حاملة البشر وهم يتكدسون مثل الغنم على سطحها. تخترق السيارات حقول الذرة والكيف وهي تستقبل أشعة الشمس المتلألئة البراقة. يشعر (م) بالصدمة.. بأن الصفاء المطلق الذي تشربته ذاكرته طوال السنوات الماضية وكان أحد أسباب مقاومته لعلل الزمن، يصاب الآن برجَّة عنيفة. وصل إلى الجسر الصغير المصنوع من الخشب والذي يغطي الساقية التي تمد الأراضي بالمياه، ضغط عليه بثقله تتبعه (ف) وهي ترفع عينيها إلى الشمس الحارقة. شعر بأن الجسر الصغير يتمايل ويهتز وعلى وشك السقوط. تابع خطواته بشرود ثم التفت إلى الجسر وقد بدأ يختفي وسط الغبار الشديد ودخان السيارات. شعر بإنهاك وفتور شديدين. أمسكت (ف) أصابعه وضغطت عليها وهي تصنع ابتسامة محفزة، ثم واصلا المسير.

وصلا إلى التل الذي يطل على الوادي. كان المشهد من فوق يثير

الحنين؛ حيث تختلط سنابل الذرة بالكيف وتتقلص كثافة الغبار إلى حد تصبح معه القرية في صورة جديدة متخيلة وغير حقيقية. تلك الصورة التي سعى (م) طوال حياته أن يجعلها محفزا على المضي رغم الانكسارات التي لم تنقطع. جلسا تحت شجرة تين ظليلة. اتكأ (م) على جذعها ثم غرس أصابعه في التراب وتنفس بعمق هواء نقيا عذبا. قال ل(ف): إننا لا نشعر بالجمال إلا في الأعلى.. حيث يختفي البشر وتفقد الأشياء حقيقتها. هل يجب أن نعيش فوق كي نشعر بالسعادة؟ ألا ترين معي تلك الحقول الخضراء كم تبدو جميلة متناسقة بينما هي في الحقيقة وهم أو خراب؟

يتخيل (م) نفسه يمشي في أرض خضراء مفروشة يقطعها نهر كبير محاط بأشجار التين. يجري بسرعة وقد تملكته براءة الطفولة ومشاعر الانطلاق. ثم يصعد عبر ممر طويل ضيق إلى أعلى يبحث عن منفذ، وكانت الشمس تحتد وتتوهج.. وهو يلهث ويئن تحت وطأة الخوف. يصل إلى الحافة.. يحاول التوقف لكن تيارا يجذبه بقوة إلى الهاوية.. إلى السقوط المفاجئ والمبهم. تعبر تلك القشعريرة ضلوعه وهو يتهاوى ببطء وبراعة المستسلمين.. تختلط الصور القديمة والحديثة.. لقد تعود الاستسلام لمثل هذه المصائر منذ زمن وهاهو اليوم في مواجهة الموت الذي يخافه.

ضغط على يدها: لماذا نخاف الموت؟ هل لأننا نحب الحياة؟ ثم واصل بعد صمت: لكني لا أحبها وليست لدي أمنيات كثيرة لأتعلق بها.. فلماذا أخاف الموت؟

لكن (ف) لم تترك له مجالا للتوغل في الأفكار فأشارت بيدها إلى راع شاب يلبس منديلا، يحيطه على خصره ويتمايل بجسده ويتغنج وهو يعبر الطريق المنحرفة الرقيقة التي تقطع التل. ضحكت هي بقوة بينما واصل (م) تبلده وهو يفكر في السقوط البطيء. ثم أثارت انتباهه لافتة من الحديد منصوبة أسفل التل كتب عليها (المغرب الأخضر) وحين التفت إلى الجبال المحيطة بالوادي والمطلة عليه من كل جهة لمح بقايا عيدان أشجار لوز متيبسة. وعند أسفل التل لمح أطفالا صغارا متسمرين يحملون بأياديهم مقالع كأنهم يستعدون

لمعركة حامية.

زعبول

شعرت بالتعب اللذيذ بعد يومين قضيتهما محشورا في بيت النار بين الأوراق والكتب. توقفت عن كتابة أحد الفصول وقد أيقنت أن أي إبداع من دون تصميم وخطة جامعة سيحول النص إلى ثرثرة، وإلى حكايات بلا هدف. ترددت بين الأفكار وأنا مستلق على الجدار أحدق في الفراغ. ولم أكن أدري حينئذ هل فقدت الإدراك تماما أم هي مجرد لحظات تسبق التجدد والانطلاق. لحظات مثل العدم تحول الفكر إلى قطعة ثلج. أعدت قراءة ما كتبت بصوت خافت:

"شرب الشيخ جرعة ماء وتابع:

- أراد المستعمر أن تكون الجبهة جنة..

- وهل صارت جنة؟

تساءل (م) بسخرية بينما أجابه الشيخ وهو يحدق فيه وقد غطت الشعيرات الدموية بياض عينيه:

- نعم صارت جنة... لكنها لم تدم للأسف..

استأنف الكلام بعد لحظات تأمل:

- هل تعرف.. أن القبطان (سيرا سيدا) لمح ذات مرة شخصا يقطع ورقة من شجرة في حدائق الجبهة التي اختفت الآن، فعاقبه بدفع غرامة مائة بسيطة.. قال له "ماذا فعلت لك الشجرة كي تقطع أوراقها"؟

- لا.. لا أعرف. لكني أعرف أن الجبهة كانت حديقة كبيرة.. وجميلة.

ثم تلكأ (م) قليلا وهو يفكر في هذه الذاكرة اللعينة التي نعيش حياتنا لنروي تفاصيلها. إننا نموت فقط حين نتوقف عن الحكي.. حين نشعر أن الصور لم تعد تراود خيالنا وأننا صرنا مثل الجليد".

فجأة تقطع هدوئي فلورا وهي تدخل بِيت النار تحمل بين أصابع يديها الاثنين كأسي شاي. تمدني بكأس بينما ترشف من كأسها جرعات طويلة مزعجة. تقول وهي تضحك:

- أنت من قلت إن لذته تتجلى في هذا الصوت العذب..

- وأنت.. ألا تقلدينني إلا في المساوئ..؟

واصلت جرعاتها بصوت جرّار قديم.. بينما وقفت بصعوبة وسط بيت النار وأنا مستغرق في التأمل. وكانت أشعة الشمس تتسرب إلى فناء الدار باردة متقطعة. ولمحت جدتي وهي تمضي بتثاؤب وتفتش في الركن عن أشيائها. اقتربت منها وقبلت رأسها وأنا أشم رائحة حنين مخزون. وكانت تتطلع إلي بخوف.. بحذر.. بشرود. لا تقوى على الكلام.. ولا التعبير عن سخطها أو آلامها. لكنها قالت وهي تعود إلى غرفتها (لقد كرهت النوم.. كرهت هذا السرير.. اللهم لك الحمد.. أستغفر الله). ظلت تكرر الدعاء وهي تدلف غرفتها بينما بقيت معلقا وسط الفناء تتشرب أذناي تغريدة العصافير وهي تطل من عشها المعلق في ركن السقف.

كانت فلورا حينئذ تقرأ رسائل الشيخ إلى أمها ألما ومذكراته وبريق نشوة يطل من عينيها. قالت لي وأنا أنحشر مرة أخرى بين الأوراق المبعثرة:

- الحب لا يموت يا مختار... لقد عاش الشيخ حياته يتأمل صورة ماما ألما... كان يكفيه فقط التذكر كي يعيش أفضل..

- ربما لأنه حب غير مكتمل..

قالت بغضب:

- أنت لا تؤمن بالحب يا مختار... لذلك لن تؤثر فيك هذه التفاصيل..

- أقصد أن الحب غير المكتمل يعيش في الذاكرة وقد يصبح وهما.. ليس بالضرورة هو الحقيقة.. النفوس يا فلورا أشد تعقيدا مما نظن.. وكثير منا يصنع وهمه ليعيش..

تجنبت فلورا النقاش وتابعت قراءة الرسائل بينما قلت لها:

- أتعرفين.. كل ما حكاه لنا الشيخ عن الجبهة يؤكد أننا بعد الاستقلال ضيّعنا كل شيء.

- من السبب؟

تساءلت فلورا. لكني بقيت صامتا. لم أملك الجواب.. فاكتفيت بالشرود.

قالت هي بنغمة محفزة:

- هل سجّلت كل ما حكاه الشيخ؛ تفاصيل الحياة قبل الاستقلال؛ العيش المشترك بين الإسبان واليهود والمسلمين.. حدائق الجبهة ومآثرها.. قصص بعض الشخصيات وطرائفهم؟

شعرت بحماس يتملكني فجأة. قلت لها وأنا أرتب أوراقي من جديد:

- هذا ما أسعى إليه الآن.. لكني أشعر بالحيرة أو التردد.

- يجب أن تحدد هدفك يا مختار.. كي لا تتوه..

قضيت وقتا في ترتيب الأوراق وشحذ الذاكرة وتحفيز الخيال ثم وضعت تصميما صغيرا يسعفني في تسجيل بعض الحكايات المتفرقة والتفاصيل التي رواها كل من الشيخ الفنان وعبد النور أو تلك التي استقرت في الذاكرة من خلال المراجع والكتب والمرويات.

زعبول اليهودي

أحد يهود الجبهة وعلاماتها. كان يملك دكانا صغيرا لصنع البرادع. يلبس جلبابا صوفيا ويجلس في دكانه ذي الباب الخشبـي الأزرق العتيق والنافذة الصغيرة التي يتسرب منها قليل من الضوء. يقضي يومه كله في صنع البرادع. عاش في الجبهة خلال فترة الحماية، وبعد الاستقلال، لم يغادرها مع أولاده مثل باقي اليهود والإسبان، بل مكث فيها إلى حدود 1973. وكان يهود الجبهة غالبا ما يتعاطون التجارة؛ فيعقوب كان يتجول بحماره في كل القبائل وهو يحمل بعض المستلزمات من إبر وخيوط وسواك وقلادات وكحل، يستبدل بها بيضا وشعيرا وقمحا. يخزِّن القمح ثم يقوم ببيعه إلى الأهالي من جديد حين ينفد مخزونهم. أما خاكوبو فكان يعمل في فرن الجبهة مع مالكه الإسباني مايكل عاشق الأفراح والرقص الجبلي.

كان عمري تسع سنوات حين كنا نقذف زعبول بالحجارة في دكانه ونهرب. لم أكن أعرف أنا وصديقَي في الجبهة؛ عبد الحكيم ونور الدين، لماذا نضربه؟ لكننا كنا نراه كائنا منبوذا وكريها كأنه دودة قز شعرانية أو جراذ. في نكسة 1968 شعر زعبول بأن الأرض ضاقت به وأن كل العيون تلاحقه وتنفر منه. وكانت كلمات الأطفال وهم يصرخون ويرمونه بالحجارة ويرددون "ليهودي هاهو... ليهودي هاهو" تجعله يشعر بالنفور والأسى العميق. لم يهاجر زعبول رغم كل شيء؛ فقد كان عاشقا لهذه الأرض التي قضى فيها حياته كلها. لكن بعد حرب 1973 بين العرب وإسرائيل حدث أمر طارئ. فقد أفاقت الجبهة على مشهد مؤثر. وصلت إلى وسط المركز سيارة فولسفاكن

سوداء بها شخصان عرفنا فيما بعد أنهما ابنا زعبول. لم تمض سوى دقائق حتى كانا يمضيان بأبيهما العجوز إلى سيارتهما.. أخرجاه من دكانه وهو يتعنت وقدماه ملتصقتان بالأرض وعيناه تذرفان الدموع. لا أذكر سوى أنه كان يمضي معهما منزوع الإرادة وهو يلتفت إلى الوراء وإلى دكانه مثل طفل صغير تائه يبحث عن أمه في سوق مكتظ.

خالتي وشجرة الليمون

خلعت فلورا ملابسها واستلقت على الرمال تتشرب خيوط الشمس اللاهبة. تحلَّق حولها الأطفال مجموعات متفرقة وهم يتهامسون بعيون ظمآنة يسيل اللعاب منها. أما هي فاستسلمت للشمس المجنونة والصمت. لم أرافقها تجنبا للجدال العقيم؛ فقد وضحت لها مرارا أن قريتنا محافظة والسباحة بالبيكيني أمر يخالف العادات، لكنها ترد علي أن العادات ليست قانونا كونيا بل نسبـي.. وأنها امرأة حرة.

تطلعت إليها في ذلك الصباح الساخن بحذر؛ من النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية الصدئة التي توسطت الغرفة الطويلة، ثم انسحبت هامدا باردا أشق الطريق بين الحقول المطلة على البحر. أتنسم رائحة الأرض القديمة.. وأتشرب عبق التربة الندية، رحيق العشب البليل وقد نفثت فيه الشمس طراوة لزجة.. رحت أستجمع قواي المشتتة وأنا أمرر عيني في الأفق البعيد.. وأتنفس الحرية وأنشد السكينة وأنصت لذلك الوجيب الخفي.. أجلس في منتصف الطريق خلف سور منزل قديم آيل للسقوط، أحتمي به من الشمس اللاسعة والمخيلة التي تتدفق فيها الصور. أتساءل بنبرة جدل عميق وعتاب أزلي "لماذا أنا هكذا؟ لماذا أقمع بداخلي كل الآمال الممكنة؟" ثم أغرس أصابعي الجافة في التراب اليابس، في الأرض الخرساء.. أشعر بنبض خافق يتراوح بين النور والجحيم. عروقي باردة وشبح الأرق يمتص لظى الشمس وهي تتسلل مثل سهام حادة. هوَّمت قليلا.. ثم انتبهت إلى عصافير تتراقص بين النباتات. رفعت عيني ثانية إلى قرص الشمس وقد توسط كبد السماء

وأسال خيوطه الصفراء الشاحبة. التفت إلى الجانب الشرقي من القرية حيث الخراب؛ البنايات الأجورية الباسقة غير المطلية والمتشابكة.. الصحون الصدئة وأسلاك الكهرباء العارية.. شعرت بذلك الدوار الطفيف الذي صار يلازمني منذ سنوات. وقفت بصعوبة وانحدرت إلى الشاطئ. واجهته بعينين غائمتين. فتحت أزرار قميصي. لفحني هواؤه البارد بينما تحلق النوارس في صفين متوازيين وتصيح. التفت يمينا ويسارا يراودني شعور بقلق عميق مبهم. خلعت نعلي وثنيت سروالي إلى ركبتي وغمرت أسفل قدمي في البحر، فخمد الجمر. تسللت البرودة إلى قلبـي الهش.. أطفأت الهشيم الذي يحترق بداخلي.. ثم غسلت وجهي جيدا وبللت شعري مرات متتالية. تنزلق القطرات الثقيلة على جسدي.. أغتسل وأتجدد؛ أعيش وهم الانتصار المؤقت على الخوف، بينما الأمواج الهادئة، تحن وتئن وهي تصعد هادئةً وتقاوم كي تلامس ظلال جسدي المنكسرة.

قضيت وقتا أراوغ حوافزَ الحياة وأرقها. نظرت إلى الشرق حيث الجبال مرتصفة بسلاسة. شيء ما يحثني ويثبت قدمي ويحول دون سقوطي الأبدي. لم أعرف طوال حياتي العزيمة المطلقة ولا الخوف المطلق؛ عشت مترددا بين الحرية وبين الأرق؛ غريقٌ يمد يده إلى جذع شجرة لكنه يتنفس تحت الماء ويختنق.. ويتلذذ بالموت البطيء. وها أنذا بعد كل ضيق أنبعث من جديد بعزم منكسر تقودني خيوط الشمس إلى اليقين؛ أراوح حياتي بين الانطلاق والفقدان؛ مثل طائر يتيم يجرب التحليق.

قطعت الطريق إلى بيت خالتي هذه المرة من الجهة الغربية تفاديا من الدروب الضيقة الموحشة ورائحة الدم. سلكت ذلك الممر الموازي للبحر حيث بقايا المروج والأحواض المائية الميتة اليابسة وقد تراصت مثل ظلال أطلال. فمع انحسار الأمطار وتلاحق سنوات الجفاف؛ تجف الأودية التي تشق القرية وتصب في البحر عند انتهاء فصل الشتاء، مخلفة شريطا طويلا من الأرض القاحلة متيبسا ومكتظا بالأحجار والأغصان. شريط تغزوه الشاحنات التي تنقل الرمال والأحجار الخاصة بالبناء.

عرجت إلى اليسار.. شريط الوادي اليابس استدعى ذاكرتي القديمة؛ المياه التي كانت تندفع صوب البحر وهي تصنع خريرا عذبا وزبدا متدفقا.. النساء وهن يغسلن ثيابهن على أطرافه ويهمسن بفرح طفولي شفاف.. الأطفال وهم يمرحون في مياهه الباردة.. سعاد التي كانت تحلم وتبلل وجهها وتقول إن مياه هذا الوادي تغسل القلوب الحزينة. باحت بأشياء كثيرة تحت ظلال شجرة التين الوارفة لكني لم أقل شيئا.. اكتفيتُ في النهاية بنزوة وجنون عابر. وهاهي المرأة التي كانت وردة ذبلت تحت الشمس وصارت ظل امرأة فحسب.

خطوت هامدا وأثار انتباهي عمال الشاحنات وهم يجمعون الأحجار المتفرقة تحت لهيب الشمس. على يميني الحقول الممتدة وقد كسرت خضرتَها البيوتُ الإسمنتية المتفرقة. وصلت إلى البئر. سحبت الدلو.. وشربت بلا توقف وأنا ألهث.. وكان ثمة بغل كبير يشرب إلى جانبـي في سطل مماثل. راقبته بتمعن؛ كان دقيق القوائم صغير الحوافر، له ذيل طويل كثيف الشعر. يشرب الماء ويحرك فكه الأسفل يمينا ويسارا ويرقبني. نزل الماء في حلقي باردا رطيبا عذب المذاق. شعرت بانتعاش وهدوء وأنا أغسل وجهي بماء البئر. تتسلل رائحة الأسمدة الطبيعية إلى ذاكرتي وتجدِّد الحنين. بينما تلوِّن السواقي التي تشق الحقول بمياهها العذبة شعوري بألوان البهجة.

خلَّفتُ الحقول ورائي وأنا أحمل إحساسا جديدا أقل سأما. قصدتُ بيت خالتي رحمة. طرقت الباب مرات عديدة من دون أن يفتح أحد. انتظرت لحظات تحت وابل التوجس.. فُتح الباب ببطء. وضعت قدمي اليمنى داخل الردهة فلاحت لي خالتي واقفة خلف الباب شبه مذعورة. سبقتني إلى الصالة أتبعها بخطى رتيبة.. لكنها استدارت إلي وطلبت مني أن أغلقه. أغلقته وتوقفت قليلا لكن الأسئلة لم تتوقف. جلَست في الزاوية بعيدا عن النافذة وأطرَقت. جلست إلى جانبها:

- ما بك خالتي؟

ظلت صامتة.. تنظر إلى الأرض شاردة وتحرك أصابعها بين حبات

المسبحة وتتمتم بشفتيها اليابستين. سألتها ثانية:

- ماذا هناك خالتي؟ هل حدث شيء؟

رفعت عينيها بحذر وترقب.. وبصوت رقيق يرتعش قالت:

- لا أعرف يا ولدي.. أشعر بالخوف. لا أريد رؤية أحد.. وليست لدي رغبة في الذهاب للحقل أو القيام بأي شيء. أريد النوم ولا أستطيع.. أرى كل شيء أسود من حولي.. وفي الصباح أفيق كالمجنونة.. أتخبط.. صداع في رأسي، ليس ألما عاديا لكنه غليان.. شيء ما يناديني ويدفعني إلى أن..

صمتت فجأة.. ثم تطلعت إلي بحذر.. أمسكت يدي وقبَّلَتها مستعطفة.. عروقها ترتجف:

- لم أعد أصلي بتركيز يا ولدي.. نسيت كل السور التي حفظتها. وأحيانا أنسى إن كنت صليت أم لا.. عقلي مشتت.. سيعاقبني الله.. سأدخل النار يا ولدي.. نعم..

ثم تتطلع إلي مرتجفة:

- هل سأدخل النار؟

أقبل جبينها:

- لا تقلقي خالتي.. مجرد حالة وستزول.. يجب أن تخرجي من البيت إلى الحقل وانظري في الشمس كي تضيء قلبك.. هذا هو أفضل علاج يقيك من هذا الشعور.

تشير إلى رأسها:

- يغلي.. إنه يغلي..

كنت أعرف هذا الشعور أو العلة التي تنهش عقل خالتي.. تلك التي أصابت أمي من قبل، وتناثرت بقاياها في كياني سنوات طويلة؛ ولولا القراءة وفلورا لكنت قد انهزمت واستسلمت. فكرت في حلول مجدية تنقذ خالتي، لكن عجزي عن إيجاد حلول جذرية لمأساتي جعلني متفرجا على دنيا لا تنقطع فيها المفاجآت.

زفرت خالتي بهدوء:

- أمك كانت تعاني نفس الشعور.. أتذكر أنها كثيرا ما حكت لي كيف تفيق من النوم على وقع أشباح يطاردونها.. سيوف معلقة على رقبتها تهددها. تعذبت المسكينة وقاست ونحن لم نشعر بآلامها.. طالما حدثتنا عن الصوت الخفي الذي يهمس في عقلها ويدفعها للموت.. أما نحن فاعتقدنا أن شيطانا مسَّها. عانت كثيرا أمك الغالية في صمت.. القلب أعلم بدائه يا ولدي.. القلب أعلم بدائه..

أصخت عميقا لزفرات خالتي وهي تحكي عن أمي؛ تتماثل الصور العليلة في ذاكرتي، مثلما تتماثل الجينات عند البشر وتتحكم في سلوكاتهم؛ مآسيهم وفرحهم. أردد بصوت يئن، إننا محكومون بالعيش في ظلال الخوف والترقب وهواجس المفاجآت التي لا تنقطع. أتذكر ما قاله خالي من جدي الحاج محمد قبل سنوات طويلة "أنتم أبناء وأحفاد الخالة حمامة ضعاف القلب" لم أع جيدا ما يقصده خالي حينئذ بحديثه، لكن مع مرور السنوات وحرصي على تأمل الطباع البشرية المختلفة والولع بفهمها، صارت تلك الجملة مرجعا لي في فهم هذه الشخصيات التي تتشابه في العلل والهشاشة. فهاهي جدتي عاشت سنوات طويلة في صمت فاقدة لكل مرح.. أمي التي تآكلت وانتهت بمأساة.. خالتي التي عاشت بمزاج جيد هاهي تفقده في أول محنة حقيقية.. أنا أيضا؛ هذا الجسد المحمل بميراث القلق والفتور والأرق. كان صديقي عبد العزيز الذي رافقني في إسبانيا لسنوات؛ وأناديه بالحكيم، يقول لي باستمرار: الإنسان الذي لا يروي النكت ولا ينصت لها معرض للمرض في أي لحظة. وكثيرا ما يردد على مسامعي: الوحدة غير جيدة لأصحاب القلوب الهشة..

عليك بالرياضة والابتعاد عن التوتر والدخول في مهاترات. كانت نصائحه لا تتوقف.. وهو الذي يعرف بحكم صداقتنا الطويلة أنني أسير تدريجيا نحو الاكتئاب. وحتى حين شفيت منه كان يقول لي: هذا علاج مؤقت.. العلاج الحقيقي بيدك أنت لا بعقاقير ومهدئات.. العلاج الحقيقي أن تغير نمط حياتك وتفكيرك.

وقفت وخطوت ببطء نحو النافذة ونزعت المنديل. نفذت أشعة الشمس من الزجاج الشفاف وانعكست في الظلال الباردة مثل خيوط النار لاسعة متوهجة. لمحتُ خالتي وهي تضع راحة يدها على عينيها وتقول بصوت منهك:

- اغلق النافذة يا ولدي.. اغلقها أرجوك..

لكني فتحتها فتسرب هواء لطيف مشبع بأزهار الدفلى. بينما هي تردد:

- أرجوك يا ولدي.. أنا متعبة..

وراحت تبكي بشدة.. لكن من دون دموع. حضنتها وقبلت يدها وأنا أردد بحسم:

- غدا سنسافر إلى تطوان لاستشارة الطبيب..

وبينما أستعد للخروج جاءت مريم. واجهتني بعينين مذعورتين:

- ماذا أصاب أمي يا مختار؟

- ربما صدمة نفسية نتيجة ما حدث.. غدا سنزور الطبيب.. لا تقلقي مريم..

قصدت شجرة التين المطلة على شريط الوادي الجاف. شعرت بالحاجة لهدوء يمتص كربـي. الهواء لطيف عذب.. نسائم ربيعية تتسلل؛ مزيج من

الكيف والدفلى والتين. توسدت ذراعي بمحاذاة جذع الشجرة ورحت أفكر. فعلا خالتي؛ القلب أعلم بدائه. لقد أيقظت هذه العبارة تلك النار الخامدة بداخلي منذ زمن. فبقدر ما تجنبت الخوض في ذاكرتي المثقلة بالهزائم والانكسارات لسنوات طويلة، تلاحقني هي وتستثير أرقي المتربص. قرأت في رواية "الخلود" عن الرجل العاطفي الذي يحيرنا بلامبالاته بعد أن يبهرنا بعواطفه الكبيرة؛ إنه يشبه الممثل المسرحي الذي يتقمص الحزن لكنه يطوي كل آلامه بعد انتهاء العرض.. أو يتبخر في الوقت الذي ينزع فيه ملابس الشخصية.

كثيرا ما نزعت عواطفي لأبدأ من جديد، لكن البدايات أمر مرهق بحق؛ أن تتخلص من عواطفك يعني أنك تنسلخ من ذاكرتك لتصنع ذاكرة جديدة في أرض جديدة. كانت فلورا تقول لي لا يمكنك أن تعيش بذاكرتين.. لا أحد يملك الدنيا يا مختار.. إننا نلمس أجزاءها فقط لنضيء مكاننا الصغير. لكني يا فلورا لم أكن أريد سوى جزء صغير من الدنيا؛ الجزء الذي تقف فيه أمي وحياة.

ومنذ أن ماتت أمي وغابت حياة وأنا أشعر أن الدنيا تجري.. وأنا خلفها أركض وألهث. رحلت حياة فجأة وتركتُ جزءا مني يرحل معها بلا عودة. ماذا أريد؟ لم أفكر في الجواب.. لم أبحث عن الجواب.. كأن حياتي بدأت تشق طريقها نحو اللامبالاة الأبدية. قررت أن أعيش في ظلال الذكريات أتنسم ذلك العطر الخفي؛ عطرها المسكون بلهيب الشمس وأوراق شجر الليمون الندية.. لم يعد يغريني في الحياة سوى أن أكتب ما يجدد حنيني ويبدد هواجسي القديمة. لكن الكتابة عصية؛ نزيفٌ رمادي معذِّب أو ظلال منسية. كثيرا ما سألتني حياة ونحن نختلس لحظات الصفاء في حديقة "رياض العشاق": هل ستكتب عني يا مختار؟ أضحك وأجيبها: أريد أن أكتب عن جدي وعن الذين نزفوا في صمت ورحلوا في صمت. فتقول وهي ترفع حاجبيها وتبتسم ابتسامة صباح بريئة: حتما ستكتب عني.. أنا قدرك.

تلسعني الشمس وهي تتسلل بين أوراق شجرة التين. تعشي عيني.. يوقظ لهيبُها نارا قديمة؛ صور التعذيب في أقسام الشرطة والسجن المعتم، الأسئلة التي تتلاحق وتتدافع والكلمات التي تنهال مثل الرصاص، الشمس

المتوهجة وهي تغرب قبل الأوان.. كل تلك الآلام تعمِّقها صورة أمي التي تنزف، وصورة حياة التي تبخَّرت وذابت فجأة مثل شمعة ذات ليلة طويلة في قلب صحراء قصية ومنسية. نعم خالتي؛ كانت أمي ترى أشباحا وكانت السيوف تتربص بها كل صباح. حكت لي كثيرا عن رعبها الأبدي ولم أكن أعرف جيدا حجم الآلام.. لا، كنت أعرف، لكني كنت قليل الحيلة أيضا.

كان يوما حارقا من أيام أغسطس قبل اعتقالي بشهور قليلة.. صحيح مضى أزيد من عقدين على ذلك، لكن الزمن يقاس باللحظات المؤلمة والفارقة أيضا وليس بالأيام والسنوات فحسب. كان المرض قد اشتد على أمي حينئذ؛ بينما كنت منهمكا في النضال والمظاهرات التي عمت كثيرا من مدن المغرب؛ نوزع منشورات ونلتقي مجموعات سرية في بيوت قديمة بأحياء فاس ودروبها الضيقة. وعلى الرغم من الخوف المتربص بنا حينذاك، كانت حياة تملأ قلبي بالحب والحرية. نلتقي كل مساء لتحكي لي وجعها وأحكي لها أحلامي التي لا تتوقف.. وكانت هي تكره السياسة والحديث فيها وتقول: لماذا لا نعيش مثل كل الناس.. بسطاء هانئين.. الخوف سيقتلنا يا مختار. أجيبها: مثل كل الناس يعني أن هذا الوطن سيتبخَّر.. ثم أني لست مثل كل الناس.. ألم تحبيني يا حياة لأني مختلف.. أليس هذا حديثك؟

لكن النضال والحب كثيرا ما يخففان هواجسي التي لم تنقطع بخصوص معاناة أمي؛ توهمت أن يطرد الحبُّ الشكَ الذي يحاصرني، وتعشَّمت أن تبدِّد قصتي مع حياة تلك الغيوم التي استقرت ثقيلة في بيت العائلة.

اشتدت الشمس فوقي.. لكن ظلال الريح الخفيفة الآتية من الشرق عبر التيار البحري كانت تنعش الروح. مططت رجلي فوق العشب الأخضر المعرج وأنا أردد: لست وحدك خالتي.. أمي أيضا كانت تقبل يدي مستعطفةً كلما هممت بالخروج من البيت. كانت ترى في عيني مرفأ للأمان والسكينة.. لم أكن أملك حلا لمأساتها ومعاناتها.. لكني كنت أملك أملا أبثه في قلبها كلما اشتدت الروح وتقلَّصت الأمنيات. كنت لطيفا معها خصوصا بعد مرضها، وكانت تراني المنقذ من الجحيم. تمسك يدي وتقبلها وتستعطفني: هل سأشفى

يا ولدي؟ تشير بيدها إلى عقلها: الشياطين تنهشني.. أنا مذعورة صدقني. أمسك رأسها.. أقبلها وأدعكها جيدا بلطف. أقول لها: تذكري اللحظات الجميلة في حياتك يا أمي. ترد هي بعصبية منهكة: لا أرى سوى السواد.. أرى كلابا تنبح وسيوفا معلقة على رقبتي. أتعب في المواساة. لم أكن أملك طاقة كبيرة لتخفيف الآلام. ربما لأني من سلالة المتعبين، أو لأني فقدت القدرة على الإقناع.

كان الاكتئاب قد عاود أمي بعد شفائها في تجربة المرض الأولى. عاودها بصورة أشد؛ فمع الكبر وتقلص الآمال واحتداد الطباع يصير الإنسان أكثر ميولا للسأم؛ قال لي الحكيم ذات مرة: إننا نشبه القطط؛ كلما هرمنا فقدنا القدرة على اللعب والمرح.. نكتفي بالأكل والنوم وننتظر النهاية. صحيح صديقي عبد العزيز؛ كانت أمي تنتظر النهاية.. تقول: أريد أن أرتاح.. لقد تعبت. قالت ذلك بعد أن ضاقت بها حياتها وأدركت أن طباعها وجيناتها سبب عذابها.

عشت شهورا مترددا بين الخوف والحب والحلم؛ كلما التقيت حياة ينازعني شعور بأن الأيام تخبئ لي مفاجآت لا تنقطع. ثمة صوت انفجار يطاردني.. لا، ليس انفجارا.. إنه وقع سقوط قوي؛ شيء يرتطم بشدة محدثا رجة مخيفة. ظلت هذه الهواجس لصيقة بـي عمرا طويلا.. وكلما تملكتني نشوة الانتصار العابر أو أخذني الشوق المبهم، تربصت بـي صورة ذلك السقوط أو الانفجار.

لكن يوم الأحد لم يكن كسائر الأيام.

كانت أمي حينئذ في القرية في بيت جدتي بعد اشتداد المعاناة. اقترح أبـي أن يذهبا للقرية حيث الهواء النقي والخضرة. بلغني أن أمي متعبة جدا ولابد أن أسافر. ركبت الحافلة من فاس إلى تطوان وركبت الطاكسي من تطوان إلى القرية دون توقف. وصلت إلى بيت جدتي. دخلت الغرفة المظلمة. كانت أمي مستلقية على السرير إلى جانبها أبـي وجدتي وخالتي رحمة

وخالتي الصافية وخالي الحاج محمد وخالي أحمد.. لم أنتبه للباقي. كنت غائما مثل سحابة مشردة في فصل صيف قائظ. نظرت إلى أمي.. اختلست من عينيها تاريخا للآلام العميقة.. طعون على وجهها وأشواك على ثيابها وجلد يدها.. ذعر يملأ عينيها وهي تردد الدعوات. أمسكت يدها وقبلتها وأنا أسألها عما حدث. لم تنظر إلي.. ولم تبال بسؤالي، بل طلَبت ليمونة طرية من شجرة البيت. أحضرتها لها بسرعة. أمسكتها وحضنتها ثم رفعتها إلى فوق حيث يتسلل النور من النافذة الصغيرة مشبعا بهواء بحري عذب.. ثم وضعتها على أنفها وشفتيها وراحت تشم رائحتها وتزفر بقوة. بقيت أراوح ظلالي وهي تمتد في الغرفة.. وأنا أتساءل عما حدث؟ كان الصمت يملأ البيت وكان أبـي راقدا في جنب السرير ينزف. ربت بيدي على جبين أمي وأنا أسألها: ما بك أمي؟ لم تجبني.. اكتفت بتأمل السقف الأبيض وهي تزفر بقوة وتشم رائحة الليمون. وبعد لحظات ارتفع الشهيق بينما القلب ينبض بقوة والعينان غائمتان.. سقطت الليمونة وتدحرجت على الأرض، أما أمي فأرخت يديها حينئذ وأغمضت عينيها إلى الأبد.

خرجت من الغرفة حينئذ لا نقطة دم في وجهي، يداي مشلولتان وعيناي مذهولتان.. أراوح عقلي بين الشك واليقين.. هل ماتت أمي فعلا؟ هل رحلت تلك التي تحملت أنفاسي الثقيلة؟ ألن أتشرب ملامح وجهها المحفورة في القلب ثانية؟ نصف ابتسامتها وهي تعجن الخبز.. وهي تحمل الطعام وتوزعه على المطروحين في الطرقات؟ ضحكها الهستيري وأنا أقول لها وهي مستغرقة في التسبيح، إنني أشبهك وإن الأقدار تحمل الأحزان أيضا، تتوقف عن ترديد الدعوات وتقول: سيعذبك الله لأنك تقطع دائما صلواتي ودعواتي بكلامك الماسخ. أخرج لساني وأقلب عيني وأزم شفتي وأحدق في عينيها فتدفعني بيديها وهي تردد: والله مجنون.. بينما أمضي في مداعبتها وتمضي هي في كبت ضحكتها المرهقة.

ملأ الصراخ البيت.. بينما وقفت تحت شجرة الليمون متصلبا أنهش ذاكرتي.. تحاصرني الصور البعيدة.. يستبد بـي الحنين والشوق.. تدخل النساء إلى البيت تباعا وهن يرددن على مسامعي "رحمها الله يا ولدي.. رحمها

الله.. هذا حال الدنيا".

لم أستطع أن أتحمل الكلمات وهي تتكرر وتتدافع وتحاصر هذا القلب الهش فانزويت خلف جذع الشجرة أغرس أظافري في التراب تاركا دموع الفراق تجرف تاريخا من الذكريات والصور. غمرني الحنين والشوق وصرت مثل الخيل وهي تسيل. ألن أراك ثانية أمي الحبيبة؟ كان هذا هو السؤال المعذِّب الذي حاصرني في تلك اللحظات؛ أن تفقد ذلك الوسيط بينك وبين ذاكرتك، بينك وبين تاريخك وأرضك وتفاصيلك. مضيت أتنقل بين صور الفرحة والإخفاق؛ أستجمع ذكرياتي القديمة وحياتي المشتركة مع أمي الحبيبة. أمد يدي إلى غصن الشجرة الشائك.. أعصره.. أنزف.. أشعر أن الحياة لم تعد مغرية بما يكفي لنواصل وأننا في النهاية محكومون بالرحيل. تواصل النسوة دخول البيت.. همهمات متواصلة "لقد ارتاحت المسكينة.. يكفي ما قاسته.." وأنا أريد أن أفهم.. أريد أن أفيق من كابوس مرٍّ ليس فيه ظلال بهية هذه المرة..

أيقنت وأنا أقتحم فناء الدار المزدحم أني أذوب مثل كرة ثلج تحت شمس لاهبة، وأني فقدت القدرة على الانتباه العقلاني وصرت مثل ريشة فوق نهر جارف عكر. عدت إلى الغرفة.. جسد أمي المغطى بالثوب الأبيض تحت شعاع النور وهو يتسلل باردا مكسورا من النافذة الصغيرة.. صوت خالي الخاشع وهو يتلو القرآن.. أبـي المنزوي يستجمع صمته ويضغط على المتربة شاردا. قبلت يده وحضنته بقوة بينما راح يبكي بشدة.. لأول مرة أرى أبـي يبكي.

خرجت من الغرفة ثانية ولم ألتفت إلى جسد أمي وهو يغتسل بنور القمر. عدت إلى شجرة الليمون. ضغطت على حبات صغيرة خضراء.. قواي منهكة وقلبـي يرتجف.. لم أقدر على الوقوف. انحنيت متكئا على جذعها وشردت طويلا..

لكني لا أذكر ماذا حصل بعد ذلك.. كل الأحداث مرت بسرعة. حشود

الناس والأطفال.. الخبز الذي يحمى في الفرن وأطباق الكسكس.. إمام المسجد وهو يتلو القرآن مع طلابه وشيوخ القرية. أمي وحدها هناك صامتة إلى الأبد صمتا مطلقا أيقظ ثرثرتي وحرك هواجسي القصية. كل شيء مر سريعا ومنفلتا من سهم الزمن.. أتذكر أني خرجت من المنزل وذهبت إلى المكان اللعين الذي سقطت فيه أمي؛ المكان الذي وجدوها ترتعش فيه بين أشواك التين الشوكي باردة متصلبة مذعورة. وقفت هناك وحدي شاردا أنزف. العتمة شديدة وعواء الكلاب يتلاحق ممزوجا بنقيق الضفادع وصرير حاد لا ينقطع. وفي تلك الليلة أيضا نمت نوما ثقيلا وأفقت باكرا على صوت جدتي وهي تقبل يدي وتربت على جبيني وتواسيني. تقول وهي شاحبة: أمك في الجنة يا ولدي.. اختارها الله أن تكون بين يديه. أتذكر أيضا خالتي رحمة، الأقرب إلى أمي؛ لم تبك ولم تبح بشيء.. ظلت طوال تلك الأيام صامتة تذهب للحقل وتقضي يومها في العمل الشاق وتنام باكرا.

نسيت تفاصيل كثيرة؛ هل لأن الإنسان في لحظات الشدة يريد أن ينسى ويقاوم الذاكرة اللعينة بالنسيان لكي يبدأ من جديد؟ أم أن الزمن كفيل بأن يجعل حياتنا مجرد لحظات يتعاقب عليها الحلو والمر وأننا في النهاية لا نتحمل عبء أحزاننا؟ لكني أتذكر مشهد الجنازة جيدا.. أتذكر شريطا طويلا من الناس وهم يمضون إلى المقبرة التي تطلّ على البحر. كان اليوم مشمسا لطيفا والرياح خفيفة تمسد الأشجار. وكنت أحمل النعش بيدي وأمضي مثقلا بالحزن. ولأن من عاداتنا في القرية أن يمضي موكب الجنازة صامتا فقد كان الجو مهيبا.. تتلاحق الأنفاس تحت لهيب الشمس، ويبدو البحر صفحة واحدة ممتدة يتسرب هواؤه البارد إلى النفوس الحزينة. دفنت أمي إلى جوار جدي. رددنا الأدعية خلف الإمام وكنت أردد مثل الجميع بحلق يابس وشفتين جامدتين وعينين غائمتين.. لكني حين التفت إلى الجهة الشرقية مستجمعا أنفاسي بدت لي خالتي رحمة جالسة على الأرض وحيدة تغرس يديها في التراب، تحبس دموعها وتزم شفتيها وتتأوه مثل طائر جريح يقبض جناحيه وينزوي في الظل. بينما استغرقت في البكاء طويلا بكاءً لم أعرفه من قبل.. ربما لأول مرة أعرف معنى أن تجف الدموع.

لقد ماتت أمي..

فتاة الجبهة

كانت الرحلة إلى تطوان مؤرقة. سافرت في الصباح وعدت في المساء مثقلا بكيس أدوية نصحني الطبيب بضرورة أن تلتزم بها خالتي رحمة. فحصها جيدا وأكد لي أنها تعاني اكتئابا حادا. لم يستغرق اللقاء سوى ربع ساعة كانت خالتي حينئذ تبوح بخوفها وهواجسها وتسأل الطبيب بلهفة: هل سأشفى؟ يقول لها: بكل تأكيد.. فقط التزمي بالدواء..

أخبرتني فلورا أنها قضت نصف اليوم على الشاطئ ونصفه الثاني في إعادة قراءة مذكرات الشيخ عبد الرحمان ورسائله إلى ألما. سألتها عن جدتي فقالت إنها راقدة في فراشها كالعادة.

وعلى الرغم من تعب الرحلة والأرق الناتج عنها، قضيت ليلتي سعيدا. فبعد أن استرحت لساعة من الزمن انطلقت في قراءة المراجع المختلفة، أبحث عن معلومات تسعفني في فهم الناس الذين أكتب عنهم. عن قريتي وأهلها؛ هؤلاء الذين هاجروا قبائلهم واستوطنوا مدنا ومجتمعات أخرى ولم يرجعوا. كنت أعرف كثيرا منهم.. أو لعلي أحدهم. كنت على يقين أن فهم الجغرافيا يمثل مدخلا أساسا لفهم البشر. فهل أستطيع الجزم بأن قبيلة بني جرير بجبالها الصعبة وأجرافها الوعرة المحاذية للبحر والشديدة الانحدار لم تستطع أن تجعل أبناءها يشعرون بالانتماء الحقيقي، أم إن الأمر يحتاج لتأمل عميق لفهم العلل والأسباب؟

تذكر المراجع أن قريتي قبل قرن من الزمن لم يكن بها أي أمي. كل الأهالي متعلمون. وهم لا يمارسون أي مهنة إلا علوم الدين. وكان نشاطهم الترفيهي الوحيد هو الصيد أو القنص. النساء هن اللواتي يقمن بكل شيء؛ يزرعن ويحصدن ويرعين الماشية. ومن السمات العامة لأهالي بني جرير أن الرجل المتعلم يقرر مغادرة مسقط رأسه إلى مكان آخر وهو لا يعرف إن كان سيعود أم لا. يعمل هناك مدرسا لعلوم الدين مقابل أجرة بسيطة وغذاء ومبيت. بعضهم يستقر هناك طوال حياته فيقطع الصلة ببلده، وبعضهم الآخر يعود إلى قريته لتتكفَّل زوجته بكل شيء ويكتفي هو بتعليم الأطفال الأبجدية والقرآن. لم يكن الرجل الجريري قادرا على فعل شيء غير التعلم.

كنت أقرأ وأسجل ملاحظات وعناوين مؤقتة. أشعر بألم في ظهري سرعان ما يتنقل إلى فخذي وأقدامي.. لكني كنت سعيدا. كأني أحلق في سماء عالية تحملني أفكاري الجديدة والفريدة. إنه الشعور المألوف بالسعادة التي تسبق عملية الخلق الفني. ثم خطر على بالي شيء جديد؛ النظر في التقسيم الجغرافي لغمارة الشاسعة. ربما يسعفني رصد السمات العامة في فهم الناس وطبيعة المكان. وقررت أن يكون عملي انتقائيا؛ بحيث أركز على القبائل قديمة النشوء، تلك التي تعكس جزءا من التاريخ الأساسي للمنطقة. وضعت تصميما صغيرا وفي كل دائرة كتبت أسماء المناطق دون ترتيب أو منطق سببـي: تغسة.. خنوبة.. بني رزين.. بني خالد.. بني منصور.. أزغار.. بني بوززة..

قضيت وقتا أفكر في "تغسة" أرض الأجداد؛ تلك المدينة القديمة التي تعرضت عبر تاريخها للاحتلالين البرتغالي والإسباني. والتي نزل بها عدد كبير من الموريسكيين قبل قرون فحدث ذلك التلاقح الثقافي بين الأندلس والمغرب تجلى في طبيعة العيش؛ الأكل واللباس والفلاحة والتسمية أيضا. إنها معين حقيقي من الحكايات والأساطير؛ الذهب الذي أخفاه أهل سوس في قبور قبل هجرتهم. حكايات الحرب في العشرينات والتصدي للمستعمر.

لكني توقفت فجأة عن الكتابة وقد ملأت الورقة البيضاء بخطي الصغير

المعرج الذي أمقته. اتكأت على الجدار أتأمل ضوء القنديل وهو يتردد مثل الصدى فوق الكانون. التقطت مرآة صغيرة إلى جانبـي، بدا وجهي منقسما إلى أجزاء متساوية ومتدرجة. يعلو عيني بريق من نور مريض. مزيج من الحماسة واليأس في آن. جاءت فلورا تحثني على قسط من الراحة. قلت لها:

- لا أعرف ماذا أكتب. الخارطة في ذهني غير واضحة. أحيانا أعرف الطريق وأحيانا.. لا أعرف ماذا أقول لك. بينما أطمح لكتابة رواية أجد نفسي أحلق في التاريخ والجغرافيا.. وتلك ليست غايتي. ما الفائدة من التقسيم الجغرافي لقبيلة غمارة الكبيرة إذا لم تسعفني في فهم الشخصيات وتصويرها ورصد تحولاتها النفسية والاجتماعية؟

بعد صمت قصير واصلت:

- أتعرفين فلورا؟ تغسة التي تختزن كل ذكرياتي وأحاسيسي، حين أردت أن أكتب عنها لم أقل شيئا. شعرت أنني قزَّمتها.. صارت مجرد جزء عابر وتافه من التاريخ والأحاسيس. لم تعد تلك الجغرافيا التاريخية الساحرة بقلب المتوسط. إنني أسبح في الفراغ فلورا.. حقا أشعر كما لو أن مخيلتي محبوسة في قمقم.

أحاطتني بيديها وضمتني بقوة وهي تقول:

- المهم أنك بدأت..

ظلت تدعك ظهري بأناملها فاستسلمت. قالت:

- في الصباح سنعود للجبهة.. أريد أن أعثر على اللوحة يا مختار.. أتفهمني؟

قضيت الليلة متكورا في حضنها لكن الرواية لم تفارق خيالي. وفجأة غمر خيالي شيء جميل.. ساحر.. محفز وباعث على التخيل. تذكرت القصة التي كتبتها قبل سنوات ولم أنشرها. قصة رجل سيهجر قريته لكنه سيعود بعد

سنوات طويلة ليحقق حلم الكتابة بحافز البحث عن الهوية وتحقيق الذات واكتشاف عبق التاريخ. إنها قصتي أنا.. الحنين إلى الأرض والذكريات البعيدة. وفجأة لمع ضوء خافت في مخيلتي وأنا أستسلم للنوم على أنفاس فلورا الدافئة.

في الصباح كنت أكثر نشاطا على غير العادة. لمعت فكرة الرواية في أحشائي كلها؛ قصة العودة وحلم الكتابة ورحلة البحث عن الهوية. وخلال الرحلة ثمة مصادفات ولقاءات ومفاجآت لا تنقطع. سوف يمكنني هذا من جمع الشتات وكل الصور المتفرقة والمعلومات المتباعدة. أطلت الفرحة من عيني. بينما تطلعت إلي فلورا من خلف الباب وهي تستعجلني بالنهوض.

عدنا إلى الجبهة من جديد. كانت في ذلك اليوم قائظة ومزدحمة بالناس والسيارات. تجولنا قليلا في أطرافها قبل أن نقصد بيت السي عبد السلام حميش. عبرنا الطريق الطويلة التي تفصل مركز القيادة الذي بناه الإسبان والمدرسة والكنيسة عن وسط المركز. بدت لي الجدران الشاحبة الباهتة وحيدة مقفرة وقد راكمت طبقات أزلية من الغبار. التفت إلى الحديقة.. بدت مثل شبح هزيل يحتضر.. تيبست أشجارها وانتشرت القمامات في جوانبها. كان الشعور المسيطر علي حينئذ هو السأم. قلت لفلورا بإجهاد وأنا أشير إلى الحديقة:

- هذه الحديقة كانت جنة يا فلورا إلى حدود السبعينات.. وكانت ورودها تُعطِّر الجبهة.. نسيمها يصل إلى كل المنازل والقلوب..

لم تجبني. تابعتُ بفتور:

- خلف تلك الديار يوجد درب اليهود. وإلى اليمين، في هذا الدرب كان يوجد بيت العاهرات (البورديل). وهو الدرب الذي يفضي إلى الحانة الرئيسة التي يسهر فيها الإسبان ويقيمون حفلاتهم.

واصلت فلورا صمتها. عرفتُ أن مزاجها اضطرب. وحين هممت بالحديث قاطعتني:

- لا تقل شيئا يا مختار... أرجوك..

في تلك اللحظات وصلنا إلى منزل السي عبد السلام حميش؛ أو بيت فلورا القديم الذي لا تعرفه. ناديت ابنَه صاحب المقهى. كنت حائرا وتلعثمت في الحديث:

- عفوا.. هذه فلورا حفيدة الطبيب مانولو.. أقصد هذا البيت الذي اشتراه والدك رحمه الله من الطبيب الإسباني مانولو قبل عقود طويلة.. كانت توجد به لوحة فنية، أقصد صورة كبيرة معلقة عند الغرفة المطلة على الشرفة.. هنا كانت توجد شرفة تطل على نخلة كبيرة.. النخلة اختفت..

حرك شفتيه باستفزاز مقيت وقال:

- أي منزل وأية لوحة وأية نخلة... ومانولو من هذا؟

حينئذ جاء الابن الأكبر للسي عبد السلام. قال:

- أهلا وسهلا.. هذا أخي الأصغر لا يعرف شيئا. عرفت من نور الدين أنكما تريدان اللوحة القديمة التي كانت على جدار الغرفة.

قالت فلورا بلهفة:

- نعم.. لوحة "فتاة الجبهة" رسمها فنان إسباني مشهور حين زار الجبهة في أواسط الثلاثينات من القرن الماضي وأهداها لأبـي.. لم يشأ أن يأخذها معه بعد الاستقلال.. قال إنها ذكراه الوحيدة في هذا المكان وسيتركها رغم رفض جدتي نيفادا لقراره..

- أتذكر تلك اللوحة جيدا.. لفتاة شقراء بشعر طويل تطل على البحر من مقدم المركب. كان أبـي يحبها، لكن أمي كانت رافضة ورمتها في القمامة.. كانت تقول هذه الفاحشة إذا بقيت في البيت فلن تدخله الملائكة.

تطايرت شرارة الغضب من عيني فلورا.. فقالت:

- وهل ستدخله الآن وسط كل هذا الحشيش الذي يملأ المقهى..؟

وبينما همّ الرجل بالرد.. جذبتها من يدها واعتذرت بإشارات من كل الحواس.. وانسحبنا بسرعة.

كانت العودة إلى أمتار بلا طعم. فلورا متشنجة وأنا شارد.. بيد أن حلم الرواية الذي انبعث فجأة أخذ يستولي على كل كياني. يدغدغ مشاعري ويومض من بعيد مثل نجمة تلمع في الصحراء. لكن حين وصلنا إلى الدّار حدث شيء طارئ.

جدتي جالسة تحت الشجرة الكبيرة، وبين حين وآخر ترمي حبات الزرع للكتاكيت الصغيرة.

إقرار السِّلم

تناثرت أفكاري مثل حبات قمح في قلب العاصفة وأنا أقرأ ملخص كتاب منحته لي فلورا مؤكدة قيمته التوثيقية والمرجعية. فقد كشف اضطهاد الجنود الإسبان لمناصري فكرة الجهاد بعد استسلام الخطابـي. وأدان السلوك اللَّاإنساني الذي نهجته القوات الإسبانية في مرحلة ما بعد الحرب ونزع سلاح المجاهدين بالقوة. شعرت بنشوة مبهمة وأنا أقرأ الملخص بشغف:

"لم تتوقف المقاومة بعد استسلام عبد الكريم الخطابـي للفرنسيين يوم 27 ماي 1926، فقد قادها أحمد بن محمد خريرو الذي اغتاله الإسبان في بني يدر، وأحمد بودرة وزير الحرب عند الخطابـي الذي استسلم في النهاية وتحول إلى صديق لإسبانيا، ومحمد التمسماني الذي اختبأ في المنطقة الفرنسية، وعلي أخمليش السليطن الذي سلم نفسه إلى الفرنسيين سنة 1927. وقبل أن يعلن سانخورخو في باب تازة انتهاء الحرب يوم 10 يوليو 1927، كان القواد الذين بقوا مناصرين وأوفياء للخطابـي، يتعرضون للمطاردة والسجن رغم إقرار الاحتلال لمرحلة جديدة أطلق عليها "إقرار السلم"، أشرفت عليها تحديدا القوات الصدامية التي كانت ممارساتها ترتكز على الضرب والعنف والتنكيل والتعذيب والقتل من أجل تسليم المجاهدين لسلاحهم. من كان يرفض الأمر يجبر على حفر قبره الذي سيرمى فيه، أو يعلق من أرجله ورأسه إلى الأسفل ويُجلد إلى أن يعترف. وكان بعضهم يخفي السلاح وسط الجبح أو في قبو تحت الأرض. وقد أغدق بريمو دي ريبيرا بسخاء على القواد والضباط الذين قادوا عملية إقرار السلم. وفي سبتمبر 1927 وشح الملك

سانخورخو بوسام ماركيز الريف. كما تمت في أكتوبر من العام نفسه ترقية رؤساء الألوية؛ فديريكو برنغير وكاسترو خيرونا القائدين العامين لسبتة ومليلية، كما توشح باقي الضباط؛ حيث أصبح كوديد رئيسا للأركان العليا وترقى مولا من جينرال كتيبة إلى كولونيل شرفي للوائيين. ومُنحت امتيازات كثيرة للجنرال سانخورخو الذي قسم المنطقة إلى مجموعة أقسام إدارية: الجهة الغربية، وغمارة والريف والجبهة الشرقية. يرأس كل واحد منها مراقب جهوي أو إقليمي. وتنقسم كل جهة إلى أقاليم ووحدات عشائرية بقيادة مراقبين محليين وشيوخ ومقدمين يتوجب عليهم نقل كل الأخبار. تحول القواد إلى جهاز يعمل لصالح الاستعمار الذي يمنحهم رواتبهم. فينقلون للمراقب المحلي كل التفاصيل التي يقوم هو بدوره بنقلها للمراقب الإقليمي إلى أن تصل في النهاية إلى مندوب الشؤون الأهلية. فقد كانت مفوضية شؤون الأهالي تفرض سيطرة تامة على قبائل الحماية. وكان كاباث؛ مهندس جهاز المراقبين، أحد العساكر الذين صنعوا لأنفسهم مسارا مهنيا سهلا في المغرب، فبعد ترقيه إلى ملازم أول عيِّن مراقبا جهويا بغمارة وتمت ترقيته بعد فترة وجيزة إلى كولونيل ورئيس مفوضية شؤون الأهالي".

غمرتني سعادة مبهمة وأنا أقرأ دون انقطاع. خصوصا أن مضمونه يتماهى مع حكاية جدي التي سمعتها مرارا من أمي وأبـي وخالي الحاج محمد. قلت لفلورا بحماس:

- كيف حصلت على هذه المعلومات؟ في أي كتاب أو مقال؟

ظلت تبتسم بتغنج وزهو وقالت:

- إنني أبحث!

أثار الكتاب مخيلتي، وفكرت أن أكتب حكاية جدي مستثمرا التفاصيل التي قرأتها باعتبارها حجة على روايتي. أعددت كأس شاي يساعدني على التأمل.. وكان رأسي ممتلئا بالأفكار حينئذ. مشيت قليلا في فناء الدار أشحذ الذاكرة؛ حركات إحماء استعدادا لمعركة الكتابة، ثم عدت إلى بيت النار

يملؤني حماس جامح.

جنان تازبلت

وصل نبأ استسلام الخطابي كالصاعقة على رأس جدي والمجاهدين. تردد صداه في الجبال والتلال والخنادق.. صمت رهيب تقطعه رصاصات باردة هنا وهناك. لم يرجع جدي إلى البيت الكبير في ذلك اليوم، بل ظل فوق الجبل مع رجاله يرقب السفن وهي تغزو الشواطئ وتقترب. سفن وزوارق عليها جنود إسبان ومتعاونون يطالبون المغاربة تسليم سلاحهم. كثيرون سلموا سلاحهم وقليلون أخفوه. سلم جدي بندقيته الوحيدة لكنه أخفى البنادق الأخرى في مكان سري لا يعرفه غيره.

في أواخر شهر يونيو من عام 1926 وبعد أيام قليلة من انتهاء المعارك، زار بيت جدي أحدُ الضيوف.. تناول عشاءه وقضى ليلته في الحديث. وفي الصباح الباكر انصرف مسرعا قبل أن يتناول الفطور. في ذلك اليوم حاصر الإسبان بيت جدي وفتشوا محيطه وكل غرفة وزاوية وركن عن بندقية ثانية عرفوا أنها ماتزال بحوزته. لم يجدوا شيئا ولم يعترف جدي الذي أدرك أن الضيف قد أبلغ الإسبان بوجود السلاح في البيت.

اعتقل الجنود جدي. أخذوه إلى مركز قيادتهم بتغسة قرب ضريح سيدي العطار. هددوه وعنفوه. وحين أصر على الإنكار حفروا له قبرا وهددوه بالقتل. راوغهم مرتين بأنه سيسلمهم السلاح. وفي كل مرة يقودونه إلى قرية خنوبة يكتشفون أنه يكذب عليهم. لم يستطع جدي أن يواصل مراوغاته وهو يعرف بحكم تجربته غدرَ الإسبان ووحشيتهم. أيقن أنها الفرصة الأخيرة ولا مفر. أخذوه إلى جنان تازبلت مرة أخرى. وبالقرب من ساقية الماء؛ حيث جحرٌ حُشِر فيه جبح نحل، أدخل جدي يده وسط الجبح والتقط غطاء من الثوب الخشن ملفوفا حول خمس بنادق حرب سلّمها للإسبان.

تروي جدتي أن جدي قضى شهورا بعد الحرب لا يكلم أحدا ولا

يضحك. يجلس على مصطبة خارج البيت ويغزل الصوف ويتأمل سلسلة الجبال الممتدة والمطلة على البحر. يظل اليوم كله جالسا في صمت. يذهب إلى المسجد ثم يعود إلى ركنه المعتاد فاقدا الرغبة في الحديث. يشرب الشاي بلا توقف، وأحيانا يتصبب العرق من جبينه وهو يحدث نفسه. وعلى الرغم من إلحاح الإسبان ومعاونيه على جدي كي يعمل قائدا رسميا تابعا لهم، كان يرفض بشدة ويقول: "كيف أعمل مع الذين كنت بالأمس أقاتلهم؟". توسط لدى الإسبان مجاهدون سابقون أصبحوا باشوات وقيادا وشيوخا أبرزهم اليزيد بن صالح، لكنه أصر على موقفه الرافض. كان يكره الإسبان ويقول لأبنائه "النصراني ما فيه خير".

قضى جدي ما تبقى من حياته في بيته ومع أبنائه. يسترجع ذكرياته وتفاصيل الحرب. يحكي لأبـي مغامراته وقصص المجاهدين.. وكان أبـي ينصت له بفخر واعتزاز. يجلسان عند باب الدار على الحصيرة، ويشربان دشيشة الزرع مع الغدان والعسل الحر. يقول جدي لأبـي وهو يشير بسبابته إلى المنحدر "هنا كانوا يسقطون مثل الذباب".

لكن صلابة جدي انتقلت من يده إلى لسانه؛ ففي أيام الحرب لم يكن لديه الوقت الكافي للحديث؛ يقضي معظم أيامه في المعارك من تاغزوت إلى بني خالد إلى بني ورياغل، ويعود بالغنائم إلى بيته ليقضي ساعات في النوم ثم ينطلق من جديد عبر الجبال والخنادق. لكن بعد انتهاء الحرب، صار جدي أكثر نقمة؛ حاد اللسان، يغضب لأتفه الأسباب ويصرخ. عاشت جدتي معه أياما عصيبة. كثيرا ما كان يغشى عليها بسبب صراخه. وكانت هي طيبة القلب قليلة الكلام.. تكتفي بالصمت وتتجنب الجدال. لا تقوى على الزعيق. عاشت حياتها في دائرة الخوف فكان ذلك سببا لانقطاعها عن الدنيا قبل الأوان.

لكنها كانت راضية فتقبّلت حياتها بعللها وعاشت في صمت. أما جدي فعاش نصف عمره الثاني متنقلا بين البيت والمسجد. يحمل عصاه وينزل إلى البحر. يجلس مع بعض الشيوخ إلى أن يصدح آذان المغرب في القرية ثم يعود إلى البيت.

وفي أول جمعة من شهر يوليوز 1974 مات جدي.

وصلنا القرية في ذلك اليوم أنا وأبـي وأمي وأخي جابر وأختي سناء لقضاء عطلة الصيف. وكان جدي طريح الفراش حينئذ. كنت قد بلغت الثانية عشرة ولم أكن أفهم معنى أن يموت الإنسان. ألعب مع الصبية خارج البيت بينما غرفة جدي مكتظة بالعائلة. لكني أذكر أني دخلت الغرفة وقبلت يد جدي وربت هو بيده على رأسي ولمس شعري وابتسم بصعوبة شديدة وهو يردد "الله يبارك فيك آ ولدي" وواصل تلاوة القرآن مع الرجال وهو يحتضر، بينما خرجت للعب تحت شجرة "الطويّر" الظليلة.

حكى لي ابن خالتي أنه في ذلك اليوم، اجتمع هو وأخوالي وبعض رجال القرية في غرفة جدي. ظلوا يتلون آيات من الذكر الحكيم، بينما جدي الذي كان يحتضر يردِّد معهم وقد تسمرت عيناه في سقف الغرفة. الدار مليئة بالناس؛ في بيت النار يحمى الخبز ويطهى الطعام.. جو مهيب ونهاية رجل يختصر تاريخ القرية وبطولتها. قال لي ابن خالتي "جدك يا مختار عاش رجلا ومات رجلا". ثم ضحك وهو يتابع "لم يتوقف عن ترتيل القرآن وهو يحتضر.. راجل حتى في موته". أما جدتي فبكت طويلا حين مات جدي. رغم قساوته آلمها الفراق.

المرأة التي تزوجت وعمرها ثلاث عشرة سنة لترعى جدي وأبناءه في البيت الكبير بعد وفاة زوجته الأولى، لم تعد قادرة على المرح. وهاهي الآن في سريرها تعيش في ظلال الحياة تتنسم عطر الأحباب ومن رحلوا. تقول لي وهي ترتعش "رأيت أمك في المنام يا ولدي تجري في الحقول" ثم تقول "رأيت جدك يصعد الجبل.. رمى عصاه بعيدا وصعد الجبل حافي القدمين.. لم يتعثر. جدك يا ولدي في الجنة". ثم تنام لتصحو ثانية وتواصل رواية أحلامها التي لا تنتهي.

الطاووس الأزرق

حلَّ فصل الصيف في قريتي.. باغتني فجأة فتبددت فرحتي الطارئة.

في أيام الصبا وفورتها، أتذكر أنني كنت أقضي عطلتي الصيفية في قريتي معزولا عن الناس وعن الضجيج وعن السيارات والأضواء، عن حياة المدينة بكل صخبها المريض. كانت تحلو لي الحياة في جزيرتي البعيدة. أشعر أن الأوقات التي أقضيها في حضن الطبيعة هي مخلصي من القلق.. وأن سعادتي الحقيقية، انطلاقي وحريتي، مرتبطة بوجودي في هذه القرية العذراء. لكني اليوم، وفي هذا الصباح القائظ من فاتح يوليوز، أفقت من نومي مفزوعا على ضجيج معركة خارج البيت. فقد انتشرت الجرافات والشاحنات على امتداد الشاطئ محدثة أصواتا مزعجة وصفيرا حادا يقتلع جذور السكينة من الذاكرة. وحين استفسرت بعض الجيران عما يحدث، أخبروني أن السلطات بصدد تهيئة الشاطئ وتنظيفه استعدادا لاستقبال المصطافين مثل كل سنة. بقيت أتأمل المشهد المزعج يصاحبني شعور بالضيق والنفور. الجرافات تطوف في حلقات دائرية وتعيث في الأرض مخلفة زوبعة من الغبار. تقلب صفحة الرمال المكسوة بالتراب فتتصاعد سحب غبار ثقيلة في السماء مخيفة وكئيبة.

تنفست بألم يعتصر مشاعري العميقة المضطربة وأنا أردد بصوت يرتعش اعتقادي الراسخ (يد البشر تخرب كل شيء). ظلت الجرافات تروح وتأتي بلا انتظام أو توقف.. وفهمت أنها بصدد فتح كورنيش على البحر يمكن السيارات من العبور. وفيما بعد بقيت أضحك بسخرية ممزوجة باليأس حين

سألت أحد المسؤولين عن سبب فتح الطريق وأجابني بثقة:

- الناس بحاجة للتجول أمام البحر.. وهذه البقعة الأرضية المطلة على الشاطئ يجب أن تتحول إلى مركز سياحي (مقاه وقاعات ألعاب ومطاعم ووو)..

بقيت أضحك بألم وقلت:

- وهذا الكورنيش المرتفع عن الأرض هل أعددتم قنوات لتصريف مياه الأمطار التي ستتكدس على جانبيه؟

- هذا كورنيش مؤقت.. هو اجتهاد منا فقط.. فكرنا قبل أيام أن نشيده مادامت الآليات متوفرة. ولذلك سنعمد إلى توفير التراب اللازم لتعبيده ثم نغطيه بالحصى..

شعرت بالتقزز فانصرفت. قلت في نفسي أن أنصرف، أفضل من أن أتشاجر معه وأدخل في مشكلات بلا معنى، وأنا لا أتحمل هذا. وقفت عند باب الدار أتلقف كل غبار العالم وضجيجه. إلى جانبـي فلورا وهي تتأمل عيني المنهكتين. قلت لها:

- كورنيش من الطين الأحمر يعلو الأرض بخمسين سنتيما، ولا توجد به قنوات لتصريف مياه الأمطار التي ستتكدس في الشتاء لتكوِّن بحيرات يعشش فيها البعوض. سينجرف التراب وتتحول الرمال أو ما تبقى منها إلى مستنقعات. ما هذا العبث؟

صمت قصير ثم واصلت تفريغ شحنات الغضب:

- ما فائدة كورنيش في شاطئ ليس له منفذ من جهته الشرقية. ألم يكن يكفينا رصيف صغير ومتقن تحيط به أزهار أو أشجار صغيرة؟ كيف يفكر هؤلاء ويغيرون مصير أرض إلى الأسوأ؟ ألم أقل لك إننا بعد الاستقلال لم نصنع سوى الخراب.. سوى البشاعة؟

ربتت فلورا بيدها على كتفي. وفي تلك الأثناء كانت إحدى الجرافات المتوحشة تتجه إلى شجرة جدي وتغرس فيها أسنانها وتقتلعها من جذورها. بقيت متجمدا أتفرج، وبدا العالم من حولي بلا معنى. ولمحت جدتي تنسحب من فناء البيت إلى بابه الخارجي وهي تردد:

- لا تدعهم يقتلعون الشجرة يا ولدي... لقد منعتُهم السنة الماضية.. إنها شجرة جدك التي غرسها أول يوم دخلنا فيه القرية.. امنعهم الله يخليك..

وكانت تغرس أصابعها في ساعدي وكتفي وترتعش.. لكني لم أقو على فعل شيء. ربّتُ على رأسها وأنا أعيدها إلى غرفتها شاحبة الوجه دامعة العينين. في تلك اللحظات شعرت بالرغبة في السباحة. أن أغتسل بمياه البحر الباردة.

وعلى الرغم من أني غصت في أعماق الماء البارد إلا أن الضجيج لم يفارق خيالي، ولا مشهد اقتلاع الشجرة ولا دموع جدتي الحزينة. بقيت وقتا طويلا تحت الشمس أفكر فيما سيأتي. وحين عدت إلى البيت قضيت ما تبقى من المساء نائما.

لكن الليل حمل معه شعورا جديدا بالأمل. كان مشهد الجرافات يثير مشاعري العميقة ويراود خيالي المضطرب المشوش. شعاع من الأفكار أنار في عقلي فجأة وجدد طاقتي الهامدة. قلت لفلورا المنشغلة ببحثها:

- أتعرفين فلورا.. ما حدث اليوم يمكن أن يصير مادة شيقة وجذابة لروايتي، أو جزءا رئيسا من حبكتها. اقتلاع الشجرة وهذا الظلام الذي تغرق فيه القرية، وهذا التحول الجذري والعميق في نفوس البشر وسلوكهم، انعكاسٌ للتحول التاريخي الذي أصاب المنطقة برمتها.

رفعت حاجبيها وبعد تأمل قصير قالت:

- متفقة معك... الأهم في روايتك أن ترصد التحولات الجذرية بين

زمنين أو عبر أزمنة مختلفة. لأن السؤال الجوهري هو: ماذا حدث للمغربـي؟ لماذا يتراجع في الوقت الذي يتقدم فيه العالم؟ ماذا حدث في القيم ولماذا تقلصت الإنسانية؟ مثل هذه الأسئلة إذا ما تم تأملها في سياقيها المكاني والزمني الخاصين بهذه الجغرافيا فسوف تسعفنا في فهم العلل جيدا وتفسيرها.

تملكتني إرادة قوية في تلك اللحظات رغم كل الأحداث الطارئة والمفاجآت. قضيت الساعات المتبقية في الكتابة والقراءة والتنقيب والتسجيل ووضع تصميم مبدئي. وكان ثمة إحساس جديد مفعم بالرضا يتملكني وأنا أطفىء القنديل لأنام، كأني أطفىء نارا كانت تنهشني ببطء.

في الصباح التالي كان الشعور بالمؤانسة هو المسيطر على خيالي القلق. أيقنت أن الهدف قد يحوِّل الحياة الراكدة إلى طاقة منتجة للأفكار. وعلى الرغم من أني قضيت ليلتي موزعا بين الكدر والأمل، الرغبة والفتور، إلا أن لحظة الإمساك بالمادة الروائية جعلتني أنقاد لهذا الشعور الخلاّق النّابض، آملا أن تجود الآمال المعلقةُ منذ زمن بتحقيق الحلم القديم.

وعندما شرعتُ باب بِيت النار على الباحة الفسيحة، لاحت لي صفحة البحر المضيئة وقد تناثرت عليها دوائر وخواتم مشعة متفرقة ومتلألئة. بينما غادرت الشمس سطح البحر باتجاه السماء فعرَّت القرية وكشفت تفاصيلها الغامقة. هل للبشاعة أشكال مثلما للجمال أنماط ودرجات؟ نعم.. فهاهو الكورنيش الطيني الأحمر يخترق الرمال مثل أفعى سامة تتصيد عصفورا بليلا يقف على حافة غصن. وقفت أمام البيت أتأمل شجرة جدي وهي ملقاة فوق ركام من الحجارة والأزبال. تبدو هزيلة.. ذبلت أوراقها وشاخ جذعها الذي نخره السوس. رفعت عيني إلى التّل.. شعرت أن صورتي تنعكس عليه مثل ظلال هيكل بشري من العهد القديم. إنها صورتي أنا.. تتموج وتتصاعد وتهبط وتتقطع وتتناثر. أيُّ سحر هذا الذي دفعني إلى العودة بعد هذا الغياب؟ سحرُك أنت أيتها الأرض الخرساء.. أم غوايتي القديمة وحلمي المبتور أم الخوف على عمري الذي ضاع وأهدرته الغربة الموجعة؟ لا أعرف.. حقا لا أعرف. لكني عدت حاملا سيفا صدئا وذكريات هشةً وإرادة مكسورة.. عدت وأنا أعرف أن

جسدي ممزّق فوق تراب هذه الأرض.. وأن كل أماني القديمة صارت مثل الظلال التي يمحوها الظلام.

التفت إلى الجهة الغربية حيث البنايات متكدسة مثل مخيمات اللاجئين. بنايات قصيرة وطويلة ومتعرجة.. مخيفة ومتآكلة في آن. لكن ما ضاعف شعوري بالسأم، ذلك المنزل المطلي بالأزرق الداكن.. عرضه أربعة أمتار لكنه مرتفع في السماء مثل عنق طاووس أصلع. كلما نظرت إليه استبد بـي الإحساس بالبشاعة وبنهاية الدنيا. قال لي أحد الجيران الوافدين من قبيلة بني خالد حين سألته عن هذا اللون الغريب: "هو لون البحر.. أفضل من الأبيض". لم أستطع الرد عليه، لأني وبسبب طبعي العنيد لم أتعلم الدرس. هززت رأسي قاطعا حديثه ولو أني كنت أتمنى في أعماقي أن أضربه برأسي وأقسمه قسمين.

التاسعة صباحا من يوم السبت. لا جرافات ولا شاحنات.. عرفت أن الآليات انتقلت إلى قرى شاطئية أخرى. لكن صداها ظل يتردد في أعماقي. اكتفيت بكأس حليب بملعقة عسل وجلست عند باب الدار أتأمل بريق السماء والبحر وأفكاري التي هزمها التردد. هل أرتدي قناعا أم إن أقنعتي هي حقيقتي ولستُ سوى شبح يبحث عن اليقين المفقود؟ وهاهو البحر الهادىء يثور فجأة.. هاهي أمواجه ترتفع وترتفع وتغطي الرمال الغامقة. ظلٌّ رمادي يشقه نصفين وأنا هنا أنتظر، بلامبالاة، أو بحنين أعمى، أنتظر شيئا لا أعرفه.. أو كنت أعرفه لكنني فقدت بصيرة الأمل والتجدد. تملأ فلورا كأسي الفارغ وتعود إلى بيت النار ممتلئة بالفرح، هي لا تضيِّع الفرص، والرحلة بالنسبة إليها ليست اكتشافا للماضي أو لأرض مجهولة فحسب، بل فرصةٌ للعمل ولا يجب إهدارها في العبث. "كل أفكاركَ عبث" هكذا قالت لي ذات يوم افتقدنا فيه منطق الحوار. يومها قلت لها "أنت باردة جدا.. ومعك ربما أنتهي قبل الأوان" كنت أتحدث وأفرغ احتدادي وشحنات الغضب التي تجتاحني، ويومها فقدت هي أيضا طاقة التحمل فقالت الكثير، كان صراخها مزيجا من اللوم والعتاب وعبارات الندم. رددت تلك العبارة القاسية مرات متتالية "لم أعد أتحملك" استسلمتُ للصمت بينما واصلت هي لومها الجارح. أتذكر أني نمت في الصالة

ونامت هي في بيت جدتها. قضيت يومين وحيدا كأني أحتضر.. وعندما عادت في آخر الليل لم تتكلم. حضنتني بشدة ورددت "لأني أحبك.. وأخاف عليك أتحمل كل سخافاتك.. لكن إلى متى؟".

قليل من الدفء الممزوج بالضيق غمرني وأنا أشرب حليب الماعز الطبيعي بالعسل. فقد حوّلت السيارات الرباعية التي تمر فوق الكورنيش الجديد وهي متكدسة بالبشر مخلِّفة وراءها زوبعة من الغبار القاتل، طعمَ العسل إلى علقم. توافدت عشرات السيارات الكبيرة والصغيرة.. يتسلل منها جموع من المتعطشين للبحر. نصبوا خيامهم وصار شريط البحر الساحلي مثل حي عشوائي قذر. أما شجرة جدي التي اقتلعت فبُني مكانها مرحاض عمومي ودوش خاص بالمخيم.

وبدأ الضجيج يملأ الفضاء.. وبدأ الذباب الثقيل الأبله يزحف. أصوات مرتفعة وسباب وموسيقى مزعجة، غبار داكن ودخان سيارات رباعية تجري بجنون. انطلقت الاستعدادات لإقامة حفل دوري كرة قدم عرفت بعد ذلك أنه يضم أربعين فرقة ويمتد لشهر ونصف. المباراة الأولى تجمع أمتار بتغسة؛ زعيق الجمهور وصوت المعلق عبر ميكروفون صدىء تحت خيوط الشمس اللاّهبة وأنا في بِيت النار أشعر أن كل شيء انتهى.

الرصاصة الأخيرة

بدأ اليأس يدب في أعماقي من جديد. أيقنت بعد جولات كثيرة ولقاءات عديدة أن الجهل والنسيان يتشابهان. وأن هذه الأرض دفنت أسرارها منذ زمن. انصعت لتلك الأحاسيس الكريهة وأنا أتأمل المراجع من حولي وأتصفح الجذاذات التي بدت لي أكثر تفاهة وعبثا. ثمة حلقات فارغة يجب ملؤها؛ تقول المراجع إن الخطّابـي عيَّن قادة على قبائل غمارة لمواجهة الإسبان، ويقول لي خالي الحاج محمد إن جدي كان يراقب هؤلاء القادة وهم رفاق حرب لأنه يشك فيهم. أين الحقيقة؟

استلقيت على الحصيرة تحاصرني الريبة، طالما رددت فلورا على مسامعي "أنت لا تكتب تاريخا يا مختار، بل رواية.. والعمل الروائي له مقتضياته". وكنت أرد عليها "أعرف ذلك يا فلورا.. لكن بدون معرفة السياق التاريخي والتفاصيل لا يمكنني كتابة رواية عن القرية وعن قصة جدي وعن التحولات التي تعصف بالمنطقة". وضعت يدي تحت رأسي وأنا أتساءل "أين ضاعت الوثائق؟ الرسائل والمخطوطات وآثار الحرب؟" أشرد طويلا في السقف الطيني المعقود بجذوع الأشجار الطويلة وأواصل "لمن كان يحكي جدي؟ أم إنه لم يحك قط واستسلم للصمت؟ هل قال إنه اكتشف الخونة.. هل قتلهم؟ أم تواطأ معهم؟ أم خاف هو أيضا؟"

بقيت أصارع أفكاري وأنا أستسلم لفداحة هذه الأسئلة بدون جدوى. كانت أفكاري مثل قنديل تعصف به رياح هوجاء؛ يوشك أن ينطفيء ثم يشتعل

من جديد ويلمع. حاولت التركيز ووضع تصميم أولي. أمسكت الجذاذات من جديد ورحت أقرأ بصوت جهوري يتحدى صمت بيت النار والصمت القابع بأحشائي. فجأة عثرت على ورقة بيضاء صغيرة عليها اسم خالي أحمد وتحته سطران. لمعت عيناي فجأة وتنهدت. ثم تساءلت بعتاب: "كيف نسيته أو تناسيته؟ وهو أكبر أخوالي سنا.. حكاءٌ ويلتقط التفاصيل جيدا؟" بقيت أتساءل وقد سرح خيالي بعيدا.

كان خالي أحمد الذي يقارب المائة يعشق ثمرة التين. بل إنه كثيرا ما أكلها وهي لم تنضج بعد. يتقاطر حليبها فيسبب له انتفاخا في الشفتين. ورغم كل ما يلاقيه من هذا العشق، فقد كان ينصحنا باستعمال حليب التين لعلاج الدمامل أو الجروح. لا أنسى أنه ذات مرة نصح أختي سناء بوضع حليب التين في أنفها المتورم. تحملت كل الآلام وغطت أنفها بمنديل، وفي الصباح حين أفاقت من النوم وتأملت وجهها في المرآة لمحت أنفا معقوفا يشبه أنف فيل البحر.

كان خالي يتحدث في كل الموضوعات.. يوهمنا أنه يعرف كل شيء ويدرك خفايا الأمور والأسرار. يحكي في الفلاحة والصحة والسياسة أيضا.. يستمع لكل برامج الراديو ويعيد مضامينها حسب سياق الكلام الذي يجمع مجلسنا. لكنه يخطئ.. فمثلا؛ يحول جملة "السوق الأوروبية المشتركة" إلى "السوق العربية المشتركة"، "الأمم المتحدة" إلى "الأمة المتحدة" وهكذا.. لكنه كان أكثر فطنة من خالي عبد المجيد الذي سألوه ذات يوم عن "إسرائيل" فظن أنها اسم امرأة أجنبية.

كان خالي أحمد حكاء فريدا لكنه يبالغ؛ يخلط الحقيقة بالخيال، ربما لذلك تحاشيت منذ البداية، ودون قصد، أن يكون مصدر معلومات تاريخية بالنسبة إلي. وقفت متكئا على الجدار وقد اختلت الدورة الدموية، وانحبست الدماء عن الجريان في عروقي، فشعرت بتنمل في قدمي جعلني متسمرا في مكاني كصنم. عقدت العزم على زيارة خالي أحمد؛ صلةً للرحم ومحاولةً لجمع الأخبار. أيقنت أني أملك في النهاية قدرة على تمييز الحقيقة من الخيال،

الرواية الواقعية من الرواية الوهمية.

خرجت من المنزل دون أن أخبر فلورا. قصدت بيت خالي أحمد في مدشر صغير يسمى "القلعة" فوق جبل متوسط يطل على حقول "أمتار" الفسيحة. صعدت التل وأنا ألهث.. أيقنت أني فقدت طاقتي منذ زمن حين تخلّيت عن عادة المشي. بقيت أقف ثم أواصل ببطء حتى وصلت قمة الجبل. ورحت أطل على قريتي وأتنهد بعمق.

أتاني هواء لطيف عبر تيار قوي يهب من الشمال إلى الجنوب فحرك سعادة قصية قابعة في الأعماق الخفية. دغدغ مشاعري وجدّد الحنين إلى الطفولة وأيام الصبا الفتية. تنهدت وارتعشت. بدت قريتي أكثر جمالا من فوق.. قابعة وسط الخضرة وحقول الذرة.

تحلق الأطفال حولي وأنا أقترب من باب الدار. المنازل كما هي. قليل من التغيير مسها؛ بعض الألوان الفاقعة وكثرة الصحون الهوائية على السطوح. وعند باب الدار يجلس خالي على كرسي خشبـي ممسكا بيده عصاه العتيقة التي ورثها عن جدي. قلت له وأنا أقبل يديه:

- أنا مختار ابن أختك أمينة يا خالي..

قال بحزم وهو يشدّ على يدي:

- أخبروني أنك جئت.. ألا تتذكر خالك إلا الآن..؟

- عفوا خالي.. عدت وتهت.. بل ما زلت تائها..

أمسك بيدي وأنا أجلس إلى جانبه وقد تحلّق الأطفال الصغار حولنا. زعق فيهم فانتشروا وبقينا وحيدين ثم قال:

- كانت أمك يا ولدي تتحدث مثلك.. تشعر دوما أنها تائهة. اللهم ارحمها واغفر لها..

ثم رفع يديه وراح يدعو لها بصوت قوي خاشع:

- اللهم اغفر لها وارحمها وعافها واعف عنها وأكرمها ووسع مدخلها واغسلها بالماء والثلج والبرد ونقها من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس..

وشعرت برعشة عميقة تسري في كياني الهش وأنا أنصت له وهو يدعو بصوته القوي المتهدّج. وكانت الشمس تشتدّ فوقنا فانسحبنا إلى الغرفة الباردة التي تطل على الوادي. ورحت أسأله عن جدي وعن الحرب والشهور التي تلت الحرب.. وعن تفاصيل كثيرة أقارنها بما سمعته من خالي الحاج محمد وباقي شيوخ القبيلة وعجزتها وما قرأته في الكتب والمخطوطات.

انحدرت بعد الزيارة وأنا أشعر بانتعاش.. بنقطة نور تلمع في خيالي وتحرك أمنياتي الخامدة. كل ما حكاه خالي أحمد يؤكد رواية خالي الحاج محمد ويوثقها ويزيدها دقة وعمقا. ولأنه كان يعنى بالتفاصيل جيدا فقد روى واقعة الومبار بدقة متناهية وصحح كثيرا من المعلومات. لكن الشيء الذي أثارني بقوة؛ حكاية الرصاصة الأخيرة التي أطلقها جدي بعد استسلام الخطابـي.

رواية الرصاصة الأخيرة

بعد توقف الحرب، فطن الإسبان إلى أن أرض غمارة كلها صارت خطا آمنا لعبورهم من الغرب إلى الشرق. كانت السفن لا تتوقف عن المرور قبالة شواطىء جنان النيش وأمتار وتغسة؛ تقل المؤن والمعدات والجنود إلى مراكز عسكرية رئيسة في تغسة والجبهة أو بعض قبائل الريف. في تلك الفترة التي أطلق عليها الجيش الإسباني "إقرار السلم"، لم يتوقف الضباط عن ملاحقة المجاهدين وتعذيبهم ونزع سلاحهم.

يقف جدي على التلال وهو يتأمل السفن وهي تعبر المتوسط في سلسلة طويلة ومتلاحقة عليها ضباط برتب مختلفة يملؤهم شعور بالزهو والانتصار. ولم يصدق ذات صباح عينيه حين لمح سفينة تمر قريبا من الشاطىء عليها

ضباط إسبان ومغاربة مخبرون ومتعاونون. التفت جدي وهو يحمل بندقيته إلى الرجال وقال "انظروا إلى السفينة.. أليس هذا الذي يقف إلى جانب الصبنيولي السي مفضل الموظف بمحكمة تطوان؟" ظل للحظات يشعر بالضغينة والأسى العميق. فكر أن يقنصه ببندقيته لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. وفضَّل أن يقنص الضابط. ضغط على زر البندقية وانطلقت الرصاصة فسقط الضابط بينما ابتعدت السفينة مسرعة شمال المتوسط.

بعد يومين تم استدعاء جدي إلى الثكنة العسكرية الإسبانية. قال لأولاده وهو يودعهم "هذه هي النهاية.. حان الوقت". كان يودع بيته وهو يعرف أن حكم الإعدام سينفذ لا محالة. لكن الضابط الذي حقق مع جدي في ذلك الصباح فاجأه وهو يشير بالإبهام ويقول "برافو.. لقد قتلت ضابطا إسبانيا وهذا ما نريده نحن.. أن نقدم التضحيات وندخل هذه الأرض بالدم لا باستسلامكم ورفع الراية البيضاء.. قتلانا يضاعفون رتبنا العسكرية". كان يتحدث بزهو وهو يضع أصبعيه على كتفه. ثم أخلى سبيل جدي الذي لم يصدق نفسه أنه عاد إلى بيته سالما معافى.

وكانت تلك هي الرصاصة الأخيرة التي أطلقها جدي.

توقفت عن الكتابة بسبب الرياح التي تعصف بالباب فتحدث صفيرا مزعجا، وتسلِخُ الأشجارَ وتسقطُ أوراقها. انسحبت إلى خارج الدار. كان الهواء ثقيلا ورطبا وجنائزيا. استبد بـي الشعور بنهاية الدنيا.. فرفعت عيني إلى الشمس وقد حجبتها الغيوم المتسارعة. شعرت بدوار وضيق في التنفس. وكانت فلورا تركض في حافة الشاطئ وتصنع بهجتها. أقفلتُ الباب وعدت إلى بيت النار. أضغط على جبيني بقوة كي أنعم بالسكينة فلم أفلح. الأرق هذا اليوم شديد وحاد.. يعصف بكل حواسي ويشعرني بالذعر.

انحشرتُ في بيت النار. توسّدت ذراعي وانكمشت في غطائي الأبيض. كان الجو حارا لكني أشعر ببرودة عميقة تسري في العروق. يبدو أنها علامات حمى مفاجئة. بقيت أرتعش وأثارني لون السقف الأسود. شعرت أنه يصفعني..

ويضغط على أعصابـي ويستفز مخيلتي الهشة. وفجأة دخلت فلورا. كانت تلهث لكن السعادة تملأ وجهها. قالت:

- هل كتبتَ شيئا؟

نزعتُ الغطاء. قلت بإرهاق شديد وأنا أحاول الوقوف فلم أقدر:

- نعم.. لكن كل ما أكتبه عبث..

وبقيت أضحك بقوة وإنهاك. لكن فلورا اقتربت مني وقالت:

- هذا شعور مؤقت يا مختار.. لا تقلق. أنت في الطريق الصحيح..

قضيت الليلة أفكر.. أهدأ ثم أحتد.. أقرِّر وأتراجع. تخطر ببالي كل الروايات الجميلة.. صورُ الكُتَّاب الذين أحبهم. أفكر في حبكتي الطارئة.. شعور متضارب ومتناقض وأحاسيس جوفاء. لكن فلورا عقدت العزم أن تنتشلني كعادتها من الأرق. أخذت أوراقي وراحت تقرأ بصوت خافت إلى أن غفوت.

هدية البحر

حطَّ قدميه على سطح البيت، فوق مظلة من القصب المعقود بأغصان الدفلى، فأحدث رجَّة. وعند الساحة الفسيحة اجتمع الصبية يهتفون ويهللون.. وأنا أطل من بعيد على فلورا التي خرجت من بيت النار وراحت تلتقط الصور لنسر مشرد حلَّ على القرية فجأة..

الزمن يشبه النهر.. لكنه أحيانا يصير مثل بحيرة راكدة. أهذه هي النهاية؟ أتساءل وأنا أقف على حافة التل بمحاذاة قبري جدي وأمي. يمتد البحر أمامي منقبضا بلون رصاصي شاحب كأنه صحراء عذراء. لا نوارس تطير ولا سحب تظلل الرمال. لم ألتفت إلى القبرين. كنت متسمرا أتشرب رحيق القرية والرحلة وأتأمل عجزي الأبدي. وكانت رائحة الدفلى تأتي من بعيد، تشتت الخيال وتستدعي زفيرا، ثم تنتشر حنينا في الذاكرة العليلة. أتنفس بقوة وأرمي نظراتي إلى الشمال حيث الأفق ينحبس عند التقاء البحر والسماء، فتتشتت عند الحافة حُمرةٌ باهتة رقيقة كأنها فراشة تداعب رياح النهر.

أهذه هي النهاية؟ يتكرر السؤال مثل الرَّجع فيحدث ثقوبا ناتئة في الذاكرة. اعترف أنك تائه. اعترف وابدأ من جديد أو اهرب من جديد.. فلا الأرض هي الأرض ولا أنت هو أنت. أيها القدر الحزين ما هذا العبث؟ لم أكن أملك سوى حلم وحيد وقديم.. أن أحيي هذه الأرض لعلي أُبْعَث معها من جديد. أجلس عند الحافة متعبا أتنهد وأسترجع خوفي القديم من كل ما هو آت ومبهم. أغرس أصابعي في التربة الصلبة. على يميني قبرا أمي وجدي. قبورٌ كثيرة

بلا حدود.. ولا أسماء. أرضٌ منحدرة بأشواك وصلصال وشقوق، تطل على البحر والمنازل وأنا متسمر لا أملك القدرة على المواجهة. اعترف أنك تتوهم وتستعجل.. تبحث عن منقذ لذاتك وهي تتخبط بين حلم الكتابة والأرق الأبدي. وهاأنت تقف حائرا مرة أخرى. ترفع عينيك إلى الشمس وهي تميل. ترمي دهشتك في قلب البحر فتتذكر حياة وحياتك القديمة؛ عجزك ورحلتك وهروبك واستسلامك. تمر الصور مثل إيقاع كمان حاد. البحر يتنفس بهدوء.. أمواجه التي ترتطم بنعومة في الصخور الصغيرة تحدث صفيرا رقيقا. تلامس خيوط هذا القلب وهو يئن مثل عصفور حاول الهرب فعلق جناحه بحاشية باب القفص. كم هربت يا مختار؟ ألا يكفيك وجع الرحيل والتردد؟ أرفع عيني إلى السماء.. خيوط الظلام والنور تتلاقى مثل مصائر الجنود في حرب خاسرة. أشعر أن الحياة تتوقف الآن؛ صمت لا يقطعه سوى آذان المغرب من مسجد القرية. وفجأة نازعني ذلك الشعور الغريب؛ المبهم والمفعم بالرفض؛ شعور صار يلازمني كأنه الظل. التقطت من محفظتي خاتم حياة ورسالتها القديمة. ضغطت على الخاتم بقوة ثم رفعته تحت أشعة الغروب الباردة.. لم يلمع. هل محا بريقه الزمن الطويل؟ لا أعرف. لقد انتهى كل شيء ويجب أن أنسى. النسيان آفة لكنه كثيرا ما يكون نعمة. رميت الخاتم بكامل قواي وأنا أردد "وداعا حياة.." وكان قلبـي حينئذ يخفق بخفوت وانتظام بطيء. ثم فتحت رسالتها المقتضبة والممزقة وقرأت تلك السطور الباهتة:

"أعرف أني أحببتك وأحبك.. وأعرف أن الزمن سيحفظ ذكراك في قلبـي وأني سأتنفس رائحتك طول العمر.. وأعرف أن الظروف التي فرقتنا لا يمكن أن تجمعنا ثانية. وأنا على يقين أنك ستتذكرني أيضا وربما ستتألم لفراقنا مثلما أتألم أنا. لكن الحياة لا تمنحنا كل شيء. ليس وقتا للعتاب ولا الحساب.. لكني أبعث لك خاتمي الآن، احتفظ به وتذكر أني رغم الفراق سأظل أذكرك.. لأني أحبك".

قرأت الرسالة مرتين. رددت بصوت متقطع "لكني كنت أتمنى أن ألقاك كي أنساك يا حياة". ثم مزقتها حبات صغيرة ورميتها في الهواء فتناثرت في قلب الرياح السامة التي تهب من الشمال. حينئذ فتحت أزرار قميصي.. لفحني

الهواء الندي المثقل بالرطوبة. شعرت ببرودة وانقباض. إنني أحترق.. أي كذب! كأني عود بليل يخنقه الدخان في فرن تراب-ي. الرحيل يعني الموت.. لا، يعني النسيان الأزلي.. بدايةٌ لتغريبة موجعة. وها قد رحلت منذ زمن، مخلفا ورائي ظلالا باهتة في السماوات المرهقة.. رحلت لأبدأ ولم أدرك أن البدايات مثل أمواج لطيفة تستدرجك بهدوء عذب ثم تقذفك إلى الهوة السحيقة. إنني أحترق.. أرفع عيني إلى الغمام المشرد، أتيه في مرايا الضباب المترددة؛ وجوهي المكرورة تتناسل مثل حبات الرمل بين ثنايا أصابع طفل يرهبه سكون الليل.

التفت يسارا.. تبدو القرية مثل جناح غراب مكسور.. مشوه ومتعفن. الجمرات تحترق.. تلهبها تلك الرياح السامة. المنازل المتجاورة بعنف مثل فئران صغيرة جائعة في جحر معتم.. والدخان المرتفع من الأفران خلف المنازل.. والأطفال مجموعات صغيرة تائهة مثل خلايا نحل مهاجر. القرية ملطخة بالغبار الندي.. يقسمها واد هزيل ميت متسكع بلا حدود ولا منافذ.. غزته الشاحنات وعمال وافدون يبحثون عن الرزق في أرض الله البعيدة.

الدخان في كل مكان..

ألتفت إلى اليمين هذه المرة هاربا من بشاعة الألوان واختناق الضوء المريض. القبورُ تتشابه وهي تذوب تحت الغبار. سحبٌ منتشرة تتلاقى في السماء الحزينة. تتصاعد تنهيدةٌ متقطعة مرة من القلب.. أنفثها من التل على صفحة البحر.. وأبحث في الموت عن الأماني المنسيّة.

رائحة الموت في كل مكان..

مركب تقليدي صغير يعبر البحر، يتدلى من مؤخّره حبل طويل مفتول وغليظ مصنوع من النايلون يمسكه رجال عند حافة الشاطئ. يمضي القارب والبحارة معا إلى طرف الجناح الأيمن من القرية. يشقُّ القارب البحر بمجدافين إلى نقطة عالية، بينما يمسك باقي الرجال عند حافة الشاطئ بالحبل المقابل. يلقي قائد القارب فم الشبكة بسرعة ويعود. ينزل البحارة بخفة. يمسكون

الطرف الثاني من الحبل ليشرعوا جميعا من الجهتين في جذبه بتواز ونظام حسب أوامر الرّايس.

أخلِّف قبري جدي وأمي ورائي وأنحدر عبر التواءات ضيقة بين الأشواك وأكياس الأزبال العطنة. جذبني مشهد الصيد.. حفر في ذاكرتي انطباعا قديما له طعم الحنين. ألمح وأنا أنزلق عبر الطريق المعرجة نوارس هزيلة تطير بعيدا عن الشاطئ المزدحم وتغرد بكآبة. أسرع الخطى وأراوح ظلي بين الركض والتريث. أشعر بعرق يتصبب.. بارد كريه لزج. ما يزال قميصي مفتوحا.. أغلق الأزرار وأمسح جبيني بساعدي وأغوص في الرمال المغطاة بالتراب إلى نقطة الصيد. إنهاك شديد ورغبة في الصراخ.. هذيان أو تبلد مفاجئ.. رغبة مكسورة وآثار حلم قديم. أشياء كثيرة تزاحمت بداخلي وأنا أواصل الخطى عبر الشريط البحري الطويل بإرادة مكسورة مشتتة ورغبة لا تقاوم في السقوط.

وقفت قليلا ورفعت عيني إلى بقايا الشمس الشاحبة وهي تميل وتصنع خيطا رقيقا متوهجا ودافئا عند الأفق. تنهدت هذه المرة بقوة:

- ماذا تريد؟ هل ستتوقف أم ستصنع مجدا وهميا لأحلامك القديمة وتواصل رحلتك إلى المجهول؟

تساءلت والبحر يفترش أمامي مثل سجاد عليه صور من الألياف والطحالب والزبد. انحشرت بين الصيادين أتأمل أقدامهم المشقوقة وأياديهم الخشنة. جذبت الحبل مثلهم في حركات متتابعة بانتظام. كل يأخذ دورته ويمضي بالحبل إلى الرايس ليلفه في دوائر متناسقة على الأرض. وبعد كل دورة يخطو قليلا إلى الجهة المقابلة حيث تتكرر العملية بانتظام.

أضغط على الحبل بكفي المرهفتين.. يعتصر فتنزلق القطرات المالحة على ساعدي. أشعر بإنهاك.. بتعب لذيذ خال من المعنى. تتورم يداي.. أجذب الحبل بنعومة.. يصيح الرايس بشدة فأعتدل وأواصل المسير الدائري. لكن البحارة ينظرون إلي باستغراب..

شعرت بثقل الشبكة بين كفي، وحين تطلعت إلى طولها فوق سطح البحر بدت لي بعيدة، فازداد شعوري بالإرهاق وبطء الزمن. فكرت في التوقف للحظات.. لكن شيئا عميقا دفعني إلى المواصلة؛ شيء أقوى من الإرادة؛ حافز خفي ومبهم. إن الحوافز تفوق وعينا، تتحرك مصادفة أحيانا وتنبعث من أقاصي الروح دون إدراك وتمثل أحيانا أخرى. فهل كان حافزي للمشاركة في الصيد في ذلك اليوم غير مبرر بالنسبة إلي؟

واصلت جبذ الحبل.. أدفعه أحيانا وأتكئ عليه أحيانا أخرى، أنظر إلى الرايس، يشخط بقوة:

- إيبييه يا الرجال.. جرّوا... جبذوا الحبل...

تتحمس قواي الضعيفة حماسا هزيلا مصطنعا. أضغط بقوة على الحبل فتنزلق قطرات العرق على جسدي مرهقة.. تتصبّب بطيئة مثل مياه شلال آخذ في النضوب وتختلط بمياه البحر المعصورة. أشمِّر كمي القميص ثم أسرح بالخيال بعيدا؛ أفكر في حياتي التي لم يعد لها معنى. الرحيل والعودة والإخفاق في كل شيء. إنني محكوم بالعلل؛ هشٌّ كما قال خالي الحاج محمد. الجينات المتوارثة تصيب هذا الجسد المثقل بالحيرة. أضغط على الحبل أكثر، أعصره بيدي فأشعر بتورم. احمرار شديد ولهيب يسري في العروق. أرفع عيني إلى السماء؛ دوار وعدم رغبة في أي شيء، أستدير يمينا وشمالا، شرقا وغربا، لا نوارس تحلّق ولا قطط ولا صبيان. الجو ينذر بعاصفة قادمة. كثبان الرمال البنية بدأت تتحرك ويتحرك الغبار.. غمام ثقيل يصعد من الشمال.. وريح سامة تمضي بين حين وآخر تقرص هذا الجسد الواهن..

قرص الشمس ينزلق عند الحافة، يأخذ البحر لونا رماديا كئيبا.. تنعكس ظلال قاتمة على صفحته فتبدو المويجات الصغيرة التي تصنعها الرياح أشبه بندف الثلج حين تغطي الجبل. ألتفت إلى الرايس.. وجهه مشقوق بخطوط ناتئة؛ نحيف أعجف صلب خشن الملمس.. تبدو عيناه الغائرتان وقد علاهما البياض مثل شمعتين على ظهر مركب تائه في قلب المتوسط.. إنهما بلون

البحر لا أثر للهزيمة فيهما؛ قديمتان قدم هذه الأرض. وحين يصرخ، ينجلي فمه عن ضرسين وسنين متباعدين مثل أعمدة آيلة للسقوط في معبد حجري.. فيتدلى لسانه الصغير؛ يطل بسرعة ثم يختفي؛ لسان أفعى هرمة. أرقب جسده النحيل الخفيف وقد برزت عروقه النابضة وهي تكاد تنفجر.

أشم رائحة السمك من حولي وهي تنبعث بخفّة وتقَطُّع من أجساد الصيادين بملابسهم المهترئة، أُقارنها برائحة تشع في الذاكرة.. أي كذب، هي رائحة الصناديق المركونة على الشاطئ وقد تيبست بداخلها حراشف السمك مع زبد البحر وحشائشه؛ مزيج عطنٌ محفِّز على التذكر. نزعت حذائي وغرست قدمي في الأرض الباردة. أشعر بوخز طفيف.. أميل مع الحبل.. يجذبني هو.. أستسلم.. تتكثف الرائحة العطرة.. يعلو الصراخ من الحناجر المبحوحة.. يقترب فم الشبكة من الشاطئ فتتداخل الأصوات ويتشابك الصياح ويحتدُّ صوت الرايس بتهدج:

- إيه يا الرجال... جبذوا الحبل.. الخير الخير.. الشبكة ثقيلة.. جبذوا.. يا الله..

يسري الحماس بقوة وتهتز القلوب. الشبكة تقترب.. أمسكت بأول قطعة رزازة باردة ملفوفة بالحبل.. تهوي بأحد طرفيه إلى القعر بينما تعلوها عوامة مستديرة وجوفاء يمرر الطرف الثاني من داخلها فتمكن الشبكة من الطواف على سطح البحر، ويتوسّطُ الطرفين المعقودين نسيجٌ من الخيط المشَبَّك يمنعُ تسلل السمك. جمعت الحبلين التحتي والفوقي معا بقبضة كفي وجذبتهما بقوة وقد أخذني الحماس القديم فجأة.. خرج كنبع صاف من الغدير.. حرارةٌ تتصاعد من الأعماق وعرقٌ لزجٌ باردٌ يتصبب.. أمسحه بكمي قميصي المبلل ثم أنثره في الهواء.

في تلك اللحظات غابت الشمس عن القرية. ولاح لي النسر وهو يربض فوق سطح البيت شاردا. وعلى بعد خطوات، كلبٌ أجرب أسود.. التف على ذيله واستلقى على عجين الحصى والرمل والتراب وراح يتمرغ. لكن شعوري

بالحماس المفاجئ أخذ يتقلص مع سقوط الظلام.

كان جسدي يندفع من دون قرار.. وعقلي مرهق يتوق إلى النسيان؛ أن يصير كالعدم بلا رائحة ولا هدف. أن يذوب مثل كرة ثلج في صحراء قصية. أجذب الحبل فتنجذب كل ذكرياتي القديمة؛ الأحلام الفتية.. حياة وهي تشق الريح مثل غزالة برية ممشوقة.. الآلام المتراكمة؛ الأرض الصلبة وقطرات المياه المزعجة في غرفة من مترين برائحة عطنة مقززة، الآهات وصدى الصراخ.. الجنازة المهيبة والرحيل، صورتها وهي ترفرف مثل نجمة أرقها الليل. كل الذكريات الحلوة والمرة تتداعى في هذا الجسد المثقل بالخوف؛ حبيس الآلام المتراكمة. أعصرُ الحبل البنّي المجدول فتختنق أنفاسي وينقبضُ ذلك الأمل الذي يطلُّ من بعيد. وحدها الكتابة كانت تمدد شعوري بالأمل..

رفعت عيني إلى النسر ثانية. لا شيء فوق السطح. بدا لي الصبية وهم يجرونه. يشرعون جناحيه الطويلين المزخرفين ويساعدونه على التحليق. لم يحلق.. ظل مثل صخرة انحبست في القعر.. ربطوه بحبل وأخذوا يسرعون.. وهو مستسلم..

يشخط الرايس فينتشلني من الهذيان.. تتشابك الأصوات ويرتفع الصياح:

- جبذوا الحبل.. الشبكة ثقيلة.. الخير هذا النهار تبارك الله، الخير..

كانت الشبكة تقترب وتزداد ثقلا.. شيءٌ يجذبها إلى القعر. ربما أغصان الشجر أو الأحجار الثقيلة.. لكن الرايس أدرى مني؛ فهو يشعر بوجود السمك من لمسة الحبل. آه.. كم أشتاق لرؤية السمك وهو يلمع ويتنطّط ويهتز ويتزاحم داخل الشبكة فتنبعث نسائم البحر القديمة العالقة بالذاكرة القصية. كم أشتاق لأن أنغمس في المشهد لعلني أستعيد فرحة الأطفال حين ينطلقون.

فكرت في فلورا، أن تلتقط صورا لهذا الخفقان أو لهذا الطعم الخفي النابع من الزمن القديم؛ الانطلاق والمرح فوق الجبال والتلال وبين الحقول..

تسلق الأشجار والمكوث بين أغصانها لساعات نروي الحكايات والنكت ونضحك بجنون. نلهث ونحن نجري في الرمال ونغمر أقدامنا بمياه البحر الباردة فيأخذنا الحنين. يمر شريط الصور العذبة كأنه حلم مفاجئ تبدده الظلمة وهي تبسط جناحيها. لكن فلورا ماتزال منغمسة في رسائل الشيخ تبحث فيها عن صور الحنين.

واصلت جبذ الحبل.. الكلب الأسود لا يظهر منه سوى بياض عينيه مثل نجمتين تنطفئان. رفعت عيني إلى السماء الثقيلة المعتمة. لفني الدوار فتنهدت بقوة لأستعيد إدراكي. ضغطت على الحبل بيدي المتورمتين. حفرت قدمي في الرمال والحصى وبدأت أشعر بشيء جديد مفاجئ؛ كأني أنسى تاريخي.. كل قصصي القديمة الباعثة للألم. كل إخفاقاتي تتبدد وأنا أعاند الحبل الثقيل وهو يصارع المصير.

الرايس يصرخ بحنجرة مبحوحة.. الأقدام العارية تتشابك مثل خيوط الصوف في قلب الريح.. والشبكة تقترب من الشاطئ؛ تبدو قشورها مثل قناديل صغيرة في صحراء معتمة. يصرخ الرايس بلا توقف؛ طاقة الصراخ التي يملكها تكفي أن تضيء الليل والبحر.. يأمر بحدة بينما الطرفان المتقابلان من البحارة يقتربان ويصنعان خندقا متوازيا في مواجهة الموج:

- الحوت هرب... جبذوا الحبل.. جبذوا الحبل..

وفي لحظة انفعال شديد، ترك موقعه وانغمس وسط الصفين في مواجهة الشبكة وهي تلامس صدى الأمواج. وراح يرمي الحصى والحجارة على صفحة البحر ليمنع السمك من التسلل والقفز فوق الحبال. يرمي بقوة وهو يصرخ ويلعن ويدعو ويستجدي.

كنت أرقب البحر وهو يختفي في الظلمة بتمعن شديد لكني لم أر سمكا ينط.. كانت العتمة قوية رغم ضوء القمر الخافت المتردد بين ثقوب السحاب الصغيرة وهو يرسل سهاما لامعة على صفحة البحر.

ووجدت نفسي، من دون قرار ذاتي أو حافز واضح، أنخرط مع الرايس في رمي الحجارة والصراخ. وقفت إلى جانبه. أمسكت بقبضتي حفنة من الحصى الصغير ورميتها بعيدا وأنا ألهث. والرايس يواصل الصراخ وأنا أردد معه. في تلك الأثناء بدأ قرص القمر يضيء عتمة الليل، وبدت الوجوه المشقوقة حينئذ أكثر حماسا وهي تنزف عرقا باردا. اجتمع الرجال في دائرة واحدة حول الموج نتوسطهم أنا والرايس الذي واصل الصراخ بينما اكتفيت بتأمل الوجوه؛ شيء أصابني فجأة كأنه التبلد أو الجمود. وبدأت الأجسام تتزاحم حولي وتتدافع. شعرت بانقباض شديد واختناق حاد؛ شيء يتصاعد من أسفل قدمي وينحبس في صدري مثل الشعور الذي يسبق الغثيان. بحثت عن الرايس.. لم أجده، تاه في ازدحام الأجساد والأرواح والكلمات. الكل ينتظر رأس الشبكة بينما رفعت عيني إلى القمر. بدا لي مثل وجه قديم أعرفه.. ملامحه تظهر وتغيب؛ زرقة شاحبة وبياض مكسور وخطوط غائرة ومنتشرة بلا انتظام. أمعنت النظر فيه.. راح القمر يكبر ويكبر وأصابني الدوار. ارتعاش طفيف وبرودة لاسعة أعقبهما ارتخاء وارتجاف. شعرت بثقل يسري في يدي وقدمي، وراحت عيناي تميلان إلى قاع الموج حيث يتدفق البحر ويطفو الزبد.

في تلك اللحظات صنع البحارة دائرة حول الشبكة التي تقترب.. يجرون الحبل وعيونهم تتطلع. الكل يصرخ وينتظر بينما تسمرت أنا مثل صنم جرفت المياه مسكنه الآمن ليظل معلقا في الريح. وبدأت الأصوات تخفت وتهدأ، ولاح في الأفق الباهت صوت الرايس من جديد بعزيمة أقوى وحماسة أشد. وفي لحظة جبذ البحارة الشبكة دفعة واحدة قوية فانطرحت على فرشة الشط تغمرها المياه من الأسفل. أضاء الرايس مصباحه اليدوي ووجهه إلى فم الشبكة حيث البحارة ينتزعون غطاءها الفوقي.. لمعان فسفوري وكتلة كبيرة غير واضحة كأنها جذع شجرة مبتورة. في تلك اللحظات انبعثت إلى أنفي رائحة عطنة فاقمت إحساسي بالغثيان.

وبينما أضع يدي على أنفي، تراجع البحارة جميعا إلى الوراء من هول الصدمة، وبقيت وحيدا في مواجهة جثة متعفنة؛ جسد مهترئ ومتآكل لا يظهر

منه إلا الظلال.. مسنون الوجه. ظل الضوء يراوح مكانه بارتعاش؛ يكشف الهيكل البشري ثم يختفي. بينما تراجعت إلى الوراء وسط همهمات وكلمات غير متناسقة. كنت ألهث وأنا أبتعد وأنظر إلى البحر بعينين مذعورتين. وعلى الرغم أني لم أكن قادرا على الجري، فإن خوفا شديدا استبد بـي حينئذ ودفعني إلى الركض. بقيت أجري منهكا وأنا ألتفت حولي وألهث.. يملؤني شعور بالغثيان تفاقمه تلك الرائحة العطنة التي تزكم أنفي وخيالي. أجري مخلفا ورائي ظلمة شديدة، لكن ظلمة أخرى تواجه طريقي وقد حوّلتني إلى جسدٍ خفيف يطير في الأفق الندي.

أسقط وأتعثّر في الرمال المغبرة ثم أنهض وأواصل العدو وأتطلع إلى القمر الذي تحجبه غيوم الليل.. قلبـي يدقّ بشدة؛ خفقانٌ متسارع وعرق لزج لاسع.. وأنا أزفر بقوة تلك الرائحة.

Notes

[1←]

ِفة توجد بمنازل قرى المغرب، تحتوي على "الكانون" الذي يستعمل للتدفئة والطهي. وهو مكان للسمر حيث تروى الحكايات على وقع النار المشتعلة مقاومة للبرودة وقساوة الشتاء.

[2←]

يع المعز والبقر والخرفان..

بِيت النَّار

هشام مشبال

▪ كاتب من المغرب.

قال الشيخ لفلورا:

- ألما يا ابنتي كانت مثل فراشة.. تحلق.. وكانت تضيء ليل الجبهة وتضيء هذا القلب..

ثم ربت بكفه على أوتار العود وتابع:

- هي في خيالي باستمرار؛ تجري وسط الأشجار والورود وتطير.. تدير ظهرها للجبهة وتواجه البحر بيدين مشرعتين للريح وتبتسم. أرقبها تحت النخلة مثل زهرة برية يافعة تقاوم الظلال الباردة.

حكى الشيخ أنهم جميعا كانوا يصعدون جبل «مرسى الدار» في بداية الخمسينات، يعزفون فوق قمته العالية، أو في «الغريفة» المطلة على الميناء. تلمع عينا ألما سعادة وحنينا وهي تضحك للشمس، بينما الشيخ يعزف وهو يتشرب رحيق عينيها الضاحكتين. تضيء الشمس خصلات شعرها وتضيء قلبه. يختلس النظر إليها وهو يواصل العزف على العود.. وحين أراد ذات مساء ربيعي عذب أن يهمس في أذنيها بارتعاش، قالت له وهي تنسحب مثل الغروب:

- لا تقل شيئا.. إنني أراه في عينيك.








منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com


ISBN 978-614-02-1704-1
9 786140 217041